رواية
زنج
عمرو العروسي

زنـج

الكتاب: زنج/ رواية
المؤلف: د. عمرو العروسي
تصميم الغلاف: coorsez
تدقيق لغوي: إسلام عشري
رقم الإيداع: 2018/23442

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت: 02-338560372
info@noonpublishing.net
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

د. عمرو العروسي

زنج

رواية

2018

ن للنشر والتوزيع

معلق أنا على مشانق الصباح...

وجبهتي بالموتِ محنية...

لأنني لم أحنها حية..

أمل دنقل- كلمات سبارتاكوس الأخيرة.

أنا المعتمد

الخميس 10 رجب

سنة 258هـ

قمت من نومي مُنتشياً لا أستطيع كبح زمام نفسي من فرط الإثارة. لم أنم جيداً ليلة أمس فبعد ساعات سوف تنفذ إرادتي في أحد كلاب الزنج. كنت أسترجع مرات ومرات مشهد هذا الصعلوك الذي اجترأ على دار الخلافة وتحداني. أمس رأيته محمولاً على ناقة كما تُحمل الذبائح... مَّوثق الأيدي والأرجل... وقد تدلت رأسه من ناحية وقدماه من الأخرى. قد تم اصطياده حياً طازجاً من ساحة القتال رأساً إلى سامراء عاصمة الخلافة ليلقى جزاءه العادل... اليوم سوف يكون عبرة لمن لا يعتبر. لعل «الخبيث» يعلم كيف انتقمت من خادمه فيموت رعباً قبل أن يلقاني.

- هويدا...

دخلت الفتاة تلبي النداء... تُساعدني في خلع ملابسي تَعُدني للاستحمام، أريد اليوم أن أكون على أكمل صورة وأنا أغرز سيفي في سويداء قلب الخائنين. أريد لرعيتي أن ترى الفارق بين أُبهة الملوك وحقارة الصعاليك. استحممت في سرعة مُتلهفاً أن تبدأ المراسم. ارتديت ملابسي ناظراً إلى هيئتي في المرآة راضياً، دققت النظر إلى وجهي واستدرت أنظر لنفسي من الخلف.

كل ما في مثالي وجميل؛ فقط لو زادني الله قدراً من الطول... نفضت عني تلك الخاطرة وتمنطقت سيفي منطلقاً خارج الجناح.

توتر الجميع لخروجي كالمعتاد... لكن توترهم اليوم أحدث جَلَبة أشد. كأنهم يشعرون بالاستثارة الكامنة في نفسي من خطواتي الواسعة وحركاتي السريعة، كانت الحاشية تزداد من خلفي كُلما تعديت مقام... حتى صارَ الجَمعُ من خلفي خلقاً كثيراً.

امتطيت جوادي مُتبختراً في طريق قد أحاطه من الأجناب جنود ذوي هامات مُنحنية. كانت ساحة الانتقام مُعدة على أكمل وجه. صار قلبي يخفق بقوة بين أضلعي... وعندما وصلت إلى مقامي... تجنبت النظر إلى الحقير المُكبل إمعاناً في ازدرائه. جلست على الدكة التي أمرت بإعدادها خصيصاً يوم عرفت أنهُ قادم إلى سامراء لأشهد من فوقها مراسم الحفل الذي أُعِدَت فقراته بدقة. جلست على دكتي بابتسامة واثقة أوزعها على القادة من حولي وصَمَتَ الجميع في انتظار أوامري. رفعت يدي آذناً بأن يبدأ الاحتفال.

انطلق صوت قوي زاعق من رجل أسمر رفيع يحمل رقعة في يده عن يميني منتصباً في زاوية يمينية غير مرئية. كان للرجل صوتاً جهورياً واضحاً عميقاً لا يتناسب مع سنه المُتقدمة:

- يا أهل سامراء الكرام... ماثل أمامكم العبد الآبق «يحيي بن محمد» المعروف بالـ «بحراني» خادم «الخبيث» «علي بن محمد». قد أمكن الله مِنه مولانا «الموفق»... أخ الخليفة وقائد جيوشه بعد أن قام باصطياده عند نهر العباس.

صمت الرجل لوهلة يلتقط أنفاسه وقد استرق نظرة إلى مُستَمعيه يحاول أن يتبين منها أثر كلماته عليهم. مسح العجوز عرقه بأصابع

موشـومة بالتجاعيـد ثـم أمسـك الرقعـة بأنامـل بللهـا العـرق وأكمـل بصـوتٍ مـشروخٍ:

- هـذا الوحـش الأسـود الضـاري... قَبَّـحَ اللـه وجـه... قـد روَّع الأطفـال واغتصـب النسـاء العفيفـات الشريفـات، وامتـدت يـده لأعـراض أسـياده وأموالهـم... فذبحهـم واسـتحل نسـائهم وسرق أموالهـم، فحـق عليـه العقـاب، وليعلـم الذيـن ظلمـوا أي مُنقلـبٍ ينقلبـون.

ارتفـع هتـاف النـاس مـن حـولي بالتزامـن مـع انتهـاء العجـوز مـن المكتـوب في الرقعـة، كانـت عـروق وجهـه لامعـة تحـت أشـعة الشـمس وهـو ينظـر إليّ في خضـوع مُنتظـراً أوامـري لتبـدأ الفقـرة الثانيـة مـن العـرض كـما هـو مُتفـق عليـه، فأومـأت لـه بترفـعٍ ليبـدأ العـرض الحقيقـي.

هُنـا تقـدم اثنـان مـن الجلاديـن الأشـداء إلى «البحـراني». كانـا عبـدان سـود البـشرة.. أحدهـما طويـل ممشـوق القـوام حليـق الـرأس، والآخـر ممتلئ الجسـد وقـد تدلـت بطنـه فـوق سروالـه؛ بـه عـور في عينـه اليـسرى وقـد بـدت هيئتـه مُرعبـة تبـث الرهبـة في القلـوب.

تقـدم الطويـل نحـو «البحـراني» ليفـك يديـه المُقيدتـين خلـف ظهـره ليعـاود ربطهـما مـن جديـد في السـاري المغـروز حديثـاً ليكـون ظهـره في مواجهـة الآخـر الممتلـئ، بعـد أن أحكـم الأول أيـدي وأرجـل «البحـراني» تقـدم الممتلـئ بخطـوات سريعـة قويـة نحـوه وقـدَّ قميصـهُ مـن دُبـر بجذبـة واحـدة مـن يديـه فشـهقت الجماهـير مـن فـرط الإثـارة. تراجـع المُمتلـئ ليتنـاول سـوط لم يُنـزع ثمـاره فبـدا في يـده مَهـولاً مُفجعـاً. واقـترب الجـلاد مـن ضحيتـه وشرع في جلـده مئـة جلـدة... هـو فقـط مـن يعـرف العـدد، كان للسـوط قـرع مُخيـف... أجـبر المُشـاهدون عـلى الصمـت احترامـاً للضربـات الأولى... مُتصنتـين لسـماع أنـات البحـراني المُنفلتـة مـن فمـه. ولمـا بلـغ الألم مـداه شرع الحقـير يولـولُ

مثـل النسـاء لا يسـتطيع كتـمانِ أوجاعـه يسـتجديني ويتهـم نفسـه بأشـنع العبـارات.. سـاد الصمـت بـين الجماهـير أكـثر مـع صرخـات البحـراني الأولى... ثـم سرت همهمـة ضعيفـة بينهـم أخـذت تعلـو بانتظـام مُشـجعين وقـد تفجـرت الدمـاء مـن ظهـر المجلـود.

انتهـى المُمتلـئ مـن ضرب السـياط... مئـة ضربـة بالتـمام والكـمال، أصبـح «البحـراني» عاجـز عـن الـصراخ بآخـر عشريـن منهـا. تقـدم الأسـود الطويـل مـن «البحـراني» يفـك قيـده فانهـار سـاقطاً عـلى الأرض كجثـة هامـدة وقـد التصقـت ذرات الـتراب بالنصـف الأيمـن مـن ظهـره وتغلغلـت داخـل اللحـم المُهـترئ، ألحـت عـليَّ الرغبـة في الوقـوفِ مـن فـرط الإثـارة... لكنـي قاومـت نفـسي حفاظـاً عـلى مقـام الخلافـة.

تقـدم العبـد الطويـل ومعـه عبـد آخـر جديـد يمسـكون «البحـراني» مـن أكتافـه وقـد مـدَّ الطويـل يـد «البحـراني» اليُمنـى عـلى منصـة خشـبية؛ في الحـين الـذي تراجـع فيـه المُمتلـئ مهـرولاً ليحـضر سـيفاً عظيـماً. كان يضحـك مُنتشـياً وقـد بـدا أنـه جُـنَّ تمامـاً... نظـر إلى الجمهـور وهـو يرفـع سـيفه في السـماء محييـاً... وكأنـه يريـد أن يحصـل عـلى انتبـاه الجميـع قبـل أن يـأتي بحركتـه الدمويـة القادمـة. ولمـا تأكـد مـما يريـد..

هـوى بالسـيف فجـأة عـلى الـذراع المُمتـدة لتسـقط بغتـة عـلى الأرض بجـوار الجسـد المُعـذَّب ليلتقطهـا قاطعهـا ويلـوح بهـا في السـماء إلى الجماهـير الناظـرة. انطلقـت صرخـات مُشـجعة مـن المُتحلقـين حـول السـاحة... في الحـين الـذي وارت فيـه بعـض النسـوة أعينهـن مـن قسـوة المنظـر. كان المُمتلـئ يلـوح باليـد الآن في وجـه «البحـراني». وكأنـه يسـأله عـن إحساسـه وهـو يـرى يـده تلـوح للجماهـير بعيـدة عـن جسـده. ولمـا ارتـدت نظـرة «البحـراني» عـن يـده المبتـورة قـرر الجـلاد الانتقـال إلى الخطـوة التاليـة، فهـو يحفـظ فقـرات الحفـل عـن ظهـر قلـب...

حمـل العبـدان الآخـران جسـد المـارق أفقيـاً، ووضعـت القـدم اليـسرى للبحـراني عـلى منصـة البـتر. فاسـتدار الممتلـئ هـذه المـرة بغـير أن يـتردد فقطـع قدمـه بضربـة واحـدة مـن منطقـة الفخـذ. لم يسـمع أحـد صراخ لـهُ هـذه المـرة؛ فقـد كانـت صيحـات الجماهـير هـي الغالبـة. لم يأبـه الجـلادون هـذه المـرة للقـدم المفصولـة. بـل اتجهـوا بضحيتهـم مبـاشرة إلى ذاك الوتـد المغـروز ليتـم توثيـق «البحـراني» بـه مـن منطقـة الوسـط والصـدر. وهنـا أظهـر الجـلادون خناجـر صغـيرة كانـوا يتمنطقـون بهـا فبـدأ الطويـل بجـرح البحـراني في صـدره وتـلاه الآخـرون يُخَبِطونـه بالخناجـر حتـى بـدا أنـه قـد انتهـى أو شـارف... هنـا هببـت واقفـاً، وأشرت إليهـم بإشـارة يفهمونهـا فتوقـف الجـلادون عـن رقصتهـم الدمويـة المحمومـة وقـد أفسـحوا المجـال لكبيرهـم الـذي تقـدم بخنجـره مـن خلـف البحـراني، فسـكت الجماهـير مُنتظريـن الضربـة الأخـيرة. وبالفعـل نَحَـرَ الممتلـئ «البحـراني» وقـد تفجـرت الدمـاء غزيـرة مـن رقبتـه، فمَسَـحَ المُمتلـئ خنجـره في سروال المقتـول قبـل أن يتمنطـق بـه ثانيـة.

جلسـت بعـد أن تيقنـت مـن إزهـاق روح الأسـود وانتظـرت هادئـاً تنفيـذ أمـري الأخـير.. تحـرك الطويـل إلى قربـة الزيـت فسـفكها عـلى الجسـد المُتـدلي ثم أضرم الآخـر النـار، وعندمـا انبعثـت رائحـة الشـواء في الهـواء تـلا الرجـل الأسـمر الرفيـع مـن رقعتـه:

- هـذا جـزاء مـن يتجـرأ عـلى مقـام خليفـة المسـلمين وملـك العـالم السـلطان المُعظَّـم «المعتمـد عـلى اللـه»، وليعلـم «الخبيـث» «عـلي بـن محمـد»، أنـه لا بـد قائـم مقـام صاحبـه خـلال أسـابيع قليلـة. ليـذوق وبـال أمـره أضعـاف مـا ذاق صاحبـه فقـد اغتصـب النسـاء وقتـل الأطفـال وذبـح الرجـال وسرق الأمـوال ونهـب الغـلال، وهـو عهـد ووعـد يقطعـه لكـم الخليفـة «المُعتمـد»... نـصر اللـه الخليفـة وسـدد جيشـهُ بقيـادة أخيـه «الموفـق»...

سكت الرجل لوهلة يلتقط أنفاسه وينظر إلي إن كنت راضياً ثم طفق يُكمل...

- اللهم سدد رميهم وثبت الأرض من تحت أقدامهم وبث الرعب في قلوب أعدائهم...

اختلطَ صوت الدعاء بصوت قرقعة جذوع الأشجار المُتيبسة تلتهمها النيران.. سكت الجمع إلا من صوت انصراف بعض الناس وقد أزعجتهم الرائحة. رأيت أحدهم يتقيأ وقد عجز عن تحمل ما رأى. آن الأوان أن أنصرف قبل انفضاض العامة فعمدت إلى فرسي مُنسحباً يتبعني الجمع العظيم.. تركت جثة البحراني تأكلها النيران وقد أصاب قلبي شيئاً من الشجو والرهبة. هل يُمكنني الله من هذا الخبيث «علي بن محمد» كما وعدتهم، هل سينجح «الموفق» أخي في أن يأتيني به أو برأسه خلال المُدة المضروبة، كم تتوق نفسي لحفل جديد تكون فيه الوليمة أثمن وأشبَع.

* * *

اسمي أدهم

رمضان 258هـ

اليوم أول أيام الشهر الفضيل، كم أعشق هذه الأيام المباركة، ففيه لا يكلفني الشيخ بتلك الأعمال الشاقة التي اعتدت أن أنجزها له. فتشعر وكأن الجميع في حالة هدوء وسكينة، الجميع لطفاء ودعاء طيبون، حتى الطعام يكون أطيب وأشهى وأكثر.

حقيقة لم يُقَصِر معي الشيخ «عمر» يوماً في طعامٍ أو شرابٍ أو ملبس. هو دائم الحرص على مرضاتي، يعاملني كابن من أبنائه.. صحيح أنه في بعض الأوقات يكون حازماً... لكني أتفهم أن الحزم يكون من متطلبات العمل. هو تاجر حاذق يتاجر في الغلال وغيرها وامتد نشاطه في السنوات العشر الأخيرة للمتاجرة في التوابل والحُلل القادمة من الهند عن طريق برطة[1] البصرة. لذا تغيرت أخلاقه بعض الشيء عندما تأثرت تجارته بتلك الثورة التي تزعمها «علي بن محمد». يقولون أنه رجل علوي غير أسود ثار للزنج والأوضاع المؤسفة التي آلوا إليها، وقد كان اختلاف لونه عن لوننا مَدعاة لشك أتباعه في نواياه فاعتبروه ساعياً للسلطان، مُستخدماً إياهم كدرجات يصل بها إلى المراد، لكنه طمأن الجميع قائلاً:

---

1) ميناء

- ليحط بي منكم جماعة، فإن أحسوا مني غدراً فتكوا بي.

يقال أنه خطب في جمعة يوم الثامن والعشرين من رمضان منذ ثلاث أعوامٍ مضت وقال في خطبته أنه لم يخرج لغرض من أعراض الدنيا. إنه ما خرج إلا غضباً لله تعالى ولِما رأى عليه الناس من فساد الدين.

أراكم تتسائلون عن سبب عدم انضمامي لصاحب الزنج «علي بن محمد».. الذي يدافع عن أبناء جلدتنا بغير أن يكون منهم؟ حقيقة هي حرب لا ناقة لي فيها ولا جمل؛ فأحوالي التي نشأت فيها هنا مختلفة عن أحوال الزنج الشورجية الذين يكسحون السباخ عن الأراضي التي غطاها الملح. وهو عمل لو تعلمون مُضني. لا يقدر عليه غير من هم في قوتنا، وأنا لا أتفاخر ها هنا، لكن الله حبانا بنعمة الجَلَد وسلامة البُنية والقدرة على الاحتمال أكثر مما حبا به غيرنا من الأقوام، لكن الكثير من سادة العرب -وسيدي عمر ليس منهم- لم يحسنوا معاملة عبيدهم من الزنج فباتوا يُجيعونهم ويُعلفونهم كما يعلفون البهائم بالدقيق والسويق والتمر. فيفكرون في أرخص المآكل لهم حتى لا تزيد كلفتهم، وكانوا يُبيتونهم في العراء بغير مأوى فحيا من حيا ونفق منهم من نفق فكانت قيمة بعض الدواب تتعدى قيمتهم. فقد كان العبد الأسود يباع بمبلغ يتروح ما بين خمسة وثلاثين ديناراً وأربعين ديناراً، في الحين الذي يصل فيه سعر العبد الأبيض إلى خمسمائة وخمسة وخمسين ديناراً.

وكما ذكرت لكم فأحوالي مُختلفة. فسيدي الشيخ «عمر» من أغنياء سامراء، وقد آثر أن يستمر في تجارته ولا يستخدم فائض أموال التجارة المُتكدسة عنده في إحياء الأراضي الموات مثلما نحى إلى ذلك غيره من التجار، وذلك رغم ما تدره هذه التجارة من أموال وفيرة. خاصة مع انخفاض كلفة الزنج الذين يعتمد عليهم السادة العرب في استصلاح تلك الأراضي وكسح السباخ المُتكلس عليها.

أما أنا فغاية ما كنت أفعله نقل الغلال إلى مخازنها وتنظيف حانوت الشيخ والقيام على طلبات أهل بيته. فقط كنت أعلم أن حدودي هي تلك الحديقة المحيطة بأرجاء المنزل الفارة لشيخي، فمحظور على عبدٍ مثلي أن يقترب من موضع حريم البيت. خاصة وأن الشيخ «عمر» قد رفض إخصائي. هو لا يصلي كثيراً مثل بقية السادة العرب، لكني أشعر بمخافته لله أعمق. أنا على يقين أن الشيخ ما امتنع عن إحياء الأراضي الموات إلا بسبب تلك الطرق الوحشية التي يُعامِل بها السادة العرب الزنج الشورجيين[2]... أذكر أنه قال ذلك ذات مرة.

صراحة أحببت الشيخ وأحببت تعاليم الإسلام التي بثَّت روح السماحة والرحمة في نفسه فكنت مُسلماً عن اجتهاد... وليس بالميلاد. فقط هي الشيخة «مؤنسة» زوجة الشيخ «عمر» التي كانت لا تظهر لي الود. وكانت تتشدد في معاملتي ولا ترضى من الشيخ أن يكون مأواي داخل حديقة البيت، وكأني سوف أثب داخله في يومٍ لأقتلهم وأنتهب أموالهم. كانت دوماً مُرتابة في نواياي وكانت ترى أن صفات جسدي تحتم عليا خصال شيطانية شريرة وتجعلني عصياً على الترويض، لكن صراحة كان الشيخ دوماً لها بالمرصاد. فكان لا يقبل منها تعدياً أو إهانة... ودوماً كان ينتصر لي عندما يلاقيني من «مؤنسة» إغلاظاً.

أذكر مرة وأنا بن سبع سنوات أن نعتتني بالأسود القبيح ورمتني بآنية من أواني الطبخ فشجت رأسي فخرجت مولولاً من مطبخها وقد تناثر دمي على جدرانه فصارت تنظر إلى دمي المنثور على الحائط باشمئزاز. خرجت أحجل من فرط الألم إلى غرفتي التي خصصها لي الشيخ داخل الحديقة.. بقيت أنازع نفسي أن تتوقف عن البكاء وقد مضى على الواقعة ساعات وساعات.

2) الذين يكسحون السباخ.

فجأة فُتِحَ باب غرفتي... ورأيت الشيخ «عمر» بوجهه الملائكي البشوش يدنو مني ويجلس على فراشي. نظر إلى عينيَّ التي تجمد الدمع داخلها فشعرت به سوف يدمع هو الآخر وقد رق لحالي. ضم رأسي الدامية إلى صدره ولثم موضع الجرح وضمدني بنفسه واعتذر لي عن الشيخة، ولم يكتف بذاك بل احتوى يدي الصغيرة بيده الكبيرة وصار يمشي بي في جنته مُلاطفاً... يتحدث معي في شئون الدنيا ويعلمني كما يُعلم الأب ابنه. بعد أن تحسنت حالتي بعض الشيء كان الشيخ يساعدني لأصل إلى الثمار العالية في أشجاره وقد أينعت حتى آكل منها ما لذ وطاب. نسيت ما كان وقد غمرني بعطفه ولم يزل عني إلا عندما جن المساء وقد أوصلني بنفسه إلى غرفتي. نمت هذه الليلة هادئاً مطمئناً وإن قلقت على مصيري إن حدث أي مكروه للشيخ. فوقتها لن يكون للشيخة «مؤنسة» عني رادع ولا مانع، نفضت تلك الأفكارة البائسة من رأسي بسرعة وقررت أن أفكر في أكثر الأشياء المُبهجة... «بشرى».

هي مثلي لا تعرف لنفسها أباً ولا أماً. فقط وجدت نفسها هنا في بيت الشيخ «عمر». وهي على عكسي ... قد حازت رضاء الشيخ والشيخة كليهما. فقد كانت ملامحها الجميلة المُنمقة بمثابة جواز المرور إلى قلب «مؤنسة» التي لا يرضيها إلا كل ما هو جميل وكامل. هي بيضاء قد كستها البيئة العربية بسُمرة خفيفة زادتها فتنة وقد بقي لها شعرها الذهبي الطويل وعينيها الواسعة الفيروزية الزرقاء وقوامها الجذاب وصوتها المعسول ونظراتها الساحرة. لا أخفيكم سراً... أحبها من شُغاف قلبي، عندما أفكر بها أشعر أن الكون من حولي... أرحب وأن روائح الأشياء أطيب. وأني قادر على فعل الكثير، أشعر وكأن داخلي قوة قد تحرك الجبال وتُفني الجيوش وتصعق الأعداء «أخالكم الآن تعرفون سبب تمسكي ببقائي داخل حدود ذلك البيت.

لم تنفر يوماً مني بسبب سُمرتي. بل كانت تأتيني بطيب الطعام تُذيقني مما تَذوق، كانت تحب أن تشاركني اللعب لولا الشيخة «مؤنسة»

التـي لم تكـن تـرضى منهـا ذلـك. فكيـف تـدس جوهرتهـا في الطـين! سـألت نفـسي مـراراً إن كانـت تلـك الهـرة الرقيقـة تحـب مخالطتـي لأني الطفـل الوحيـد معهـا في هـذا البيـت الكبـير.. تُـرى إن نضجـت وعرفـت حقـارة لـوني بـين النـاس فهـل سـتزهدني إلى غـيري؟ هـل الطعـام الـذي تأتينـي إيـاه مـن وراء «مؤنسـة» شـفقة... أم هـو حـب وإيثـار؟ أيـاً كانـت الإجابـات وقتهـا فقـد ظللـت عـلى عهـدي معهـا... أقبـل المـوت في سـبيبل حبهـا.

كانـت تصغـرني بسـنتين وسـوف أعـترف لكـم اعترافـاً آخـر.. يـوم خرجـت مـن المطبـخ مولـولاً بعدمـا لطمتنـي الشـيخة «مؤنسـة» بآنيـة الطبـخ لم أكـن أبـكي ألمـاً، كنـت أبـكي حرجـاً وقـد جُرحـت كرامتـي أمـام حبيبتـي الصغـيرة التـي أحـرص عـلى مظهـري أمامهـا.

***

شـببنا معـاً وصـارت الرقابـة علينـا أمنـع. وغطـت شـعرها واحتجبـت وقـد أمرهـا الشـيخ والشـيخة بـضرورة ارتـداء مـا هـو واسـع مـن الثيـاب. لكـن دومـاً ما كنـت أنجـح و«بـشرى» في التواصـل عـلى نحـو مـا، حتـى كان اليـوم الـذي أحسـبه أجمـل أيـام عمـري، ذاك اليـوم الـذي قـدرت عـلى البـوح فيـه بحبـي لهـا...

كنـت أدرك عـلى نحـو خفـي أن بـشرى تحبنـي. لكـن شـك العاشـق دومـاً ينغـص اليقـين ويلقـي في القلـب الظنـون، يومهـا عرفـت أنهـا تبادلنـي الحـب فانتفـت الظنـون واختفـت الشـكوك. يومهـا احمـر وجههـا بغـير أن تجيـب... شـعرت أن احمـرار وجنتيهـا يلفـح نفـسي فيُذيبهـا ويزيدهـا هـي افتتانـاً فاندمجـت مـع الكـون مـن حـولي وكأني مُشـاهد في حَـدَث لا أشـترك فيـه. لـن أنـس هـذا اليـوم مـا حييـت... وإن سـألني أبنـي عـن أجمـل لحظات في حيـاتي... فسـأذكر لهـم تلـك اللحظـات.

تسـحرت أمـس مُتأخـراً عالمـاً أن الشـيخ «عمـر» لـن يمانـع في هـذا الشـهر أن يصيبنـي بعـض الكسـل. وعندمـا فتحـت بـاب غرفتـي صباحـاً كان الجـو مثاليـاً،

وكأن اللـه تعـالى يُخفـف عـن عبيـده مشـقة الصـوم باعتـدال الجـو. كانـت رائحـة الزهـور غالبـة تمـددت متثائبـاً أحـاول أن أنفـض عـن نفـسي آثـار النـوم. فجـأة، سـمعت دبيـب أقـدام دانيـة. هـي لا بـد «بـشرى» أكاد أجـزم بذلـك. بالفعـل تبـدت مـن خلـف جـدار غرفتـي وهـي تحمـل بيدهـا صحفـة مُغطـاة بمنديـل، نظـرت لهـا مفتونـاً:

- كل عـامٍ وأنـتِ بخيرٍ حبيبتـي. اكتملـت فرحتـي الآن أن رأيتك في السـاعات الأولى لهـذا الشـهر الكريم.

غضت طرفها خجلاً وقالت:

- وأنـت عـلى خـير حـال، جئتـك بتلـك الحلـوى. قـد منحتنـي الشـيخة إياهـا كي آكلهـا بعـد الإفطـار، هـي طازجـة قـد طُبخـت تـواً منـذ دقائـق.

تعلمـت عنهـا أن تلـك هـي وسـيلتها التـي تجيدهـا منـذ الصغـر للتعبـير عـن اهتمامهـا وحبهـا لي، وكأن الطعـام هـو الوسـيلة الأزليـة التـي بهـا تعـبر الأنثـى عـن اهتمامهـا بالرجـل... قبلـت ذلـك منهـا وعرفـت أنـه ليـس عطفـاً، خاصـة وهـي بعـد لا زالـت غريـرة لا تسـتطيع الاهتـداء لغـير ذلـك مـن الطـرق للتعبـير عـن مشـاعرها، شـكرتها وقلـت مُنبهـاً:

- هديـة جميلـة يـا بـشرى... لكـن يجـب أن ترجعـي إلى المنـزل بسرعـة عـسى ألا تفطـن الشـيخة إلى غيابك..

لم أكـد أكمـل عبـارتي الأخـيرة حتـى سرى صـوت الشـيخة زاعقـاً مـن بعيـدٍ يصعـق أوصالنـا باسـم حبيبتـي. تَزَلْـزَل كيـاني خوفـاً عـلى «بـشرى» وقـد اختفـت مـن أمامـي في طرفـة عـين لتتصـدر «مؤنسـة» المشـهد زاعقـة فيَّ بعبـارات لم أعـي أكثرهـا وهـي تجرجـرني مـن أذني صافعـة إيـاي عـلى وجهـي بـين الحـين والحـين. أخـذت تتوعـدني أنهـا سـتُخبر الشـيخ بمـا كان. وأنهـا حذرتنـي مـراراً مـن قبـل. وأنـه سـوف يجلـدني هـذه المـرة لا محالـة، وأن الوبـال سـيكون وخيـماً...

***

اسمي أوس

السادس من رجب

259هـ

قد مر قرابة العام... ولا أستطيع أن أنسى ما فعله «المُعتمد» و«الموفق» بأبي. ورغم النصر الذي حققناه اليوم تحت لواء «بن أبان» لا أجد نفسي قادراً على النوم. فقد تناقل الجميع تفاصيل انتقام الخليفة من أبي... وكيف جلده وقطَّعه وحرَّقه أمام الجَمعُ الشامت. لم تذق عيني النوم طوال العام الماضي، فنومي بات متقطعاً يتخلله الكوابيس والنظرات الشامتة للـ «المعتمد» ورجاله وهم يعبثون بجثة أبي ويبصقون فوقها باحتقار.

مرات أخرى كان أبي يزورني في رؤى أراه فيها مُقطَّع الأطراف والدم يسيلُ من نواحيه يتشكى تخلي الجميع عنه، وهول ما لاقاه في لحظاته الأخيرة، كانت رؤياه تؤرقني وتبث في نفسي غضب غاشم لم أجد له مُتنفساً.

استدعاني «علي بن محمد»... قائد الثورة اللعينة التي جلبت علينا كل تلك البلايا. ذلك بعد أُسر أبي وقتلهُ على هذا الوجه البشع، فتحركت إليه وكان بالبصرة... أكرم وفادتي وخلع عليَّ وأدناني منه. كان رجل متوسط

الطـول سـليم الجسـد حليـق الـرأس عينيـه واسـعتان ذو لحيـة كثـة وبـشرة عربيـة سـمراء، وقـال:

- أعلـم يـا بنـي أن أبـاك كان مـن أقـرب الرجـال إلى قلبـي. وقـد جزعتنـي تلـك المحنـة التـي تعـرض لهـا، لكنـه شـهيداً يـا بُنـي ولعلـه الآن في مكانـة أعـلى.

رددت عليه بجرأة قائلاً:

- لكـن قـد بلغنـي أنـك عندمـا علمـت بقتلـه قلـت أنـه قـد أوحـيَّ إليـك أن «البحـراني» لا خـير فيـه. وأن قتلـه كان خـيراً لـك وأنـه كان شرهـاً.

اتسعت عيناه البُنيتان مما أقول وأسرع في الرد:

- حاشـا للـه... لم ألفظهـا يـا بُنـي وكيـف أتهـم بذلـك مـن صـدق بيعتـي ومـات في سـبيل الحـق. هـي شـائعات السـوء التـي يطلقهـا رجـالات الخلافـة، وأنّى لي أن يوحـى إليَّ! أنـا لسـت نبيـاً كـما يزعمـون أنـا فقـط باحـث عـن الحـق... مُريـداً للعـدل... تهفـو نفـسي لتطبيـق صحيـح الديـن.

استشعرت صدقه فهدأت نفسي منه بعض الشيء.

سـألني بعدهـا عـن أحـوال الجيـش ومـا أراه في شـأن تحركاتنـا العسـكرية في الفـترة القادمـة وأحـوال الجنـد، والشـائعات التـي تـسري بينهـم... لم تطـل جلسـتنا، وأمـرني بالعـودة إلى «بـن أبـان» القائـد الـذي جُيشـت تحـت لـواءه بعدمـا اسـترحت عنـده لأيـامٍ مـن وعثـاء السـفر وقـد أرسـل معـي خطابـاً موجهـاً إليـه، أخالـه قـد أوصـاه بي خـيراً في طياتهـا.

***

تجولـت في البـصرة واختلطـت بالنـاس، جالسـت أحـد الجنـود ممـن عاينـوا الموقعـة التـي أُسِر فيهـا أبي. فحـكى لي كيـف كانـت الحـروب سـجال بينـه وبـين الخليفـة. تـارة ينتـصر «الموفـق» وتـارة يكـون النـصر لأبي حليفـاً ، وذلـك حتـى لاقـاه جنـد «الموفـق» بمسـافة بعيـدة عنـد نهـر العبـاس، ورغـم أن جيـش أبي

كان أكثر عدة وعتاداً لكن بُعد المسافة وتسلح «الموفق» بالأسهم جعل له الغلبة... فطفق يرمي جيش أبي وهو مُحاصر في السفن والشذوات[3] وجرح أبي ثلاثة جراحات. فلما كان ذلك تفرق أصحابه عنه ولم يبقى معه إلا ثلاثة عشر جندياً أبوا أن يُفارقوه.. وتحت وطأة الرمي استطاع جند الخلافة الاقتراب من الشذوات وحرقها، فلم يجد أبي بُداً أن يركب سميريةً[4] وأخذ معه طبيباً لأجل الجراح، ووصل أبي والطبيب إلى اليابسة فنزلا من السميرية وكان أبي يمشي مُثقلاً، فبدلاً من أن يقوم الطبيب بمداواة جروحه والقيام على أمره... ذهب إلى معسكر «الموفق» وأخبرهم بمكان أبي فأسروه وداووه حتى يصل إلى سامراء فينتقم منه «المعتمد» على النحو اللائق.

سألت الحاكي محاولاً مُغالبة انفعالي:

- ما أسم الطبيب؟

- اسمه «عاصم»...

تركته وهِمْت في الشوارع حتى كلت قدميَّ ولم تَكِلُ نفسي من استرجاع مشاهد استباحة أبي على يد العباسيين حتى عُدْت إلى فراشي مُنهكاً...

***

في اليوم التالي سافرت لأنضم إلى «بن أبان» لم أقابله يوم وصولي وتوجهت مباشرة تلقاء منزلي... فقد جن الليل وكنت في حاجة ماسة للنوم والراحة. قابلته في اليوم التالي وكان اللقاء بيننا فاتراً.

لم نزل في المدينة إلا أياماً قليلة حتى قرر «بن أبان» التحرك تلقاء العباسيين في إحدى المغازي الهامة فانتصرنا عليهم نصراً مُبيناً، رجعنا من بعده إلى المدينة مرة أخرى سالمين.

---

3) نوع من أنواع المراكب الصغيرة.

4) نوع آخر من المراكب.

بدلت ملابسي واستحممت واستلقيت في الفراش جانب حليلتي. لم تزل ذكرى مقتل أبي جاثمة على صدري تتجول حرة بغير رادع. نظرت جانبي إلى ذلك الملاك الغافي بجواري، لِمَ تبدو النساء أكثر جمالاً وهنَّ نائمات؟ هي جارية كانت لقومٍ في البصرة وتسريت بها وأحبتني... فقد كان سيدها يعاملها بقسوة وزوجته كانت تكلفها بما لا تطيق، تقول أنها حمدت الله أنها باتت في سهمي، وأنا أصدقها... فجميع أحوالها تدل على حبٍ شديد... فقد تحملتني في الضراء وكانت نعم العون لي في جميع أحوالي، حاولت أن تُسري عني حتى أضاجعها... فمنذ مات أبي لم أمازجها إلا قليل، وقد تعشمت اليوم أن أكون في مزاج جيد بعد أن دخلنا الأهواز وانتصرنا على عامل الخليفة[5] وقتلنا من جيش العباسيين نفر كثير. احتززت اليوم الكثير من الرؤوس وبقرت الكثير من البطون، حاول «بن أبان» أن يمنعني عن فِعالي:

- هذا تمثيل بالجثث قد نهانا عنه رسول الله، لكني خالفته عن ذلك فلم أنتهِ، وكان خطاب «علي» الذي يستوصيه فيه بي خيراً يقف حائلاً بيني وبينه.

في ذلك اليوم وجدت لنفسي هواية جديدة فقد كنت أسلخ فراء رؤوس العباسيين النافقين وأجمعها لتجف أمام خيمتي، أعرف أني أُغضب «بن أبان» بتصرفاتي هذه، لكن تباً له... هل قتل له أب هذه القتلة البشعة التي قتل بها أبي. فليقل ما يشاء ولسوف أفعل ما أريد، ومع كلٌ... قد فشلت جميع الفراء التي سلختها في إخماد النار المُستعرة داخلي.. لن يروي ظمأي إلا فراء تخص شخوص بعينها... الخليفة المعتمد، وأخيه الموفق، والطبيب الذي خان أبي وسلَّمه إلى «الموفق».

عندما وصلت إلى ذاك الخاطر تسحبت من تحت الفراش وأنا أنظر إلى الغافية جواري بحرص كيلا أوقظها.

5) كان اسمه «أصغجون»

بحثت عن رقاع وقلم فوق المنضدة الجانبية التي تناثرت عليها الأشياء. وعندما وجدتهما قمت جالساً أمام مدخل البيت وقد ضاق بي هواءه الخانق، كان صوت صرصور الليل يصدع في الأنحاء وكان القمر بازغاً. بان لي مداد قلمي واضحاً لامعاً. تمكنت مني حالة من الانتشاء وقد شرعت في كتابة الأسماء التي طالما أردت الانتقام منها. وجدتني وقد سطرت في بداية الرقعة بخطٍ عريض عنوان «القائمة»... ثم كتبت تحتها الرقم واحد متبوع باسم «المعتمد» والرقم اثنان متبوع باسم أخيه «الموفق». أما الرقم ثلاثة فقد خصصته لـ «عاصم» الطبيب الذي خلا بأبي وسلمه إلى براثن الموفق. ثُمَّ زيلت القائمة بالجلادين الذين عذبوا أبي في الساحة. بعد أن انتهيت من الأسماء الخمسة نظرت إلى السماء واستنشقت نفساً عميقاً ثم عكفت على رقعتي وسرت أتفنن في كتابة الطريقة التي أتمنى بها أن أحصد كل روح من الأرواح الخمسة الآثمة. شعرت برعدة شديدة تسري في جسدي وأنا أكتب تفاصيل ميتة كل واحدٍ منهم.

شعرت أن الرقعة التي كتبتها قد أصابها مس مُقدس، فهي الشرعة العظمى والميثاق الغليظ والعهد الأزلي...

فلأحيا حتى أنفذ ما فيها لأصب جِمام غضبي على أولئك الذين سوف تطولهم لعنتي....

طويت الرقعة بحرصٍ وقمت داخلاً خيمتي ودسست نفسي جانب حليلتي ونظرت إلى وجهها الملائكي مرة أخرى هززتها... فاستيقظت غافية. قبلتها... فاستجابت... فأتممت لها ما كانت تريد.

***

أنا علي

260هـ

ولدت منذ ثمانية وثلاثين عاماً في قرية وزرنين بمدينة الري بالعراق. كان جدي «محمد بن حكيم»، أحد الخارجين على «هشام بن عبد الملك» مع «زيد بن علي بن الحسين»، فأنا علوي من أهل البيت، وقد اشترى جدي جارية سندية أولدها أبي مُحمداً. وأمي هي «قرة بنت علي بن رحيب» تزوجها أبي وعاش معها لسنوات ثم مات وأنا بن تسع سنوات. تركني وأمي في سامراء عاصمة الخلافة الجديدة، تلك المدينة التي بناها الخليفة المُعتصم قبيل مولدي بقليل. أتدرون السبب الذي دعاه إلى بنائها؟

كان «المُعتصم» يتقوى بالأتراك لمواجهة البرامكة والجند الخراساني الذين ناصروا أخاه «المأمون» على أخيه «الأمين» حتى انتصر عليه. فمن يومها استشرى نفوذ الجند الخراساني... وزادت سطوتهم بعد موت «المأمون» ولم يستطع «المعتصم» السيطرة عليهم إلا بحربٍ ضَروس استعان فيها بالترك.

وحدث نفس الشيء... فقد استشرى أمر الترك الأتباع الجدد للـ «المعتصم». وساروا يضايقون أهل بغداد ويتحرشون بنسائها فلما كثرت حوادثهم مع السكان. خرج بهم المُعتصم ليبني سامراء على بعد ستين

ميلاً من بغداد. يقال أنه استقر بها ثلاث أيام يختبر تلك البقعة التي اختارها، وكان أول ما سماها «سُر من رأى» ليتحور اسمها من بعد ذلك إلى سامراء. لكن للأسف لم ينتهِ نفوذ الأتراك بانتقالهم إلى المدينة الجديدة، وأخذ نفوذهم يتزايد يوماً عن ظهر يوم حتى تحكموا في الخلفاء أنفسهم، فكان الخليفة يعلم أنه لن يحكم إلا بمعاونة ورضاء الترك عنه، حتى تآمر الأتراك على قتل ثلاثة[6] منهم خلال أربع سنوات.

فقد غضب الأتراك على «المستعين» فظلوا يمآلئون «المعتز» عليه، فأخرجو «المعتز» من محبسه وأخذوا من شعره[7]... وبايعوا له بالخلافة وكانت خلافة المُستعين قائمة لم تسقط بعد، واستطاع «المعتز» الانتصار على «المستعين» من بعد ما استمال قائده إليه. ثم صالح «المُستعين» «المعتز» على الخلافة على أن يؤمنه ويجعل له خرجاً من بيت مال المسلمين، لكن «المعتز» لم يمهله فأرسل إليه من يقتله. وحين أراد الرسول قتل المستعين سأله الأخير أن يُمهله حتى يصلي ركعتين، فأمهله حتى كان في سجدته الثانية اجتث رأسه وهو ساجد. ودفن جثته في موضع صلاته الأخيرة، ودخل الرجل برأس «المُستعين» على «المعتز» وهو يلعب الشطرنج، فقيل له هذا رأس المخلوع فقال:

- ضعوه حتى أفرغ من الدست[8].

فلما فرغ نظر إلى رأس صاحبه وأمر بدفنه. ثم أمر لقاتله بخمسين ألف درهم وولاه البصرة.

لم تكد أيام السنة الثالثة من خلافة «المعتز» تنتهي حتى دارت الدائرة عليه. فقد طالبه الأتراك بخمسين ألف دينار مصاريف لهم، فطلب منهم

6) هم بالترتيب (المُستعين، المُعتز، المُهتدي)

7) قاموا بحلاقة شعره، لأن شعره كان قد زاد وكثر داخل السجن.

8) الشطرنج

مهلة للسداد وسأل أمه «قبيحة» أن تدفع إليه المال. ولا يظن أحدكم أن أم المعتز كانت دميمة الوجه! فقد كانت رائعة الجمال وإنما سميت بالـ «قبيحة» من أسماء الأضّاد، وعندما بلغ الصبر بالتُرك مبلغه استأذنوه في الدخول عليه، فاعتذر لهم أنه شرب شربة دواء لازال يلقي أثرها إلى الآن، فأذن لبعضهم أن يدخلوه عليه دون البعض الآخر، وهنا فوجئ بهم يتحولون عليه بغتة...

أخذوا يجروه من رجله ويضربوه بالدبابيس وأقاموه مُقيداً في الشمس في ساحة قصره. فكان يرفع رجلاً ويضع الأخرى لشدة حرارة الأرض. وكان بعضهم يمر عليه فيلطمه وهو يتقي اللطمة بيديه المُقيدتين، ثم أدخلوه حجرة وأحضروا جماعة فأشهدوهم أنه يخلع نفسه من الخلافة فشهدوا عليه، ثم سلموه إلى من يُعَذِبَهُ فمنعوه الطعام والشراب ثلاث أيام ثم أدخلوه سرداباً وبنوا عليه فمات بعد أيام. ولما أخرجوا جثته أشهدوا عليها أنه لا أثر فيها لقتل حتى يدفعوا التهمة عن أنفسهم.

أما «القبيحة» أم «المعتز» لما عرفت بما يجرى لابنها هربت... وكانت قد اتخذت في دارها سرداباً فخرجت منه هي وابنتها ومعها ما استطاعت حمله من أموال. وعرف الترك الموضع الذي هربت منه لكنهم لم يقفوا على خبرها. وبحثوا عنها فلم يظفروا بها، لكنهم أوقعوا بها بعد أشهر فوجدوا في حوزتها خمسمئة ألف دينار، وألف ألف وثلاثمائة ألف دينار تحت الأرض. وسفط من زمرد وسفط من لؤلؤ من الكبار وسفط من الياقوت الأحمر. فاستعجب الحاضرون أنها عرضت ابنها للقتل في خمسين ألف دينار وهي تملك كل تلك الأموال.

تولى «المهتدي» بعد «المعتز»، وكان صالحاً عابداً صوَّاماً مُتقشفاً. يقال أنه لم يتول الخلافة من بعد الراشدين[9] و«عمر بن عبد العزيز» من

9) أبو بكر وعمر.

هـو أصلـح منـه، ومـن علامـات صلاحـه أنـه أمـر بإخـراج القيـان والمغنيـين مـن سـامراء ونفاهـم عنهـا. وأمـر بقتـل السـباع التـي كان يحتفـظ بهـا «المعتـز» بـدار الخلافـة. وطـرد الـكلاب ورد المظـالم وجلـس للعامـة. لكـن كل مـا سـبق لم يشـفع لـه مـن بطـش الأتـراك....

فلـما لم يـرضَ بظُلمهـم وحـاول إعادتهـم إلى مكانتهـم السـابقة والطبيعيـة، تمالـؤوا عليـه. أراد عندهـا كـسر وحدتهـم بـأن يخالـف بـين كلمتهـم ويحـدث وقيعـة بينهـم، فكتـب إلى أحـد عمالـه الأتـراك[10] أن يتسـلم الجيـش مـن «موسى بـن بغـى» ويكـون هـو الأمـير عـلى النـاس وأن يقبل عليـه في سـامراء. لكـن الرجل أبى أن ينشـق عـلى «مـوسى بـن بغـى»، فأخـبر الأخـير بمـا كان مـن «المهتـدي»، فاتفـق «مـوسى بـن بغـى» معـه أن يظهـر الأخـير الطاعـة للخليفـة حتـى يتمكـن منـه. فلـما وقـف الرجـل بـين يـدي الخليفـة وقـد أحـس منـه الأخـير الغـدر... أمـر بـضرب عنقـه وألقـى برأسـه إلى الأتـراك، فلـما رأى «الأتـراك» رأس كبيرهـم أعظمـوا ذلـك واجتمعـوا إلى أخيـه[11] لمقاتلـة الخليفـة، فلـما التقـى الجمعـان ... انضـم الـتُرك ممـن هـم في جيـش الخليفـة إلى إخوانهـم في جيـش الأخ المكلـوم فانهـزم الخليفـة وهـرب إلى دار أحـد الأعيـان[12] وقبـض عليـه هنـاك...

فجعـل الأتـراك يصفعونـه ويبصقـون عـلى وجهـه وسـلموه إلى رجـل أخـذ يجـأ خصيتيـه ويطؤهـما حتـى مـات رحمـه اللـه.. وأخـيراً تـولى مـن بعـده الخليفـة «المعتمـد» حبيـس الجوسـق الـذي حـرره الأتـراك مـن الأسر ليصبـح الخليفـة الجديـد المُطيـع، هـذا الفاسـق الـذي يـشرب الخمـر ويلاعـب النسـاء، وقـد وعـى الـدرس وأصبـح لقمـة سـائغة في فـم الأتـراك يأتمـرُ بمـا يأمـرون، وينتهـي عـما يكرهـون.

---

10) هو بايكباك.

11) اسمه طاغوتيا

12) هو أحمد بن جميل.

خليف[13] في قفص بين وصيف وبغا[14]

يقول ما قالا كما تقول الببغا[15]

لم تتقبل الرعية خبر مقتل «المُهتدي» قبولاً حسناً. فقد كانوا يعرفون عنه العدل والصلاح، فبدأ نفر من الرعية يكتبون الرقاع ويوزعنها في المساجد والطرقات داعين المسلمين للثورة على الخليفة الجديد.

صراحة كنت مُستفزاً من ذلك النفوذ التركي المُتزايد، وتدخلهم السافر في أحوال الخلافة وتلاعبهم بالخلفاء وأحوال العباد والبلاد. وما زاد من حسرتي ما عاينته بأم عيني من تفاوت شديد بين أحوال الخلفاء وعمال الأمصار وكبار التجار من جهة، وأحوال العبيد والعمال والفقراء من جهة أخرى. فقد كان الخلفاء شديدوا التبذير... وبناء العاصمة الجديدة -سامراء- كلف الدولة أموالاً طائلة ووضع العباد في ضوائق مالية يصعب الخروج منها، وذلك في الحين الذي ذهبت فيهه الأموال لأمهات الخلفاء لبناء القصور وشراء الجواري والترفُه في العيش، ومؤخراً دمج الخلفاء بين أموال بيت مال المسلمين وخزينة الخليفة الخاصة وكلما أراد الخليفة المزيد من الأموال صادر أموال التجار وكبار رجال الدولة بعد اتهامهم بالخيانة والتقصير، فزاد السعداء سعداً وزاد البائسين بؤساً.

***

أما السبب الأكبر الذي ثُرت لأجله فكان الظلم الفادح الذي يعاني منه العبيد، لم تكن معاملة الوكلاء والأسياد للعبيد تمت لتعاليم الإسلام بصلة... حتى أكاد أجزم أن قواعد الدين الآن باتت مُحرفة لا تمت بصلة لما أمر به الرسول عليه الصلاة والسلام.

13) يقصد الخليفة

14) قادة أتراك ذوي شأن في عهد المعتمد

15) يردد ما يقولون كما يردد الببغاء أقوال الناس

هـل شـجع الإسـلام تجـارة الرقيـق؟ أبـداً لم يفعـل.. بـل كانـت تجـارة الرقيـق راسـخة في الأمـم فجـاء الإسـلام ليُخَلخِـل تجـارة الرقييـق مـن قواعدهـا لتتداعـى بمـرور الزمـن. فقـد شرع اللـه تعـالى العديـد مـن الأحـكام التـي يكـون مـن شـأنها القضـاء عـلى العبوديـة فجعلهـا كفـارة وقـربى.. وجعـل تعـالى السـبب الوحيـد المبيـح للعبوديـة هـو الأسر في حـرب مشروعـة، فبذلـك تكـون أحـكام الشريعـة الإسـلامية قـد ضيقـت مـن مصـادر الـرق... ووسـعت مصارفه ووسـائل التخلـص منـه، لكـن لم يفهـم سـادة العـرب وشـياطينهم حكمـة الـرب... فقـد سـيروا الرحـلات لصيـد العبيـد مـن شرق أفريقيـا للمتاجـرة بهـم وأوقـدوا نـار الحـرب ضـد المُسـالمين العُـزَّل لاسـتعبادهم، فلـم يـرى أولئـك الآفاقـون فيـما يفعلـون غضاضـة، كيـف يصطـاد الإنسـان إنسـاناً.. كيـف يـرضى أن يُقصيـه عـن زوجتـه وأبنائـه وذويـه مُكبـلاً حبيسـاً ذليـلاً كالأنعـام. ورغـم أن الإسـلام قـد حـض عـلى حسـن معاملـة العبيـد فقـد أسـاء أولئـك إليهـم فباتـوا يضربونهـم ويجيعونهـم ويحرمونهـم حتـى طفـح الكيـل واسـتبد الغضـب.

قـد مـر الآن قرنـان عـلى بدايـة البعثـة النبويـة ليصـير الإسـلام غريبـاً كـما بـدأ غريبـاً.. كيـف يحرفـون قواعـد الديـن بأفهامهـم المُشـوهة حتـى صـارت تلك التعاليـم مسـخاً مـن الصعـب عـلى ذوي الفطـرة السـليمة تقبلـه!.

سـاءتني تلـك المشـاهد المُتكـررة للعبيـد الزنـج وهـم يُجلـدون ويُضربـون ويُجوَّعـون ويعـيَّرون بغـير أن يكـون لهـم حـق الاعـتراض أو حتـى النظـر إلى أسـيادهم. وكان التعامـل مـع العبيـد يتـم بواسـطة وكلاء يشرفـون عليهـم... فـكان أولئـك الـوكلاء يبيتونهـم في العـراء ويقسـون عليهـم وعندمـا اجـترأ أحدهـم يومـاً واشـتكى مـن الـبرد أهلكـه الوكيـل ضربـاً حتـى خـر عـلى الأرض منهـار القـوى. يرتجـف بـرداً وألمـاً، حـاول بعـض الودعـاء إبعـاد الوكيـل عـن ضحيتـه، فلـم يسـتجب الوكيـل لنـداء الرحمـة وأخـذ يـركل المسـكين في وجهـه... ليمتـزج الطـين باللعـاب والأسـنان المتناثـرة.

رأيت المسكين بعدها بأشهر وكان يحمل السباخ فوق رأسه المُشوه بلا هوادة، وعندما حاولت مواساته أجابني بفكٍ معوج ولسان أعجمي بكلماتٍ لم أفهمها... وإن كانت كلماته تقطر ذلاً وحزناً وألماً وتسليماً. تكررت المآسي التي رأيتها، وقارنت بين موضع أولئك البؤساء ممن يموتون بَرداً... وأولئك السلاطين المُتنعمين المُتدفئين بأحضان الجواري والخمور المُعَتَّقة.

غضبت مرة كغضبة النبي موسى... عندما غضب لأحدٍ من شعيته...

كان ذلك عندما رأيت أحد الوكلاء ينهال ضرباً على عبدٍ له حتى صرعه، وعندما استتابه من حوله أن يبوأ بإثم ما فعل، بصق على جثة الزنجي وقال:

- بل أضمن ثمن القرد ... بن الزانية.

ورغم أني لم أكن أسود ورغم أني لم أكن عبداً... فقد نازعتني نفسي أن أنتقم للمسكين، فانطلقت إلى الوكيل وتراشقنا بالأيدي حتى فض الناس بيننا.. وسرت من وقتها من المطلوبين وقد كتب الوكيل بالواقعة إلى سيده. فهربت لما خفتهم، لكن ما فعلته انتشر بين العبيد انتشار النار في الهشيم، فسار أكثرهم يتحدث عما فعلت، فهرب عدد غفير منهم لينضموا إليَّ، وسرت كلما ألقى جماعة منهم أحررهم من وكلائهم حتى اجتمع عندي خلق كثير.

استقررت من بعدها بالبحرين، فقد نصرني أهلها وأنزلوني فيها مُنزلاً كريماً. تعرفت فيها على خيرة أصحابي «يحيي البحراني» -رحمه الله وكتبه شهيداً- و«سليمان بن جامع» و«بن أبان» -وفقهما الله-، مرت الأيام وزاد أنصاري خاصة بعدما أنضم الزنج من أبناء الجيش إلى إخوانهم من الزنج الشورجيين.

كانوا يرتابون في نواياي ولوني بداءة... يشعرون أني سأتخلى عنهم في

مرحلة ما عندما أصل لما أريد، ولما لمسوا فيَّ الأخلاص اطمأنوا لشخصي وساروا يفتدونني بأنفسهم. استطعنا معاً دخول الأبلة وعبادان والأهواز، ثم أمكننا الله من البطائح، وسار جند الخلافة كغثاء السيل لا يستطيعون لنا دفعاً وكان الخليفة «المعتمد» يتميز غيظاً، فأوكل لحربنا أخيه «الموفق»... فكانت الحرب بيننا سجال تارة ننتصر وتارة نندحر، فما نال ذلك من صدق عزائمنا.

أعلم أن الطريق طويل والزاد قليل والمطلوب عزيز، فهل يكتب الله لنا النصر المُبين على «الموفق» وأخيه؟

اللهم نصراً لأولئك المساكين...

***

أنا الموفق

261 هـ

أكاد أجـن... مـا ظننـت أن القضـاء عـلى «الخبيـث» سـوف يسـتغرق كل هـذا الوقـت والجهـد. لكـن قـد مالـت كفتـه بشـدة بعـد أن اسـتمال الزنـج مـن قـوة الجيـش. كيـف عـنَّ لهـذا الخائـن أن يثـور في وجـه خليفـة المسـلمين ويضـم إليـه الأرازل والعبيـد حتـى يحقـق مآربـه الخبيثـة. كيـف يـرضى بسـفك دمـاء المسـلمين مـن أجـل أسـباب واهيـة تشـف عـن رغبـة دفينـة في الحكـم والسـلطان. علـه قـد غـره ضعـف أخـي الخليفـة «المعتمـد»... وظـن أن الأتـراك سـوف يقـدرون عليـه كـما قـدروا عـلى الخلفـاء مـن قبلـه فتجـرأ عـلى مقامنـا.. أو لعـل تلـك الرقـاع التـي وزعـت قبيـل مقتـل «المهتـدي» الداعيـة إلى الثـورة، أو هـي فعـال «يعقـوب بـن صفـار»... علهـا تلـك الأسـباب جميعـاً لا فـرق، لسـوف أسـحق «الخبيـث» ولسـوف أؤدب أتباعـه حتـى لا تكـون ثـورة أخـرى لمئـات السـنوات القادمـة.

لكـن آن لي أن أعـترف أن «عـلي» قـد أجهدنـا. فقـد مـرت سـتة سـنوات عجـاف بغـير أن أحكـم قبضتـي عليـه، وأخـي العابـث بعـد أن أوكلنـي لحـرب «الخبيـث» وقـد عجـز عنـه... يريـد الآن أن يُعـيّن غـيري لاسـتكمال المسـيرة،

قد نسى ما حَقَّقته من انتصارات على الزنج خلال سنوات ثورتهم الأولى.

أتـراه نـسى كيـف أتيتـه بـ «البحـراني» صاغـراً ذليـلاً لـيردع بـه العامـة، قـد ولى الأهـواز إلى «أبي السـاج» وكلفـه بمُحاربـة الزنـج فيهـا وكأنـه مـا عـاد يثـق فيَّ. لكـن كعـادة الجبنـاء ولى «أبـا السـاج» صهـره «عبـد الرحمـن» لمقاتلـة عامـل الخبيـث «بـن أبـان»، وبالطبـع هزمـه «بـن أبـان» واسـتطاع السـيطرة عـلى الأهـواز كاملـة هـذه المـرة، لا أدري هـل أسـعد بتلـك الهزيمـة التـي تسـبب فيهـا «المعتمـد» برعونتـه أن ولى عـلى تلـك الحـرب مـن ليـس لهـا بأهـل، أم أحـزن عـلى جيوشـنا التـي تلقـت صفعـة قاسـية مـن الزنـج.

تبخـرت الأفـكار المتصارعـة في عقـلي عندمـا سـمعت طرقـات عـلى بـاب جناحـي الخـاص، فاسـتدبرت النافـذة التـي كنـت أنظـر منهـا لأتلقـى القـادم مُتجهـماً. أخـبرني أحـد الجنـود أنـه رسـول مـن الخليفـة، أي مصائـب أخـرى تريـد أن تلقيهـا عـليَّ يـا أخـي اللـدود. أومـأت آذنـاً وانتظـرت الرسـول. كان وجهـه يفيـض بآيـات الـسرور في تناقـض ظاهـر لتلـك الهزيمـة التـي قـد مُنينـا بهـا.

- الحلوان يا مولاي الأمير.

زادت أسارير وجهي عبوساً ورددت:

- أي حلوان يا بشير الخير.

شعر الرجل بالسخرية في صوتي، لكنه لم يأبه وانحنى قائلاً:

- قـد بايعكـم أخوكـم الخليفـة المعتمـد بعـد ابنـه «المفـوض جعفـر» وولاكم المـشرق والعـراق وبغـداد والحجـاز واليمـن وفـارس وأصبهـان والـري وخُراسـان وطبرستان.

سَـكَتُّ وقـد ألجمتنـي المفاجـأة. فالـ «معتمـد» لا يضيـع وقتـاً. فـور وصـول أنبـاء هزيمـة الأهـواز إليـه بـادر لاسـترضائي حتـى أقبـل قيـادة الجيـوش مـرة أخـرى وأجتـث لـه رأس «الخبيـث». صراحـة نجـح هـذا الماكـر أن يزيـل مـا

بقلبي من نقمة عليه... فقبلت مصالحته وانفرج عبوس وجهي بعض الشيء.

وعرف الرسول رضائي مستقرءاً لقسمات وجهي، فهش وبش آملاً في الحلوان، أمرت له بما يرضيه وصرفته، وعدت متأملاً من النافذة تماماً كما كنت قبل دخوله علي. «المعتمد» الآن يحاول استرضائي وهو الآن في موقف ضعف وقد أثبتت له أهوال الحرب وصلابة العدو أنه في حاجة دائمة لي، فآن الآوان لي أن أستعلي عليه وأملي شروطي كي ألقي بنفسي في ميدان المعركة. فليعد الرسول بموافقتي على ما خلعه علي وليملي عليه الشروط التي ارتضيها كي أقضي على «الخبيث» وأخلصه ونفسي من تلك الشوكة المؤلمة المُنغرزة في أنحائنا. إنه لا بد سيقبل، فقد فشلَ جميع من عينهم أن ينتصروا على «الخبيث» ولو في موقعة واحدة... كلهم فشلوا ماعداي، والله لئن قَبل لأفتكن بـ «الخبيث» في طرفة عين ولن تقوم له ولأتباعه قائمة ولو بعد حين.

لم يتأخر رد أخي، ففي اليوم التالي جائني الرسول مُعلناً موافقته على الشروط التي وضعتها حتى استكمل الحرب. يجبُ أن تكون أموال الخلافة كلها تحت إمرتي حتى أضرم بها نار الحرب، وبما أني أنا من يخاطر بحياته وجنوده لنصرة الخلافة يجب أن يكون تعيين أمراء الحرب ورجال الدولة من قبلي. وليكتفي هو بالخمر والنساء ولقب الخليفة الذي خلعهُ الأتراك عليه.

دخلت على «العباس» غرفته فلم أجده داخلها، وأخبروني أنه في حديقة القصر الشرقية في مران على الرمي بالسهم. لا أزكي «العباس» لأنه ابني ... لكن الفتى يستحق ما هو أفضل، فهو مُجتهد شجاع طموح غيور على مجد أسرته ورفعة الإسلام، كم من مرة يسألني فيها أن يصاحبني إلى ساحات الجهاد فيُقاتل الزنج وأنا الذي كنت أرفض طوال السنوات الماضية.

لـه الآن سـبعة عـشر سـنة وسـاعد قـوي وعزيمـة لا تلـين وعقـل حكيـم. أيـن «المفـوض بـن الموفـق» الـذي ولاه عهـد خلافـة المسـلمين مـن ابنـي «العبـاس»، كنـت قـد وصلـت إليـه وأنـا اتأملـه مـن بعيـد مغتبطـاً مـن دقتـه في الرمـي واجتهـاده في المـران واندماجـه فيـه، كان مسـتغرقاً تمامـاً فيـما يفعـل... فقـد كان يعشـق القتـال ولا يجـبن عنـه، انتبـه إليَّ «أبـا العبـاس» وقـد رشـق سـهمة الأخـير في سـويداء الهـدف. اندفـع إلي بخطـوات واسـعة واحتضننـي بحـرصٍ ألا يؤذينـي بأنهـار العـرق الجاريـة عـلى قسـمات وجهـه والباديـة عـلى كنزتـه، فحضنتـه أنـا غـير آبـه، تمشـيت معـه في حديقـة القـصر وقـد أحاطـت بنـا الجنان أروي لـه مـا كان مـن أمـر عمـه الخليفـة ومـا أشـترطه عليـه مـن شروط وأنـه قبـل بهـا جميعـاً بغـير تـردد.

- مرحـى يـا أبي، قـد عـرف الخليفـة قـدر أخيـه ... إذن هـي الحـرب ثانيـة عـلى أولئـك الملاعـين.

- لم أشـترط عليـه مـا اشـترطه رغبـة منـي في تقييـد ملكـه، لكنـه دومـاً مـا يجنـح إلى الآراء الخاطئـة فيحرجنـا ويسـبب لنـا المتاعـب.

- أعلم ذلك... فلتفعل ما تشاء، لكن لي عندك رجاء.

- فلتأمر بما تشاء بُني.

- فلتجعلنـي عـلى جنـاح مـن أجنحـة جيشـك، فأكـون لـك كالريـح العاصـف تُـردي أعدائـك أفواجـاً.

أشـحت بوجهـي عنـه مُتأمـلاً شـجرة البرتقـال اليانعـة عـن يمينـي، فقـد كنت أخـاف أن يمسـه السـوء وهـو بعـد لا يـزال غـراً صغـيراً، لكـن لم أملـك إلا أن أوافقـه عـلى بعـض مـا يريـد جـراء إصراره، فليسـت هـي المـرة الأولى التـي يطلـب فيهـا ذلـك منـي:

- بـل سـتكون في قلـب الجيـش تحـت عينـي ورعايتـي... حتـى أتأكـد مـن دقـة مرانـك وتمـام قدرتـك.

بادرت بتغيير دفة الحديث خشية أن يراجعني فيما أقول:

- علينـا الآن أن نُراسـل «بـن طولـون» في مـصر، فعليـه الآن أن يرسـل المزيـد مـن الأمـوال حتـى نتقـوى بهـا عـلى مواجهـة الزنـج، أو قـد أطلـب منـه أن يحـضر هـو هنـا إلى العـراق فيُقاتِـل معنـا الخبيـث وأعوانـه.

- أنـت تعلـم أن مـصر تحـت إمرتـه، وهـو مسـتقل بهـا اسـتقلالاً فعليـاً، قـد يرفـض دفـع المزيـد مـن الأمـوال... فـماذا أنـت فاعـل؟

حقـاً يقـول «العبـاس»، قـد يرفـض «بـن طولـون» التعـاون لقتـال الزنـج، لكـن إن فعـل ... لسـوف أذيقنـه سـوء العـذاب ولسـوف أجعـل مُلكـه هبـاءاً منثـوراً، ولأصلبنـه وأجعلـه عـبرة لمـن لا يعتـبر.

غـلى الـدم في عروقـي عندمـا جـال هـذا الخاطـر ببـالي. وزعقـت عـلى كاتبـي ليكتـب إلى «بـن طولـون» منتظـراً رده عـلى أحـر مـن الجمـر.

***

اسمي أدهم

261 هـ

رغبت أن يكن اسمه «عمر»... ولم تعارضني بشرى في ذلك. لم أفعلها نِفاقاً وتزلفاً لسيدي الشيخ «عمر»، فقد أحببته وكأنه أبي الذي لم أعرف عنه شيئاً.. أذكر هذا اليوم الذي هددتني فيه «مؤنسة» أن الشيخ «عمر» سوف يجلدني كوني اجترأت على مقام جاريته التي أواعدها سراً، لا أخفيكم خبراً ... فقد خفت الشيخ «عمر» تلك الليلة، ومرت الساعات بطيئة وهو بعد لا زال في حانوته وقد تركني نائماً عطفاً منه. أخذت ألوم نفسي بغير أن أشعر... رغم علمي أن القلوب ما لنا عليها من سلطان. أخذت أتخيل عقاب الشيخ لي، هل سينزل على رأي زوجته فيجلدني، أم هل تراه سيمنعني عن البيت على أن أبيت في الحانوت على الدوام، أو لعله يجافيني ويُخفي بُشرى عني، أو أنه سوف يبيعني بغير سابقة عتاب فألقى مثل مصير الزنج الشروجية ممن يُضرَبون بالنهار ويُجوَّعون بالليل.. كنت أتعذب في كل لحظة تمر مترقباً وصول الشيخ.. وأخيراً شعرت به عائداً... ارتفعت دقات قلبي، حتى خلتني أرى اهتزاز جلدي من أثر النبض.

دخل الشيخ مباشرة إلى زوجته الشيخة «مؤنسة». يبدو أنها أرسلت

إليه من يخبره أنها تريده لأمر جلل. طال الأمر فخرجت من غرفتي أحاول الاستماع إلى ما يدور بينهما. لم يكن صوت الشيخ «عمر» بادياً في البدايات، وكان صوت «مؤنسة» ظاهر بغير أن يكون ظافر، فقد بدا لي أنها فشلت في إقناعه أن يمسسني بسوءٍ. ولما زاد إلحاحها سمعت صوت شيخي الوديع يجلو كهزيم الرعد يدافع عن حالي، وأن الله لا يرضى عن تلك النعرة المُتأصلة فيها، وأنه من الآن يكف يدها عني، فلما اطمأننت لأن الأمور تسير لصالحي تسللت فرحاً إلى غرفتي.

خفت أن يراني الشيخ أتنصت فيشعر أن زوجته مُحِقة في لزوم عقابي. أغلقت الباب خلفي مطمئناً وما زال قلبي على حالته في نبض متسارع، تلحفت غطائي في سرعة وغطيت وجهي وكأني أريد أن أغيب عن الدنيا، لم يمضي كثيراً من الوقت... حتى سمعت دبيب خطوات شيخي، شعرت به يفتح باب غرفتي ويجلس إلى السرير جواري وينزع ما تدثرت به عن وجهي، فنظرت له في خجل متحاشياً مباشرة النظر إليه، لكنه مسح على رأسي وقبل جبيني... وسألني إن كنت أرغب في الزواج من «بشرى»؟ كاد قلبي أن يهرب من جسدي هذه المرة ليفر من بين أضلعي بغير رجعة، عرف عني إجابتي من غير أن أجيب.

وها هي السنة الثالثة من زواجي بـ«بشرى» تقترب حثيثة.. أكاد لا أشعر بمُضي الأيام ففي كل لحظة تمر بنا... حلاوة طلية وسعادة مُسكِرة، العيد الأول الذي يمر علينا ونحن زوجان... رمضان الأول... طفلنا الأول.

علمتني الحياة أن الاعتياد يُذهبُ الشغف؛ لكنها كانت الاستثناء. فكلما اقتربت انجذبت، هي مائدة عيسى... إن تناولت منها لُقيمة هفت نفسي للمزيد، أحببت ابني لأنه منها، هو امتزاج نفسي ونفسها وهو استعلاء كلمة الرب أن نقترن معاً رغم القيود.

باختصار... كنت سعيداً سعادة أبدية دائمة لا يخبو وهجها مع الزمن. لا يكدر صفائها مُنغصات الحياة.

ذلك كله حتى وقعت الواقعة ...

أتى لزيارة الشيخ قائد من جيش الخلافة، كان اسمه «نصير» يلقبونه ب»أبي حمزة» يبدو عليه أنه في أواخر العقد الثالث من العمر. كان عريض المنكبين قوياً طويلاً مهيباً به أثر جرح أعلى حاجبه الأيمن. يبدو أنه اكتسبه في إحدى معاركه السابقة. كان وسيماً بالجملة، يبدو عليه أنه من سلالة الترك المهيمنين على الخليفة وشئون الحكم. ورغم مظهره الأنيق، شيئاً ما في حضوره كان غير مريح.

دعا الشيخ عمر «نصيراً» على الغذاء بعد أن أبرم معه صفقة ناجحة في الحانوت. فقد اتفق «نصير» مع الشيخ أن يورد حاجات جيش الخلافة من المؤن والغذاء لشهور كثيرة مُقبلة. بالطبع استتبع ذلك أرباح طائلة للشيخ، ومع أن تلك المؤن كانت منصرفة لأولئك الذين يُقاتلون بني جلدتي فلم أشعر بالندم لذلك. كان ولائي الأول والأخير لشيخي الذي آواني وأدام ستري، وزوجني بقُرة عيني. أنا لا أعلم شيئاً عن أولئك العبيد الزنج الذي تمردوا على أسيادهم، علهم على باطلٍ وحق للخليفة ردهم إلى الحق.

حكت لي «بشرى» كيف نظر إليها الضيف نظرة مُتمهلة متفحصة أربكتها وأشعرتها بعدم الراحة وأنها كادت تطيح بالصحاف من شدة اضطرابها. أما أنا ففهمت نظرة الضيف وارتعبت منها، يبدو أن هذا القائد قد أعجبته زوجتي. نمت يومها ناقماً على بشرى بغير أن أصارحها سبب نقمتي. فلا ذنب للشمس أن تطوف حولها الكواكب.. لكن في قرارة نفسي كنت أشعر أني أريد أن أخفيها. أدسها في نفسي فلا يراها غيري. كنت أخاف «نصير» أن ينتزعها عني. وعندما بلغ مني الخوف مبلغه أخذت

في محاصرتـه ممنيـاً نفـسي أن مـا كان أمـر بسـيط لا يرقـى لأن أرتـب عليـه الحـوادث وأقيـم عليـه الظنـون، حاولـت أن أطمـئن نفـسي لأنـام وأرضى عـن تلـك البريئـة بـلا جـدوى.

في الأيـام التاليـة كابـوسي تحقـق. فقـد تكـررت زيـارات «نصـير» إلى منـزل الشـيخ مُتذرعـاً بحجـج شـتى.. أخـذ يتقـرب إلى الشـيخ وكلاهما يعلم أن نفسـيهما تختلفـان وطباعهـما تتنافـران، فكان الشـيخ يَعْجَبُ مـن إصرار «نصـير» أن يصاحبه ويجالسـه مـع اختـلاف أمزجتهـم... أو هكـذا كان يقـول لي، فالشـيخ متقـد الـذكاء، قـد أنـار اللـه بـصره وبصيرتـه، لا يعقـل أن يكـون غافـلاً عـمّا يحـدث.. لكـن هـل يـرضى الشـيخ أن يـراود ضيفـه جاريـة متزوجـة عـن نفسـها! هـل يرضاهـا الشـيخ حتـى وإن كان هـذا الضيـف يـدر عليـه أرباحـاً طائلـة! اسـتبعدت هـذا الخطـار في سرعـة.. فأنـا أعلـم مكانتـي عنـد الشـيخ وكـذا مكانـة «بـشرى». لكنني شـددت عـلى «بـشرى» أن تحـاول مـا اسـتطاعت أن تتخفـى عـن عيـون هـذا الثعلـب الماكـر. لكنهـا في أوقـات كثـيرة تبيـت مُكرهـة، وهـي لا تسـتطيع أن تصـارح «مؤنسـة» أني أكـره ظهورهـا عـلى هـذا الضيـف.

كنـت أشـعر بالخطـر مـن أعـين الشـيخ الزائغـة وقـد عجـزت عـن مواجهتـي. كان الخطـر يقـترب بغـير حـول منـي ولا قـوة. فكـرت أن آخـذ «بـشرى» و«عمر» وأهـرب مـن بيـت الشـيخ، لكنـي أشـفقت عـلى «بـشرى» مـن الشـقاء الـذي سـوف تلاقيـه خـارج تلـك الأسـوار الآمنـة.. وإن هربـت مـن الشـيخ فـأنى لي الهـرب مـن «نصـير». خـف وزني وسـاءت حالتـي وكان الشـيخ يشـعر بحـالي، وقـد صـبرت عـلى مـا لا طاقـة لي بـه.

كنـا في حانـوت الشـيخ وبعـد أن هـدأت الحركـة فيـه نـاداني فدنـوت. سـحب لي مقعـداً ليجلسـني جانبـه فتوجسـت. هـم بالـكلام عـن «نصـير» وأنـه يريـد شراء زوجتـي منـه فهـوى قلبـي بـين قدمـي وأصمَّـت أذني عـن سـماع المزيـد. لم

أستطع تبين كلمات الشيخ من شدة ما كنت أشعر به من هول. يقول أنه يستنكر بيع زوجتي وهي بمثابة ابنة له كما كنت أنا الابن... خاصة وأن الله لم يرزقه الولد. لكنهُ رغم ثرائه شيخ مُسَالم لا سُلطان لهُ في ردِ قائد بمثل سطوة وبطش «نصير»، وأن الأمر شورى بيننا وعليَّ أن أفعل ما أريد.

جَزَعَت لما سمعت. وعزمت أمري أن أهرب عندما يحل المساء وقد حلني شيخي من أي عقد. أسررت إلى «بشرى» ما كان بيني وبين الشيخ فوافقتني على الهرب. تجهزت في الليل وحَمَلت معها ما قَدَّرَت أنه سيكون ذا نفع لنا في رحلتنا إلى المجهول وألبست «عمر» ثقيل الثياب. حتى إذا جنَّ الليل تسللنا من منزل الشيخ. وكأن آدم وحواء يُطردون من الجنة من جديد، تلفَّتُ خلفي، فلمحت الشيخ واقفاً وقد عقد ذراعيه خلف ظهره... ينظر إلينا متألماً من نافذة في الطابق العلوي، رغم بعد المسافة... خلتني قد رأيت دمعة مُنحدرة فوق وجهه...

فقد كان مقهوراً...

شعرنا بريحٍ عاصفٍ بمجرد خروجنا من باب البيت. لم يستقبلنا عالمنا الجديد بحنوٍ كما توقعت. احتضنت «بشرى» بزراعي محاولاً حماية الصغير بضمة تجمعهما وقد ثنينا قامتنا لاختراق الريح المندفعة في وجهنا تكاد تجتثنا من فوق الأرض. لم يكن لنا ركن نأوى إليه فأخذتهما إلى مكان قصي من السوق أمضينا فيه ليلتنا حتى طلع الصباح، فصرنا نتنقل بين الناس عساني أختفي عن الوجوه العارفة. مرت علينا الأيام ثقال عجافٍ وقد جف صدر زوجتي وزاد عويل الصغير. يعلن تمرده على عالمه الجديد. فكرت أكثر من مرة في الاستسلام وردها إلى منزل الشيخ. قد تكون حياتها في جحيم «نصير» أفضل...

على الأقل قد تحيا....

لم يمهلني القدر وقتاً للتفكير، فما هي إلا ساعاتٍ آخر حتى انتشر جند من الجيش... أتباع «نصير» يبحثون عن العبد الآبق في الأسواق، حاولت الاختباء بلا جدوى. قُبض علينا قبض المُجرمين، أعلم أنه لا جدوى من المقاومة لكني حاولت الدفاع عن زوجتي وقد جذبها أحدهم جذبة عنيفة لينزعها وابني من بين ذراعي. شججت رأس أحد الجند حتى بان عظمه لكن في النهاية تغلبوا عليَّ وقد خارت قوتي ويئست همتي.

***

سُجنت لبضعة أيام أغفو وأفيق كميت في قبر، فقد انهالوا عليَّ ضرباً فتشوه وجهي وتفتتت عظامي. وذلك حتى أتاني الشيخ وحررني من محبسي. قال أنه توسط لدى حاشية الخليفة «المُعتمد» ليطلقوا صراحي وأنه راجع بي إلى منزله. وعندما سألته عن زوجتي وابني لم يجب الشيخ فتوقعت الأسوأ وكففت عن السؤال. عندما اجتزت بوابة المنزل سمعت بكاء «عمر» فهفا قلبي إلى أمه وإليه، وظننت أني واجدهما، وتركت الشيخ خلفي وحثثت الخطا إلى حديقة المنزل لأجد ابني في حضن جارية أخرى من جواري المنزل وهو لم يزل يبكي. كان لونه قمحياً وكأنه ورث عني وأمه أوصافنا بالعدل فلم يظلم أحدنا أحداً. لكن وجهه الآن صار أنحف وفيه حمرة وكأن به حمى، سألت الجارية في وجلٍ عن أمه فلم تجب. وعندما لحق بي الشيخ سألته عنها فوضع يده على كتفي وسحبني لنتحدث بعيداً عن الجارية والولد.

***

يدعونني «بن أبان»

262هـ

كنت عبداً من جملة عبيد «بني حنظلة» نعمل على كسح السباخ من الأرض لنجعلها صالحة للزراعة. كان أكثر الزنج من حولي مُستسلمين لواقعهم القاسي. ألفت أعناقهم الانحناء واعتادت أنفسهم الهوان، وبدوا وكأنهم تأقلموا على ما هم مجبرين عليه. فقط أنا و«سليمان» كانت أنفسنا تتعذب من جراء ما نلاقيه من معاملة الوكلاء لنا، فكانوا يعاملوننا كالأنعام غير آبهين... وأنا بعد ما زال في نفسي آثار عزة قديمة، لذا كان الوكلاء يرون فيَّ المُشاغب مثير المتاعب فكانوا يخصونني بمُعاملة أكثر قسوة. وكان سليمان دوماً رفيقي في العقاب... فقد كان مثلي... يعزُّ عليه أن يقبل بما قبل به الآخرون. لذا عندما سمعنا بثورة للعبيد يقودها شخص عربي الأصل اسمه «علي» لم نتردد أنا و«سليمان» أن ننضم إليه ونكون في جملة رجاله. تحدثنا سراً مع من بقى في أنفسهم شيئاً من الكرامة لينتفضوا فكوَّنت جماعة لا بأس بها من الرجال.

كانت دعوة «علي» للانتفاض يومئذٍ سرية، يتناقلها الناس سراً بين الديناري والبحرين وبغداد والبصرة. كان يدعو الزنج أن ينتفضوا وقد وعد

كل رجل منهم أن يؤمره على من يأتي بهم من الرجال، فقد جائني أحد غلمان الشورجيين[16] وحكى لي أنه قابل «علي بن محمد»، وأن «علي» أخذ يستشف منه الأخبار ويسأله عن أحوال العبيد وما يجرى لكل غلام منهم من الدقيق والسويق والتمر وعمَّن يعمل في الشورج من الأحرار والعبيد. فلما أعلمه ريحان بما سأل... دعاه «علي» أن ينضم إليه قائلاً:

- احتال على من تقدر عليه من الغلمان. فأقبل بهم إليّ وسوف أؤمّرك على من تأتيني به منهم وسوف يكون لك مُنزلاً كريماً.

ونبأني الغلام أنه استحلفه ألا يُعلم أحداً بموضعه.

عندما قابلت «علي» للمرة الأولى كان مُستقراً في البحرين. وجدته وقد اتبعه الرعاع وأنصاف العبيد والفلاحين والأعراب الساخطين، تقبلنا «علي» قبول حسن... وأمَّرنا أنا و«سليمان» على من تبعنا من الزنج كما وعد. في الأيام التالية كنا نتنقل في الأنحاء، فنرصد تلك الأماكن التي يُستعبَدُ فيها الزنج فنكر عليها ونحرر البؤساء من عبوديتهم ونضمهم إلينا. ففي صباح يومنا الأول حررنا خمسين من الغلمان الزنج. وبعد ذلك بيومين رصدنا موقع يعمَلُ فيه وكيل[17] وكان معه خمسمائة غلام، فقمنا بتحريرهم وقبضنا على «السنائي» وأحضرناه مكتوفاً إلى «علي» وهكذا...، كنا نقاتل الوكلاء مُستخدمين أيدينا أو متسلحين ببعض الأحجار والعصي. وفي أغلب الأحوال كان الوكلاء يهابوننا ويسلمونا غلمانهم بغير قتال.

لا أدري كيف أصف لكم شعوري خلال تلك الأيام الأولى مع «علي». كنت أشعر بإثارة مُطلقة وحماسة متقدة وعزم لا يلين، فقد آمنت بمذهبه وأن أولئك الأقوام ليسوا من الدين في شيء. وكيف لا أؤمن بذلك وقد ذقت وبالهم لسنوات كثيرة مضت. يستحيل أن يكون الله قد أمرهم

16) هو ريحان بن صالح.

17) اسم الوكيل السنائي

بتعذيبنا وتجويعنا ومعاملتنا معاملة الأنعام. مؤكد أن الإسلام الحق هو ما يقول به «علي» أو أنه لا إسلام على الإطلاق... ولسوف أقاتل مع «علي» حتى يسود مذهبه وتتوحد الأمم تحت رايته. أمم لا فرق فيها ما بين الأبيض والأسود، غني وفقير، قوي وضعيف.

لما فشى أمرنا بين الناس هربنا من البصرة. وقام عامل الخليفة على البصرة آنذاك [18] بمطاردتنا. يومها استطعنا الهرب بأعجوبة واستطاع عامل الخليفة أن يأسر الابن الأكبر لـ «علي» وكان اسمه «أنكلاي» وأسر كذلك ابنته وزوجته «سعدية»...وجارية كانت حامل منه اسمها «هند». لم يجزع «علي» لما أصابه ولم يفل ذلك من عزيمته بل ظهر مُتماسكاً قوياً أمامنا. الأمر الذي زاده رفعة في أعيننا، وقد كان الله مع الصابرين... فلم تمضْ أشهرٌ حتى جاء رمضان من سنة 255هـ جاء بالخير كعادته دائماً. فقد عُزل عامل الخليفة عن البصرة. وسيطر نفر من البلالية والسعدية على البصرة فأخرجوا الناس من الحبوس[19]. فخلص بن «علي» وجميع أهله ممن كانوا معه، فلما بلغه خلاصهم رجع إلى البصرة من بغداد وكنا معه أنا و«سليمان».

وعندما انتهى الشهر المعظم... في خطبة عيد الفطر خطب «علي» في ألف نفس من الزنج والأعراب الثائرين يبث لهم أسبابه في الخروج على الخليفة «المعتمد». اتخذ يومها لواءاً حريرياً وكتب عليه بالأحمر والأخضر «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة» وخطب في الناس قائلاً:

- ما خرجت لغرض من أغراض الدنيا. وما خرجت إلا غضبة لله. ولِما رأيت عليه الناس من فساد الدين.

18) اسمه بن رجاء

19) السجن

وختم خطبته قائلاً:

- أنتم الأمراء وستملكون، وسوف تكون لكم القصور والنساء وحلو الطعام.

ولما انتهى أمر من فهموا منه الكلام، أن يُفهموه لمن لم يفهمه من العجم.

نظر «علي» يومها خلفه ليُأتي بالوكلاء الأسرى الذين تم القبض عليهم يُعذبون غلمانهم. أشار إلى «سليمان» أن آتيني بهم، فقدمهم «سليمان» ونفر معه ليكونوا أمام الناس، وهنا صدع صوت «علي» مُخاطباً إياهم أمام الجمع:

- قد أردت ضرب أعناقكم لافترائكم على هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم وقد فعلتم بهم ما حَرَّمَ الله عليكم، وجعلتم عليهم ما لا يطيقون.

فتجرأ أحدهم ورد قائلاً:

- أولئك أبقوا[20].. ولا يبقون عليك ولا علينا.

فنظر إليهم «علي» باستهزاء وأمر بهم غلمانهم، فبطحوهم وضربوا كل واحدٍ منهم مئة جلدة. بعدها التفت إلى الجمع مرة أخرى وقال:

- أعلم أن مُشككين بينكم، يقولون ما خرج هذا إلا لغرض من أغراض الدنيا. يقولون «ماله يأبه لحالنا وأحواله غير أحوالنا ولونه غير لوننا». وأنا حقيقة مُخلص النية لله وهو على ما أقول شهيد، ولكم أقول، فليحط بي جماعة منكم فإن أحسوا مني غدراً فتكوا بي.

انطلق ساعتها صوت من داخل الجمع يُثني عليه ويبايعه. ويُذَكر الناس بما كان من «علي» يوم جاءه جمع الوكلاء يريدونه أن يَرد الزنج كل

20) عصوا

عبدٍ مقابل خمسة دنانير وكيف ردهم خائبين وقد انتوى قطع رؤوسهم وعدل عن ذلك في اللحظات الأخيرة. زادت الهمهمات المؤيدة لـ «علي» وسط الجمع وشعرت برجفة في جسدي، وكأن اليوم بداية لشيء واعدٍ عظيم.

أحببت جميع ما يقول «علي» ويفعل... اللهم إلا أنه وعد الجمع يومها أنهم سيملكون وسيصبحون أسياداً على أسيادهم، فقد كرهت العبودية وكرهت ما جرى عليَّ من ظلمٍ وجور، ولا أحب أن أمارس الظلم على آخرين، حتى وإن كان أولئك الآخرين هم من ظلموني، وعندما صارحت «علي» بحقيقة ما أشعر رد قائلاً:

- يا «بن أبان» الناس منازل. وأنا الآن أقودهم، وما يصلح من حديثي لمُخاطبة جمع فلن يصلح لمخاطبة جمع آخر، فأولئك المُتحلقون حولنا... منهم الطامع ومنهم المُخلص ومنهم من رغب في التخلص من العذاب ومن ذل الأسر ومنهم من يريد نصرة الدين، فوجب عليَّ أن أخاطب كل منهم فيما يريد، حتى يصطف في جيشي.

- لكني أريد أن اسألك... لمَ تحارب أنت يا «علي»؟

اعتدل في جلسته ونظر مباشرة في عيني وقال:

- غضباً لله وسعياً للعدل.

وقع في نفسي يومها صدقه. فقررت أنا الآخر أن أخلص النية له ولنصرة دين الله، وعندما لمس هو مني الأخلاص أمرني على جماعة أكبر. وسرت من وقتها من أكابر قواد الزنج في معاركهم ضد جند الخلافة.

أرسل إلينا الخليفة «المعتمد» في نفس السنة جيشاً من البصرة قوامه خمسمائة رجل وعلى رأسه قائد قوي[21]. جاء الجيش من صدر البصرة

21) يقال له عقيل.

وكنا على أطرافها. كانوا يركبون السفن. فهبت على السفن ريح عاصف فألقت بها إلى الشط. فكبرنا وانطلقنا إلى السفن فقاتلنا من فيها وأظهرنا الله عليهم وغنمنا ما كان فيها من مؤن. ذكرتني تلك الحادثة بما كان مع النبي يوم الأحزاب، وكيف مَنَّ الله عليه بالرياح وهي جند من جنوده فسلطها على أعداءه، زاد يقيني يومها أننا في جانب الحق فقرَّت نفسي.

لم يمهلنا المعتمد وقد استشاط غضباً أن انتصرنا على جيشه الأول، فأرسل إلينا جيش ثانٍ قوامه أربعة آلاف رجلاً وقد أَمَّرَ عليه رجلاً يُدعى «أبو هلال التركي» أَمَّرَني «علي» على ثلاثة آلاف من الزنج يومها. ولم يكن معنا غير ثلاثة أسياف... سيفي... وسيف «علي» وسيف رجل آخر [22]. ونصرنا الله عليهم بحوله وقوته فصرنا مدهوشين غير مُصَدقين، وازداد عزم الرجال وقَرَّ[23] يقينهم.

تجرأنا من بعدها وقد شعرنا أن الملائكة تقاتل معنا، فتحركنا إلى القادسية ودخلناها، ودخلنا دار لـ «بني هاشم» فغنمنا ما فيها من سيوف وألات فتسلحنا، وذاع أمرنا بين الناس وانضم إلينا خلق كثير من الزنج وغيرهم من عرب أهل البصرة. واستعظم أمرنا في البلاد، حتى كان يوم البيداء...

كُنا في ذي الحجة وكانت فرقة منا على أطراف البصرة كما ذكرت لكم، وقد نهاهم «علي» وكنا على مسافة منهم ... أن يدخلوا البصرة، لكن «سليمان» وبعض من معه خالفوا الأمر وتعجلوا فدخلوا... فلقيهم أهل البصرة في جمعٍ كبيرٍ فشردوا بهم، اتخذ «علي» قراره سريعاً فأرسل إلى المحصورين في البصرة دعم قوامه خمسمائة رجل من الزنج. وأرسل رسول له إلى أهل البصرة يعظهم ويفهمهم أن «علي» ما خرج إلا طلباً للعدل

22) اسمه محمد بن مسلم

23) ثَبت

وابتغاء وجه الله تعالى.. فما كان من أهل البصرة إلا أنهم قتلوا الرسول، فقد ضاقوا ذرعاً بالزنج وثورتهم في بلادهم. فقد كانت البصرة عاصمة تجارية كبيرة وكان الناس يَفِدون إليها من جميع الأنحاء للتجارة وتبادل السلع. ومنذ قيام ثورة الزنج تضررت أوضاع الكثير من التجار الأغنياء، وهم في الأساس من حَرَّضوا على قتل الرسول والتصدي لجيشنا. ولم يكتفِ أولئك التجار الجشعون بشناعة فعالهم. فقد وكلوا لمحاربتنا رجل لهم[24] وأعطوه أموالا كثيرة وكان الرجل من غزاة البحر وله علم بركوب السفن. وعندما بلغ الأمر هذا الحد أرسل «علي» يسألني أن أخرج لهم على رأس فرقة من الرجال فألقى بهم «الساجي».

بالطبع امتثلت لأمر «علي» وتحركت إليه وجيشه، وكمَّنت لهم في موضعٍ من حيث لا يشعرون، وعندما سنحت الفرصة انقضضنا عليهم انقضاض الليث على ظبية شاردة فهزمناهم هزيمة نكراء. فمن ثبت منهم قُتل ومن ألقى نفسه في الماء غرق، فلم ينج منهم إلا الشريد، وكثر المفقودين من أهل البصرة. وصل إلينا «علي» بعد المعركة بساعات، وكانت إمارات الغضب بادية على وجهه من أثر خيانة أهل البصرة وقد خلته أنه سيكون فرحاً بانتصارنا.

تقهقرنا مرة أخرى على أطراف المدنية لنأمن مكر القوم، وكنا نسمع صريخ النساء وعويلهم حزناً على رجالهم من مسافاتٍ بعيدةٍ، وجمعت رؤوس المقتولين لـ «علي» فنُصِبَت أمامه، فأتاه جماعة من أولياء المقتولين فأعطاهم ما عرفوا... وجمع الرؤوس التي لم تُطلب وجعلها في خزينة حتى دخلنا البصرة فتح تلك الخزينة فجاء الناس ليأخذوا ما عرفوه من الرؤوس.. من يومها اشتد أمر «علي» كأكثر ما يكون ووقع الرعب في قلوب أهل البصرة وأمسكوا عن حربه.

24) كان اسم الرجل «حمَّار الساجي».

مـرت سـت سـنوات الآن عـلى تلـك الفواجـع. والآن قـد مَكَّنـا اللـه وأنعـم علينـا في مواطـن كثـيرة، وعـرف «المعتمـد» قدرنـا فلـم يعـد يسـتهن بنـا، وباتـت الحـرب بيننـا سـجالاً، فأرسـل لنـا أخـاه «الموفـق» وأوكل إليـه لحربنـا. والحـق فـإن «الموفـق» قائـد شـجاع لا يُشـق لـه غبـار، لكننـا أيضـاً صناديـد لا نَهـن لمـا أصابنـا وسـوف نظـل لـه قائمـين مـا بقيـت ظهورنـا مُنتصبـة فـوق الأرض.

***

اسمي أوس

262 هـ

صراحة لم أكن أهتم بما تحرزه جيوش الزنج من تقدم في ميدان المعارك والمدن تسقط في أيديهم المدينة تلو الأخرى. لم أكن أعبأ إلا بشيء واحدٍ فقط أن أتبع قائمتي وأحصد ما سَمَّته من رؤوس.

منذ أيام مضت. عرفنا أن الخليفة مُنشغل هذه الأيام بتجهيز جيش عظيم ليقاتل «يعقوب بن الليث بن صفار» قائد الثورة الصفارية. فقد نجح «يعقوب» في دخول واسط قهراً وهو الأمر الذي أصاب الخليفة «المُعتمد» بالجنون، فقرر أن يقاتله بنفسه ونزل منزلاً بين بغداد وواسط وانضم إلى الخليفة أخوه «الموفق» في جيش عظيم لتكون على ميمنته «موسى بن بغى» وعلى ميسرته أحد القادة الأشداء[25]. والتقا الجمعان فحملت ميسرة «يعقوب» على ميمنة «المعتمد» فهزمهم وقتل منهم خلقاً كثيراً، عندها كشف «الموفق» رأسه وقال:

- أنا الغلام الهاشمـــــــــي...

وحمل حملة صادقة فانهزم «يعقوب» وظهر من بعدها كراهة من

---

25) مسرور البلخي

بعض أصحاب «يعقوب» للقتال إذ رأوا الخليفة يقاتل صاحبهم. فحمل عليهم جند الخلافة حملة أخرى لينهزم يعقوب مرة أخرى وأخيرة، حدث هذا يوم عيد الشعانين.

وأثناء ما كانت الحرب دائرة ما بين «المعتمد» و«يعقوب»... استصدر «علي» أوامره إلى «سليمان» يأمره فيها أن يُغير على البطيحة. يعلمه أن قائدها منشغل الآن بالقتال في جيش «المعتمد». واستجاب «سليمان» لأوامر «علي» وتحرك يريد البطيحة.

أما أنا وقد عرفت ما أريد، استأذنت من «بن أبان» السفر... فنظر إلى عيني الزائغة غير راضٍ لكنه وافق على مضض.. اصطحبت معي حفنة من الرجال وتحركت إلى سامراء وقد عزمت أن أقطف أولى ثمار قائمتي التي أزهرت. توجهت إلى سامراء وانتحلت صفة أحد التجار الذين ضاق بهم الحال بالبصرة من بعد ما قام الزنج بالسيطرة على أحوالها. فنزلت في بعض أنحاء المدينة واختصصت أحد الرجال المعينين معي أن يستقصي أمر الجلادين اللذين ساهما في إعدام أبي. زودت الرجل الذي عينته لاستطلاع أمرهما بالكثير من الأموال، فالأموال تفتح الأفواه وتظهر كمائن النفوس. كان الرجل يخرج في الصباح ولا يرجع إلا وقد انتصف الليل. كان يتودد إلى الناس في الأسواق ويتباسط معهم في الحديث، وبعد اليوم الثالث بدأت البذور الذهبية تؤتي ثمارها.

عرفت أن الجلادين اللذين أعدما أبي، أحدهما ضخم الجثة أعور بدين اسمه «بهزاد» والآخر معتدل الجسد طويل اسمه «يافت». الأخير كان متزوجاً من جارية عربية قد زوجها سيده إياها ليكافئه على صنيعه مع أبي خلال العام الفائت. هو يعيش الآن مع زوجته في منزل على أطراف المدينة، عرفت كذلك أن سيده قد ابتنى له هذا المنزل فيوافيه في أول اليوم ويفارقه في آخره. وأن زوجته عادة ما تفارق الدار.

أمـا «بهـزاد» البديـن فقـد كان مـن عبيـد «المعتمـد» الـذي اختصهـم برعايتـه. فقـد كان يـرى فيـه حيوانـاً آدميـاً حقيقيـاً وكان يسـتخدمه ليبـث الرعـب في صـدور خصومـه عندمـا يـوكل إليـه إعـدام أحدهـم.

كان الجـلادان يحتـلانِ المرتبتـين الأخيرتـينِ في قائمتـي المُقدسـة. وكنـت لا أعلـم لهـم اسـماً إلى اليـوم، فحمـدت اللـه اليـوم أنهـما مـن الأحيـاء، وفتحـت قائمتـي بالليـل وأضفـت اسـم كل واحـدٍ منهـما بجانـب صفتـه في القائمـة.

أمـرت رجـالي أن يحكمـوا مراقبـة «يافـت» وأن يتركـوا أمـر «بهـزاد» إلى حـين، فـكان مـن طيـب الأخبـار أن منـزل «يافـت» يقـع عـلى أطـراف المدينـة وأنـه بعيـد جـداً عـن العمـران، وأقـرب البيـوت إليـه كان بيتـاً مبنيـاً قـد أعـده صاحبـه للسُـكنى بغـير أن يسـكن فيـه. يبـدو أن السـيد الـذي يملـك «يافـت» قـد رضى لـه تلـك المقامـة البعيـدة حتـى تكـون لـه أوفـر في السـعر. دامـت مراقبـة الرجـال لـه ليومـين ولمـا تأكـدت مـن ثبـات المسـارات والتوقيتـات الخاصـة بالرجـل عزمـت عـلى البـدء في الانتقـام.

***

دخـل «يافـت» منزلـه في المسـاء كعادتـه. فوجـدني في انتظـاره أنـا واثنـين مـن رجـالي وقـد أجلسـت زوجتـه مقيـدة عـلى مقعـدٍ قبالـة البـاب بحيـث يرانـا فـور أن يلـج.. اتسـعت عيناه مـن الدهشـة وحـاول التقهقـر ليهـرب مـن حيـث أتى ليفاجـأ باثنـان مـن رجـالي يحيطـون بـه مـن تحـت أبطـه وقـد تربصـوا لـه عنـد البـاب.. ازداد المسـكين ذعـراً وأخـذ يعلـوا بصياحـه عسـاه أن يخيفنـا أو أن يسـتنجد بأحـد ممـن حولـه. بقيـت جالسـاً أرقـب محاولاتـه اليائسـة للتملـص باسـتمتاع شـديد، بعـد أن هـدأت عنـه النعـرة الأولى طفـق يسـأل وقـد أدرك إحـكام الفـخ عليـه...

- من أنتم؟...

تنهدت تنهيدة طويلة وقلت وأنا أقف عن مجلسي:

- نعـــــــــــــم، هاك هو السؤال، من أنتم؟ أو بالأحرى من أنت؟

سكنت حركة الزنجي بين يدي آسرية في محاولة منه للفهم وقد أخذ ينظر إلي باهتمامٍ وترقب.

- أسمي «أوس». وإن شئت الدقة .... أسمي «أوس بن يحيي البحراني».

تغير وجه الرجل دفعة واحدة عندما سمع اسم أبي. وأنَّ له أن ينسى الاسم الذي كان السبب في سعادته! فمن تلك الدماء حصل على المال والزوجة والسكن. لكن تلك الدماء ستكون أيضاً السبب في شقائه من الآن فصاعداً. ضحكت استهزاءا عندما لاحت لي إمارات الرعب على وجه الرجل، لكن خرجت ضحكتي مُضطربة يملؤها الغضب والتوتر.

- أشعر أني في غير حاجة أن أذكرك من هو «البحراني». فأنت بعد ناعم في خيره.

حاول «يافت» التملص مرة أخرى بعدما سمع... وهو ينظر إلى زوجته المقيدة وقد كتمت الكمامة المُثبتة فوق فمها صرخات متتالية أخرى من الانطلاق... حتى أصابها الإعياء واليأس واستكانت كسيرة الرأس ساهمة إلى الأرض. أومأت للرجال من حوله فقاموا بتقييده على مقعدٍ آخر ليكون قبالة زوجته، كنت أدور حولهما قائلاً:

- حقيقة قد حلمت لك بقتلة تليق بما فعلته بأبي. لكن وجود زوجتك الآن أرغمني أن أُحدث تغييراً بسيطاً في خطتي، أنت تعلم أنك ميت الآن لا محالة.. أليس كذلك؟

همست لأحد الرجال من حولي بما أريد، فقام رجلين من رجالي يعيدون توثيق زوجته على نحو ما أريد. نزعت عنها لباسها وبصقت في فرجها ثم

ولجتها في عنفٍ أمام زوجها، لم تستطع الفكاك من إحكام سيطرة الرجال على أطرافها وقد أرغمها أحدهم أن ترنو برأسها لزوجها وهو ينظر إليها غير مصدقٍ تارة ويدير عينيه عنها تارة أخرى، يبدو أنه يحبها... فقد كان الألم والأسف باديينِ على ملامحه من أثر ما يحدث.. وعندما انتهيت منها استللت خنجراً تمنطقت به وشددتها من شعرها ليظهر نحرها... فذبحتها ذبح الخراف أمام أعين زوجها الذاهلة. غرغرت مرتين قبل أن تهوى جثة هامدة عند أقدامه وقد تلوث رداءه بالدم، رفعت سروالي وأنا ارتديه بحرصٍ محاولاً تجنب الدماء قدر الإمكان... ثم ملت إلى جثتها مرة أخرى وتناولت رأسها اجتثته ببطء من منبته حتى خلص الرأس من الجسد.. رفعت رأسها إليه في مواجهة عينيه تماماً:

- ألا تريد أن تكون لك القُبلة الأخيرة؟

اهتز بمقعده في عنفٍ محاولاً التملص... مُتجنباً النظر إلى الرأس المفصولة، وعندما خمدت حركته وقد أغمض عينيه في إصرار... أمال رقبته جهة اليمين مُتشنجاً، رميت الرأس وكأني مللتها. وظللت على حالي أنظر إليه لأوقات كثيرة متتالية مستمتعاً بالقهر الذي أمارسه عليه. حتى أحسست منه فواقا من صدمته الأولى. كان يهمني أن يشعر ويعرف ما سوف يجرى له لاحقاً، وهو الآن متجهز أن انتقل به إلى المرحلة التالية.

قمت من فوق مقعدي واتجهت إلى ركنٍ منزو من المنزل وأخذت منه قنينة فخارية ووضعتها أمام عينيه، كان ينظر إليها في فضول:

- أصدقك القول يا صديقي، ما حدث لم أكن أنتويه - قلتها وأنا أومئ إلى جثة زوجته، لكني وجدت الفرصة سانحة فما أردت أن أضيعها. أنت تفهمني بالطبع يا صديقي، فأنت مثلي لا تحب إضاعة الفرص.

سكت لبرهة وأنا أنظر إليه ثم أكملت:

- بالطبع أنت تتساءل عما هو داخل تلك القنينة، وأنا لن أتركك تعمه في حيرتك، وسأجعل القنينة تتحدث عن نفسها.

نظرت إلى القنينة أحدثها:

- أمن الممكن أن تفصحي لنا عن حقيقتك أيتها القنينة السحرية؟

فتحتها وأنا أنظر إليه قائلاً:

- يبدو أنها ستستجيب، نظرت إلى جسد زوجته العاري وأسلت عليه بعض ما في القنينة بحرصٍ... فتصاعد دخان خفيف في المكان وأخذت طبقات ظهرها في التآكل حتى شارف عظمها على الظهور، كان ينظر إلى تجربتي مرتعباً وأنا أرقبه مستمتعاً فقلت:

- العين بالعين والسن بالسن، ومن حرق يحرق ولو بعد حين.

قام رجالي بتجريده من ملابسه، وأبقوه مقيداً... بدأت أصب على يديه التي آذت أبي في اليوم المشهود. انطلق صراخه ليطول عنان السماء، كان مشهد لحمه المحترق يثير حماستي... رغم أنه كان تثير اشمئزاز الرجال من حولي، حتى أن أحدهم طفق يفرغ ما في جوفه. ارتفع صراخ «يافت» ليحدث صريراً مُرعباً يدغدغ أذني في نشوة عبقرية.. كان صراخه يمس أوتار قلبي فيحركه ويطربه وكأنه ترانيم مقدسة هبطت تواً من طيات السماء، سكبت من قنينتي على رأسه الحليق وعلى عينيه فأعميته وصار منظره بشعاً. في البداية كنت أختار المناطق غير المميتة من جسده، وعندما كثر فيه الحرق والتشويه وقلت استجابته... صرت أجرب ماء قنينتي في أماكن حيويه قد تميته. وكأني طبيبٍ استكشف أي الأعضاء أكثر أهمية للإنسان، صرت أجرب وأجرب حتى فارقت روحه الآثمة جسده المشوه مع ساعات الصباح الأولى، فبصقت عليه، وركلت المقعد الذي قُيد عليه ليقع مُهملاً بجانب زوجته، وتركت منزله وأنا أشعر بنصرٍ كبير.

أصبح مقتل «يافت» وزوجته حديث سامراء في الأيام التالية، وتداول بعض الخبثاء أقاويل تفيد أن القاتل من أنصار «البحراني» الذي أعدمه يافت قبل سنة. فالجريمة تدل على أنها ارتكبت بغرض الانتقام، وما فعل «يافت» المأسوف عليه شيئاً يستدعي الانتقام إلا اشتراكه في إعدام «البحراني».

***

توالت الأخبار باستيلاء «سليمان» على البطيحة. ورغم تحوط «مسرور البلخي» بأن ترك بعض أصحابه لمناوشة الزنج... فلم يقف ذلك عقبة في وجه «سليمان» القوي، فقد استخلف على الجيش قائد آخر والتف هو إليهم من الخلف. واتفق مع القائد الذي استخلفه ألا يبدأ الهجوم على أصحاب «مسرور» إلا بعد سماع صوت الطبول، فاستطاع «سليمان» الانتصار على العباسيين، وأرسل رأس قائدهم إلى «علي». كَدَّرت الأنباء الخاصة بسقوط البطيحة في يد الزنج فرحة الناس بانتصار «المُعتَمد» على «يعقوب الصفار» وتجدد الرعب من الزنج في نفوس الجميع.

أما أنا فلم أرضَ بمُغادرة سامراء إلا بعد أن يمُكنني الله من «بهزاد». فأفعل فيه مثلما فعلت بـ «يافت». حذرني من هم معي أن العباسيين يقتربون من سامراء بعدما انتصارهم على «يعقوب»، لكني لم أرضى أن أفوت عنق «بهزاد» من تحت سيفي بعدما صار دانياً منه دانياً.

***

وبينما أنا غافٍ ومن حولي الرجال شعرنا بمن يقتحم علينا المنزل الذي اكترياه في سامراء. فقمت أتحسس سيفي، وأخذت أفيق بقية الرجال في صمت وأنا أشير إليهم ليحذروا، بمجرد أن فتح الباب اشتبكنا مع من جاءوا في أثرنا. فإذا هم نفر من الجيش العباسي يريدون القبض

علينا أو قتلنا. نفعنا أنهم لم يتوقعوا أن يجدوا منا مقاومة، سرنا ندفعهم بسيوفنا لكن عددهم كان كبيراً، يبدو أنهم درسوا الأمر جيداً وعرفوا أن وراء القتيل وزوجته أحد رجالات الزنج فصمموا أن يظفروا بالصيد الثمين.

مرت الدقائق خاطفة وكان رجالي يتساقطون من حولي، وبدا أن الموت هو المصير المحتوم...

***

أنا بن طولون

262 هـ

اسمي «أحمد بن طولون». عمري اليوم اثنان وأربعين سنة. قد مات أبي «طولون» منذ قرابة العشرين سنة. وقد أوصى لي بالمُلك من بعده، فقد كان مُعيناً مِن قبل الخليفة، يقولون أني لست ابناً له وأنه قد تبناني. والآن وبعد كل تلك الأعوام أخال ما يتهامس به الناس صحيحاً. فعندما كنت صغيراً أرسلني أبي «طولون» لأحضر له دواة ورقعة ليكتب إلى الناس الذين تجمعوا على أعتاب بيته. وبينما أنا أمر بين الغرف، رأيت مشهداً مُفجعاً... فقد كانت الجارية المفضلة لأبي تحاول أن تكتم أناتها وقد اعتلاها عبد أسود عظيم الجسد. وبينما وقفت مشدوها بما أرى لمحتني الجارية فاتنفضت عن العبد ودَفَعَته عنها وسترت جسدها، وقامت في أثري، لكني كنت جريت لأنجز المُهمة التي كلفني بها أبي. سلمته الدواة والرقاع ولم أشأ أن أخبره عن الجريمة التي رأيتها، فقد تكذبني الأمة ولم يشهد زناها إلاي، وقد أخبرني مُعلمي أن الزنا لا يَثبُت إلا بشهادة أربعة وإلا جُلد من إدعاه حد الفرية ثمانين جلدة. لمح أبي نظراتي الزائعة فقبض على ذقني يرفعها إلي يحاول أن يغوص في أعماقي. أفلَّت ذقني من بين أصابعه ونظرت إلى الأرض صاغراً.

- ما بك يا «أحمد».. أراك زائغ العينين وجلاً؟

- لا شيء يا مولاي.

لم يضغط علي لمعرفة المزيد وطفق يكتب ما انتواه وأنا شاخص جانبه وقد استولت عليَّ صورة الأمة تأن تحت صديقها الأسود لا أستطيع لها دفعاً. انتهى أبي وأرسلني بما كتب وصرفني من أمامه وأنا مُبلبل الفكر.

عرفت بعدها أن تلك الأمة خافت أن أخبر أبي بما كان منها والعبد الأسود. فذهبت إليه واتهمتني عنده تهمة كتهمة يوسف وأني راودتها عن نفسها وصدقها أبي، وللعجب فقد أمر بقتلي. فأرسل إليَّ وحمَّلني كتاباً إلى بعض خدمه يأمره فيه أن يقتل حامل الكتاب من غير سابقة عتاب ولا مشورة. فلما أخذت من أبي الكتاب مررت بالجارية. فلما رأتني سألتني عن وجهتي فقلت:

- معي خطاب خاص بأبي أرسله إلى أحد خُدامه.

- أنا أرسل عنك من يرسله، فأنا أريدك في شأن هام.

دفعت إليها الكتاب الذي أعطاني أبي إياه فدفعته إلى العبد الذي كان يعتليها ليرسله إلى حيث أراد أبي. وكانت تريد من ذلك أن يُشاهدني بعض الناس وأنا أقف معها في الدهليز فيزداد أبي غضباً عليّ ويُصَدقُ قولها. فلما ذهب العبد الأسود إلى حيث خادم أبي... أطار الخادم رأسه بغير عتاب ولا مشورة كما أُمر في الكتاب، وبعث الخادم رأس العبد الأسود إلى أبي، فلما رآها عجب لصاحبها، واستدعاني وقال:

- أصدقني القول... ما الذي رأيته يوم بعثتك لتأتيني بالمدواة والرقاع؟

أجبت خائفاً:

- لا شيء.

رد غاضباً:

- أصدقني وإلا قتلتك..

فأصدقت أبي الحديث... وعلمت الأمة بأمر الخادم وأن الأمير «طولون» قد أطار رأسه، فتيقنت أن أبي قد عرف عنها كل شيء فقال لها أبي: - أصدقيني.

فلما صدقته قتلها، أما أنا فقد حظيت عنده من يومها.

لذا يغلب على ظني أن «طولون» ما هو أبي ولكنه مولاي، فما كان لأب أن يقتل ابنه حتى ولو عرف أنه وطأ جارية من جواريه.

***

أياً ما كان حالي مع أبي، فأنا الآن الأمير من بعده، بل وقد زادت إمارتي بعد أن وليت على أجزاء من مصر بأمر من أحد أمراء الترك[26]. وعندما خلفه أمير تركي[27] آخر ولاني الأخير مصر بجميع أقطارها، فأصلحت من شأنها وقاومت الثورات التي اندلعت فيها حتى استحققت عن جدارة ما استخلفني عليه الأمير التركي والخليفة. لذا أشعر بالمهانة الشديدة الآن من ذلك الكتاب الذي أرسله إليَّ «الموفق». فقد كانت صيغته شديدة اللهجة وكأنني مملوك من مماليكه، فقد أرسل يقول:

من أبا «أحمدٍ طلحة بن جعفر الموفق بالله»، إلى عامله بمصر «أحمد بن طولون»... تعلم ما نحن عليه من حرب شعواء يخوضها جيش الخلافة ضد المارق الخبيث «علي بن محمد» وقد ولينا ك مصر منذ سبعة سنوات وأنت منذ حينها تقطر علينا من أموالها مع كثرة كنوزها واتساع دروبها،

26) هو «بايكباك».

27) هو «ياركوج»

فإن كنت تعجز عن القيام على أمرها بحقها نزعناك عنها وأرسلنا من يقوم مقامك...

وقد أعذر من أنذر

قائد جيوش الخلافة العباسية

«الموفق»

أنا سياسي مُحنك. أميل دوماً إلى كسب الصداقات والابتعاد عن العداوات. لكني لا أملك أمام هذا التهديد الصريح إلا الرد الغاشم، فقد اغتر هذا الغر بجيش خلافته ونسي أنه قد فشل في مواجهة شرازم مُتفرقة من العبيد، وهو الآن يهددني إن لم أعينه عليهم، لو كانت مطلبته أكثر تأدباً ربما كنت جنحت إلى مساعدته. لكنه الآن لا يستحق مني إلا الغلظة وسوء الرد. لم أتمهل كثيراً وأرسلت إلى كاتبي فسطر على رقاع رد غاشم للـ «موفق» يحمله رسول لي، لم يرد «الموفق» كتابي بآخر. بل علمت أنه الآن يجهز جيشاً بقيادة «موسى بن بغى» لينزعني عن مصر ويأتيه برأسي.

***

بانت بوادر جيش العباسيين بقيادة «موسى بن بغى» بالرقة... فتحركت إليهم، وكانت الرقة أقرب نقطة لـ «موسى» يمكنه أن يتقدم إليها وقد وقفت تحصيناتنا حجر عثرة أمام وجهه. مكثت جيوش العباسيين في الرقة الشهر تلو الآخر بغير أن يجرأوا على الاقتحام، وكان جيش «موسى» عظيماً يثير الرعب في النفوس، وعندما كنت اتأمله من خلف التحصينات كنت أعجب لماذا لا يحاول هذا المأفون اقتحام حصوننا الآن بدلاً من استنفاد موارده وهو على تلك الحالة من الجمود. يبدو أنه ينتظر الدعم والمدد من الخلافة قبل أن يقدم على خطوته الأخيرة.

لا أخفيكم سراً فأصدقائي كثيرون من القواد وأرباب المناصب. استطعت

أن أستميلهم بالعطايا والهدايا فصار ولائهم لي وإن بدا أنهم يقفون ضدي. أولئك، كانوا يراسلونني بانتظام ويخبرونني بسوء حال جيش الخلافة على خلاف مظهرهم القوي، وكيف أن قادة الجيش مُنقسمين على «موسى بن بغى» وذلك بسبب تأخر رواتبهم وما هم موعودون به من عطاء، فبدأ السخط والفوضى يدبان داخل الجيش. وأصدقائي من الداخل يدعمون تلك النزعة.... و«موسى بن بغى» يطلب من «الموفق» الأموال بغير فائدة. فلم يتمكن «موسى» من الاستمرار في الحصار أو التقدم فرجع بجيشه مرة أخرى إلى سامراء بعد أن أتم في الرقة عشر أشهر كاملة.

كدت أموت فرحاً من جراء هذا الانسحاب غير المتوقع، فقد كنت أظنها حرباً ضروس.. وأغلب ظني أني لم أكن لأبقى حياً بعدها، لكنها مشيئة الله. والله لأتصدقن بكثير من أموالي، ولسوف أقوم ببناء جامع عظيم يصلي فيه الناس شُكراً لله تعالى، فقد نصرني اليوم على «المعتمد» خليفة بني العباس وأخيه «الموفق» واليوم أستطيع أن أزعم استقلالي بمُلك مصر خالصة لي ولذريتي من بعدي، فلتكن لي مصر وماجاورها ويكون لل«معتمد» سامراء وبغداد، إن استطاع أن يحفظهما من غضبة الزنج الهادرة.

***

اسمي بشرى

262 هـ

نحـن معـشر الزوجـات متهـمات أننـا نُبـدي الأولاد عـلى الأزواج. فـمالي أشـعر بحـزني عـلى أدهـم يـكاد يفتـك بقلبـي. واشـتياقي إليـه يفـوق اشـتياقي لابنـي «عمـر». هـل يكـون السـبب في ذلـك أني لم أعـاشر «عمـر» سـوى أشـهر معـدودات وقـد انطلقـت جـذوري أرض أدهـم... فـكان هـو التربـة الطيبـة التـي أزهـرت فيهـا وأينعـت، كيـف بـدا لـذاك المُتكبر «نصـير» أن يظـن أنـه سـيفرق بينـي وبـين زوجـي كونـه قـد باعـد بيننـا. فرغـم أنـه فصـل بـين أجسـادنا فأرواحنـا واحـدة ملتحمـة مـن حيـث لا يـرى.

قـد حـاول «نصـير» التزلـف منـي بالأمـوال والجواهـر وجميـل الثيـاب. لكني رغبـت عنـه وأظهـرت لـه الجـزع والنفـور، أخبرتـه أني أكرهـه ولا أحبـه... فـما زاده ذاك غـير عنـاد فـوق عنـاد، طالبتـه في البدايـة بابنـي «عمـر»... أخبرتـه أن عقـلي يـكاد يطـير أنـه بعيـد عـن صـدري. فطلـب مـن الشـيخ أن يأتينـي بولدي. جـاءني بـه ليكـون بـين أحضـاني عسـاني أن أرضى عنـه وأخضـع. أخبرتـه أني أحـب زوجـي وأن قلبـي يـكاد ينخلـع أنـه فـرق بيننـا... ثـارت ثائرتـه ولطمنـي وركلنـي لدقائـق طـوال حتـى خَلَّـفَ عـلى جسـدي هـالات حمـراء وزرقـاء وتركنـي

مُكَومة غارقة بين مخاط أنفي ودموعي. لَما أعيته الحيل حاول أن يغلبني على نفسي فقاومت وكأني أدافع عن حياة «أدهم» نفسها... أدافع عن حبي له وعن أملاً باقياً لأن نبقى معاً.

خرج من غرفتي غاضباً يكاد يتميز غيظاً. كيف يظن هذا المُتغطرس أن بإمكان قلبي أن يُحبه يوماً. لكن كبرياءه كانت تتحطم على صخرة الرفض ويتهشم هو لآلاف القطع فلا يستطيع لها جمعاً. كنت أعلم أنه مُستعد لتقبيل قدمي. أن يسجد لي إن شئت... وأمكنه من نفسي، وكان يقيني ذاك يُزيدني منه نفوراً، كنت أشعر بلعابه يسيل على جسدي... تارة يستجدي ... وتارة يقسو ... بلا جدوى.

***

في أحد الأيام أفقت من غفوتي في قصره لأجد نفسي عارية في فراشه ورائحة عطره الكريهة قد التصقت بجسدي، وسوائله المُقززة كامنة بين ثنياتي، فزعت لمَّا أدركت...

قمت أستر نفسي أحاول جاهدة أن أتذكر ما كان في ليلتي الماضية. فإذا هي ليلة كبقية الليالي، تناولت فيها عشائي وجلست أناجي النجوم عساها تبث شوقي إلى حبيبي «أدهم». يبدو أنني غفوت على مقعدي، لكن من أتى وحملني إلى الفراش وجردني من ملابسي وفعل بي الفعال. لا بد وأنه «نصير» قد يأس أن أسلّم له فعاشرني كجثةٍ هامدة.

بكيت يومها وجززت على أسناني غيظاً وكمداً ولطمت وجهي مرات ومرات، هرعت إلى الحمام أسكب الماء على أنحائي أحاول التخلص من رائحة عطره الجاثمة. بصقت رضابه من فمي مرات ومرات حتى جف حلقي. تنشفت وارتديت ملابسي وخرجت قانطة أنظر من شُباك غرفتي، فإذا الشمس في مكانها، لكنها بانت لي مختلفة... ليست كشمسي التي كنت

أراها من قبل انتهاكي. فكرت بـ»أدهم» لا بد وأنه سيسامحني عمّا بدر مني، لكني لم أفعل شيئاً فقد كنت مفعول بها... وهو سيُقدر ذلك يوم نلتقي ونبقى معاً. لكن كيف لي أن أغفل عن جميع فعال «نصير» أثناء نومي! لا بد وأنه قد دس لي شيئا يذهب الوعي في طعامي، كيف يرضى رجل أن يعاشر امرأة عن غير إرادة منها!

امتنعت عن الطعام بعدها بأيامٍ خوفاً أن يدس لي هذا الحقير شيئاً في طعامي مرة أخرى. صرت أنحف وأضعف وأهش، حتى جف صدري من اللبن وما عدت قادرة على إرضاع «عمر»، اكترى هو مُرضعة لترضعه خوفاً عليه أن يموت فأزهد أنا العيش وأنتحر. كان واثقاً أن تلك الفكرة لم تكن بعيدة عن مُخيلتي.

***

أحسست بدبيب قدميه يقترب من غرفتي، فهرعت إلى ملابسي أتغطى بها وأضع على شعري ما يستره. أعرف أن هذا المسلك يحزنه وكنت أغالي في تلك المراسم نكاية فيه، دخل هذه المرة وعلى شفتيه ابتسامة تشفي واضحة أرعدتني من الداخل، جلست أمامه متوجسة وأنا أتشاغل عن النظر إليه فبادرني هو بالكلام:

- حقيقة لا أعرف سر انجذابك لهذا الزنجي حتى الآن، فلا هو بالوسيم ولا الشريف ولا القوي البطل، لا أجد لذلك تفسيراً إلا فساد ذوقك.

هذا المغرور يأبى أن يعترف أن إحداهُن قد تفضل رجل عليه فيتهمني أنا بفساد الذوق لأنه لا يريد أن يتقبل تلك الحقيقة، لم أرد عليه فطفق يُكمل:

- عامة قد قررت أن أبذل معكِ معروفاً وأعينك على تحسينِ ذوقك.

تصاعدت دقات قلبي فجأة حتى خلته يسمعها، لكني لم أرد... حقيقة

لم أكن أستطيع الرد، فلو تفوهت كلمة واحدة لخرجت عبارتي متقطعة من أثر الانفعال.

- الآن وأنا جالس معكِ في هذه الحجرة، يكون عبدك في خبر كان، فعندما يعجز المرء أن يميز بين الخبيث والطيب فعلى أحدهم أن يساعده.

انقبضت يدي على غطاء الفراش وقد اتسعت عيني من هول ما أسمع، وددت لو انقضضت عليه وكتمت أنفاسه. لكن عقلي لم يكن ليستوعب ما يقول... جائز أنه يهددني... أو أنه يستثيرني... أو يريد أن يعرف ردة فعلي، لكنه أكمل:

- بينما أجلس معك الآن ... يجتث رجالي رقبة حبيب قلبك ليأتوني بها، وليكن منك من بعدها ما تشائين، فقد بلغت مني المدى، وأيقنت أنه لا شيء منك يفوق ما تفعلين.

لم تحتمل نفسي المزيد من الصبر، فانقضضت عليه انقضاض لبؤة شرة وسرت أخمش وجهه بأظافري وألطمه حتى أدميته. فدفعني بعنف حتى اصطدمت بالطاولة فتهشمت معي أرضاً. انكب هو علي يلطمني ويركلني ويسبني ويسب «أدهم» بأقزع الألفاظ. ولما كلَّت يده تركني مُمَدة وأخذ يجفف الدم عن وجهه بمنديلٍ أخرجه من جيبه وهو يواصل السب خارجاً من الغرفة.

***

اسمي أوس

262- 263هـ

قاتل الرجال من حولي في بسالة مُنقطعة النظير، كنا خمسة من الزنج في مواجهة حفنة من رجال الشُرط الأشداء. أولينا ظهورنا لبعضنا البعض وسار كل منا يواجه من أمامه، نفعنا ضيق المكان فكانوا يتوجهون إلينا ثلاثا والباقون منهم ينتظرون نتيجة المبارزة. فمن سقط منهم تقدم إلينا غيره. جندلنا من استطعنا لم أكن أحصيهم عدداً. فقط كنت أشعر بالدائرة تضيق من حولي كلما تساقط رجل من رجالي الأربعة، سقط ثلاثة من رجالي ولم يتبقى لي إلا واحداً وصار الموت مني قاب قوسين أو أدنى. عاينت الغرفة من حولي واسترقت نظرة خاطفة إلى الخلف فرأيت النافذة مفتوحة. حسمت أمري وعزمت على ترك الرجل الأخير يواجه مصيره المحتوم، فإن بقيت قُتلنا معاً.

هوى سيفي بقوة على رأس من أمامي فشجه نصفين وزاغت نظرته وهوى على الأرض كبالون مثقوب. لم أمهله ودفعته على من خلفه فسقط الجمع، قفزت من فوقهم على دفعتين ثم اعتليت النافذة وقفزت منها بغير تردد. درت دورة واحدة على التراب بعد أن لامست قدماي الأرض ونظرت من حولي، فإذا رجال الخليفة لم يطوقوا البيت لحسن الحظ.

هرعت إلى سيفي الساقط فثبَّته في غمده وانطلقت أعدو.. والجمع ينظر إليَّ من النافذة، استعد أحدهم ليقفز خلفي وآخرون يحاولون رمي أسلحتهم جهتي علها تصيبني. عندما تجاوزت عدواً مسافة كبيرة آمنة، ثبَتُّ لمن يعدو خلفي وجندلته بسيفي. كان أحرى بهذا الساذج أن يرجع عندما ابتعد عن زملائه. أكملت طريقي آمناً وقد عزمت أن أسلك دربي على الحجر والصخر حتى لا أترك لهم أثراً يستطيعون تتبعي من خلاله.

***

مكثت على أطراف سامراء مُتخفياً لبعض أيامٍ، وعندما شعرت أن الأمور قد هدأت، رجعت مرة أخرى إلى البيت الذي استأجرناه. ونظرته عن بعد عسى أن يكون رجال الخليفة يراقبونه فلم أجد لهم أثراً. تقدمت إلى البيت، فوجدت جثث أصحابي مجزوزة الرأس وقد ملأت البيت رائحة كريهة. يبدو أنهم قد حملوا معهم جثث أصحابهم ممن جندلناهم. جلست القرفصاء بجانب جثة أحدهم استخلص من ملابسه ما وجدت. ضايقتني رائحته وهالني الدود والذباب المتسكع بين جراحاته، كنت على وشك التقيأ فقمت سريعاً إلى مكان في البيت أعرفه قد حفظت فيه أموالي، فإذا بالمكان كما هو على حاله. أخذت الأموال وخرجت من البيت مُترقباً، وقد أخفيت معالم وجهي. استأجرت راحلة أتوجه بها إلى «عكبرا» ومنها إلى «بغداد» وذاك حتى استكمل رحلتي إلى «الأهواز» جنوباً لأنضم مجدداً إلى «بن أبان». وددت لو مكثت في «سامراء» لأظفر بـ «بهزاد» ومن بعده «عاصم» الطبيب الخائن الذي سلم أبي إلى «الموفق» بغير أن يطرف له جفن. لكن الأجواء لم تكون مواتية ورجال الشرط باتوا نافرين مُتأهبين. وجيوش الخلافة على وشك الرجوع إلى العاصمة.

***

جـاوزت «بغـداد» بعـد مسـيرة أيـام، ارتحـت بعدهـا أكـثر رغـم طـول المسـافة المُتبقيـة حتـى الأهـواز. فقـد كانـت سـيطرة الزنـج غالبـة في الجنـوب في الحـين الـذي سـيطرت فيـه جيـوش الخلافـة عـلى الشـمال. لم تكـد تمـر أيـامٍ آخـر حتـى نعـيَّ إلي الخـبر الحزيـن، فقـد هُـزم «بـن أبـان» في الأهـواز وطـرد منهـا. ويقـال أن نفـر مـن جيـش الخلافـة قـد عرفـه في المعركـة وعزمـوا عـلى قتلـه لكنـه أفلـت بمعجـزة وقـد هـرب إلى «المختـارة»، و«المختـارة» هـي عاصمـة الزنـج التـي ابتناهـا «عـلي بـن محمـد» في أقـصى جنـوب العـراق السـنة الماضيـة. لم أكـن قـد دخلتهـا مـن قبـل لكـن يقولـون عنهـا أنهـا شـاهقة الأسـوار، عظيمـة الأنهـار، جميلـة الجنـان والديـار، فيهـا جنـد كثـير وخـير وفـير، كنـا فيهـا وفي مـا حولهـا في اسـتقلال تـام. حتـى أن «عـلي» قـد صـك لنفسـه دينـار عليـه اسـمه يتداولـه النـاس في البيـع والـشراء في جميـع القـرى والمـدن التـي سـيطر[28] عليها.

همتنـي هزيمـة الزنـج وهاجـت الأحقـاد في نفـسي. مضيـت مـع الأيـام في اتجـاه المختـارة، كنـت أطالـع قائمتـي التـي أعددتهـا ليـل نهـار. كنـت أخرجهـا مـن صـدري مـرات ومـرات أتأمـل فيهـا وأتذكـر تفاصيـل انتقامـي مـن «يافـت» مُسـتمتعاً، وتـارة أخـرى كانـت تنتابنـي أحـلام يقظـة... أرى نفـسي فيهـا وقـد تمكنـت مـن «بهـزاد» أو «المعتمـد» وأنـا أفعـل بهـما الفعـال. كان ذلـك يتكـرر في وعيـي مـرات لا حـصر لهـا حتـى بـت أحفـظ تفاصيـل انتهـاك كل واحـدٍ منهـم.

وصلـت بعـد أسـابيع طـوال إلى «المختـارة» فعـاد الأمـل داخـلي يتجـدد أن أتمكـن مـن الخليفـة وأخيـه. فقـد كانـت المدينـة في غايـة التحصـين، وكان بهـا مـن القصـور والضيـاع مـا يُبهـج القلـوب ويُـسر العيـون. وفي وسـط المدينـة كانـت هنـاك قصـور متلاصقـات تخـص «بـن أبـان» و«سـليمان بـن جامـع» وكان يتوسـطهم قـصر «عـلي». كانـت القصـور عـلى أحسـن مـا يكـون مـن الفخامـة والأبهـة وكان كل واحـدٍ منهـم يحتفـظ في تلـك القصـور بزوجاتـه وأبنائـه

28) تم صك هذه العملة عام 261هـ

وجواريه، حتى وإن خرج أحدهم للحرب، كان يترك أهله داخل تلك القصور التي حضتها الأسوار المنيعة من كل جانبٍ تأميناً لهم، فقد وعى «علي» الدرس عندما تم أسر «سعدية» و«هند» و«أنكلاي» في السابق.

ارتحت من وعثاء السفر بعض يومٍ ثم توجهت تلقاء «علي» أريد مقابلته. كان يلهو في حديقة قصره غلام أسمر، عندما سألت عنه أخبروني أن اسمه «جعفروية» وأن «بن أبان» يعتبره ابن له منذ مقتل أبيه في أحد المواقع التي خاضها الزنج مع جند الخلافة. فهو الآن يتيم الأب والأم ولا يعرف أحد له أهل.

دخلت عليه في قصره فإذا هو في غرفة فسيحة وقد جلس معه «بن أبان». كانت جراحات الحرب الأخيرة بادية في وجه الأخير وساعده. يبدو أنه نجا بمعجزة كما تناقل الناس، قام «علي» إليّ مرحباً وقد ضمني بين ذراعيه:

- أهلاً بالبطل الصنديد ابن الشيخ الشهيد «يحيى البحراني» عليه رحمة الله.

قام «بن أبان» من مجلسه بفتورٍ وشد على يدي، لم يكن يستريح لمرآي، لم آبه لفتوره... وقد أجلسني «علي» معهم وقال موجهاً حديثه لـ «بن أبان»:

- فلنكمل حديثنا، فـ «أوس» ليس بالغريب.

بدت على «بن أبان» إمارات الكراهة، لكنه أكمل مُرغماً:

- لم أوافقك أن نُقاتل جند «يعقوب الصفار»، فأنت تعلم بأسه وقد استطاع الاستئثار بأراضٍ شاسعة بغير أن يستطيع «المعتمد» له رداً.

- لكننا انتصرنا عليه عندما تواقعنا، وقتلنا من أصحابه خلقاً كثيراً وأصبنا خيلاً وغنمنا غنائم كثيرة.

استمر «بن أبان» يجادله:

- وسألنا «يعقوب» المهادنة ... ومد يده إلينا بالسلم، فما يمنع الآن أن نتوحد تحت راية واحدة لقتال «المعتمد» الظالم وأخيه.

- سوف يظهرنا الله على «المعتمد» و«الموفق» بغير عون من «يعقوب الصفار» ونحن على ذلك إن شاء الله قادرون.

- لـ «يعقوب» قوة لا يستهان بها، لازلت أرى أن تهادنه.

أبى «علي» أن يُهادن «يعقوب إلا بشروطٍ قاسية. كنا نعلم مُسبقاً أن «يعقوب» سوف يرفضها، وترك «بن أبان» المجلس وفي نفسه قدر كبير الغضب. كان يشعر أن الزنج سوف يخسرون الكثير بمُعادتهم لـ «يعقوب الصفار»، لكن «علي» لم يأبه لانصراف «بن أبان» من مجلسه على هذا النحو الغاضب. والتفت بانتباهه إليّ يرحب بي ويُثني علي، وأمر لنا بالعشاء وأخبرني أني لن أبرح معه حتى نهاية المساء. كان «علي» في مزاج سمح تلك الأُمسية، وقد تعجبت لحاله كيف يصبر على هزيمة «بن أبان» أمام جند الخلافة فلا يجزع فرد قائلاً:

- إنما الأيام دول. وقد قال الله تعالى في كتابه الكريم «وتلك الأيام نداولها بين الناس» وقال عز من قائل «فلا تهنوا في ابتغاء القوم، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عزيزاً حكيماً».

لم أستطع ابتلاع ما يقول تماماً فاجبته:

- لكن ألا يثير ذلك عندك الحمية والغضب للثأر؟

- الغضب من الشيطان، والعجلة في الأمر قد تتسبب في هلاكنا، وجُعل الصبر زينة الأخلاق، ولسوف نقتص منهم ولو بعد حين، إنما البقاء للأصبر

وليس للأقوى، وطالما كنا مؤمنين بعدالة حربنا، لسوف ينصرنا ربنا ولو بعد حين.

رددت عليه وأنا اتأمل مجلسه وجميع الرياش من حوله:

- لكنك لم تنهى الناس عن اتخاذ العبيد، وفعلت مثلما يفعل من تحاربهم فلمَّ ينصرك الله عليهم ونحن سواء؟

- يا «أوس» لم ينهى الإسلام عن إتخاذ العبيد، ولكنه جعل لاكتسابهم سبباً واحداً وجعل لهم مصارف كثيرة، والسبب الأوحد المُكسب للعبيد هو أن يتم اكتسابهم كأسرى في حرب مشروعة. ونحن نخوض حرباً مشروعة ضد أولئك التيوس عديمي النخوة ممن تركوا مقاليد حكمهم للأتراك يقضون فيهم كيف شاءوا ويفعلوا بنا الأفاعيل، فقاموا باكتساب العبيد بطرق لم يُنزل الله بها من سلطان. فهم يقومون في سرايا حربية إلى غرب أفريقيا فيصيدوا الزنج صيداً... لتتحول المسألة كلها إلى نخاسة وتجارة ويتحول الإنسان إلى شيء يباع ويشترى.

سَكَتَ لوهلة ليصيغ عبارته الأخيرة ثم قال:

- هم يحرفون تعاليم الدين ليناسب مآربهم الدنيوية الحقيرة.

انتهى من عبارته الأخيرة وأخذ يسألني عن أحوال الناس في سامراء وبغداد والبلاد التي مررت بها حتى وصلت إلى «المختارة»، وسألني عن رأيي في عاصمة الزنج الجديدة، فأبديت إعجابي بها، واستمررنا في المُسامرة حتى انقضى الليل وقرب الفجر فهممت بالقيام، وهب هو الآخر لتوديعي لكننا فوجئنا بأحد الحراس يطلب الأذن لرسول في الدخول، كان يحمل رسالة من «سليمان» ... فأذن له «علي».

انحنى الرسول وقدم رقعة إلى «علي» ليقرأها، فقرأها الأخير بصوتٍ عالٍ.

من «سليمان بن جامع»

إلى «علي بن محمد» صاحب الزنج وقائد ثورتهم.

أزفك البشرى... قد تحركت من البطائح كما أذنت لي... عازماً مواجهة جيوش الخلافة في واسط، فلما اقتربت قرابة الفرسخ من جند الخلافة دَبَّر قائد لي[29] تدبيراً استحسنته. فقد اقترح عليَّ أن يمضي هو إلى جيش الخلافة في واسط فيغريهم بنفسه حتى يتعبوا، على أن أختبئ أنا في الأجناب حتى إذا خرجوا هجمت عليهم من اليمين واليسار، فقبلت منه التدبير وبات العباسيون يلاحقونه ويقولون بُلبُل في قفص وقد ظنوا أنهم قدروا عليه، فبرزت لهم ومن معي من الأجناب فشرَّدت بهم ونالهم منا قتلاً كثيراً. حتى جنَّ الليل علينا فرحمهم الله من بين أيدينا. فما لبثنا غير قليل حتى هجمنا عليهم مرة أخرى فدحرناهم وتم لنا النصر.

والآن أريدك أن تأذن لي أن آتي إلى المُختارة فألبث مع زوجتي وأبنائي أمداً قصيراً. أعاود من بعدها الجهاد في الصفوف الأولى، ولسوف أستخلف على واسط القائد صاحب التدبير الذي ذكرته لك...

نصر الله قائدنا وثبَّت خطاه.

انتهى «علي» من قراءة الخطاب، وهو ينظر لي نظرة ذات مغزى وقال:

- «وبشر الصابرين» الحمد لله، كل شيء عنده بمقدار.

نظر «علي» إلى الرسول وأثنى وخلع عليه وأمر له بما يرضيه وأمره أن يوصل إلى «سليمان» موافقته أن يأتيه لـ «المختارة» مدة ثلاثة أسابيع ليعود بعدها إلى جيشه.

***

29) «الجبائي»

اسمي الموفق

264 هـ

ضَمَّني أخي بتكلفٍ وقد خرج يودعني وقد جهزت الجيش لوأد الثورة السوداء في الجنوب، لم تكن ضمة مُحب... كأنه يتظاهر أمام الجمع بمباركته للجيش بغير أن يعبأ لي، بل أكاد أجزم أنه سيرتاح إن رأى جسدي مُسجياً في ميدان المعارك، فهو لم ينسَ سلطاته التي حَرَمته منها وكأنه القط وقد نزعت عنه مخالبه، لكن ما لي حيلة في ذلك، فهو من أجبرني على ذلك بلهوه وغبائه ومشاورته للمنافقين ممن حوله.. كانت رائحة عطره قوية منسابة على مسافة أمتار منه فبدت خانقة عندما اقترب وعانقني. ارتخت ذراعاه من حولي بغير أن ينظر إليَّ ليتحول إلى «موسى بن بغى» القائد المقدام الذي اخترته أن يكون إلى جانبي في حربي ضد الزنج، فهو خبير بقتالهم وقد انتصر عليهم غير ذات مرة، فكان يحرك الفِرَق والسرايا إليهم بحذق ومهارة شديدة لولا معاكسة الظروف له. لطالما ناصرني هذا الرجل فكان لي نعمَّ الظهير، كانت ضمة الخليفة له مثل ضمته لي... وإن بدت أكثر تكلفاً.

تراجع أخي لخطوات ليسمح بتقدم تلك الجيوش الجرارة التي أعددتها

طوال الأشهر المنصرمة. كان الفكر يستبدُ بي، هل تراني سأرجع مرة أخرى إلى «سامراء»؟ أم أن نهايتي ستكون على يد الزنج أتباع الخبيث «علي بن محمد» أخذت أفكر في زوجاتي وأبنائي من بعدي؟ فأنا أعلم أن «المعتمد» لا يحبني ولسوف يلقون مصير بلون أعدائنا إن سُفكت دمائنا في القتال.

***

كانت الخيل تتهادى بنا و«موسى بن بغى» ساهمٌ جواري لا يتكلم. نظرت له أتأمل في ملامحه... فلم ينتبه حتى أني أتفرس فيه، كانت ملامح الإعياء بادية على وجهه وقد تحلقت عيناه باللون الأسود.

- أراك مُتعباً يا صاحبي، ما بك؟

نظر لي لوهلة وكأنه يراني للمرة الأولى ثم قال ساهماً «ما بي شيء» ولم يزد عن ذلك ليعود إلى حالته الأولى من الصمت. لم أرغب في الضغط عليه، فسوف يتكلم عاجلاً أو آجلاً، فالطريق طويل... والأنيس عزيز.. غرقت أنا في أفكاري مرة أخرى، فقد كنت أدير الحرب في مدن شتى.

فلم يهدأ لي بال بعد أن خدعنا «سُليمان» وصاحبه «الجبائي» واستطاعا الاستيلاء على «واسط». وعندما عرفت أن «سليمان» تركها للـ «جبائي» قررت غزوها من جديد، فأرسلت إليهم جيش من جيوشنا فاستطاعوا الانتصار على الجبائي وطرد الزنج منها. وها أنا أسير بنفسي إلى «الخبيث» كي اجتز عنقه بسيفي الذي يتشوق نصله لأن ينهل من دمه النجس. كنا نعسكر في الليل ونتحرك مع ساعات النهار الأولى ولم نكد نثبت إلا واشتدت الشمس وأردنا أن نتقيها في مكان ظليل.

كنت نائماً على بُعد يوماً واحداً من «بغداد» حين سمعت جلبة في الخارج. جلست في فرشتي مُترقباً وأنا أنظر إلى الموضع الذي تركت فيه سيفي. دخل حارسي الخاص يستأذن أن يدخل إليَّ رسول من عاملنا في

«واسـطٍ». أذنـت لـه مُتوجسـاً وقـد أصابنـي نذيـر الـشر، كان الرسـول رث الهيئـة يبـدو أنـه جاهـد ليلحـق بالجيـشِ بأقـصى قـدر مـن السرعـة.

- ما خطبك يا نذير الشؤم؟

- قـد أرسـلني عاملكـم عـلى «واسـط» كي أخبركـم أن «سـليمان» عامـل «الخبيـث» خـاض العديـد مـن المعـارك ضـد جيشـنا بعـد أن تحـرك مـن «المُختـارة» عندمـا بلغـه خـبر انتصـار جيشـنا عـلى «الجبـائي»، وأنـه انتـصر علينـا في جميـع المعـارك. حتـى دخـل واسـط مـرة أخـرى بعـد أن أمـده «الخبيـث» بقرابـة الألـف وخمسـمائة فـارس.

ارتفعـت دقـات قلبـي مـن هـول مـا سـمعت. انتفضـت قائمـاً أدفـع رسـول الشـؤم إلى الخـارج فسـقط عـلى الأرض بـدوي مكتـوم، وخرجـت أنـا خـارج الخيمـة أنشـد «مـوسى» أبثـه تلـك الأخبـار البائسـة عـسى أن أجـد عنـده السـلوان. شـعرت وقتهـا بالنقمـة عـلى أخـي «المعتمـد» ذاك الخليفـة المُتنعـم بـين المشـارب واللـذات الدائـر بـين أحضـان الحريـم لا يـدري عـن مصائبنـا شـيئاً. دخلـت عـلى «مـوسى» خيمتـه فلـم يفـزع للقـائي وبقـى مُتسـطحاً عـلى فراشـه واكتفـى بـأن فتـح عينيـه ونظـر إليَّ نظـرة خاويـة لا تعكـس شـيئاً.

- قد استطاع العبيد أتباع «الخبيث» الدخول إلى «واسط» مرة أخرى...

لم يبـدر عنـه أيـة ردة فعـل حيـال مـا قلـت عـلى خطورتـه، واكتفـى بـأن أومـأ برأسـه يطمأننـي وهـو يعتـدل في فراشـه عـلى وهـن قائـلاً:

- لا تقلق، لسوف نستأصل شأفتهم وستكون بطشتنا بهم عظيمة.

- قـد مللـت مـا يحـدث. فكلـما اسـتطعنا اسـتنقاذ شـيئاً مـن بـين أيديهـم انتزعـوه منـا مـرة أخـرى، ألـن تنتهـي تلـك الحـرب يومـاً! تسـع سـنوات ونحـن نقتـل منهـم بغـير أن نفنيهـم، وكأن كل رأس نحصدهـا يخـرج غيرهـا مئـات الـرؤوس.

لم يلتفت «موسى» إليّ وإنما قام وأخذ يجترع من قربة ماء وضعها في ركنٍ من خيمته، مسح فمه بكم ثوبه ثم قال:

- فلتهدأ يا «موفق» لسوف ننتصر.. فطبيعة الأرض تساعدهم على التحصن ضدنا، لكن هذا الأمر لن يدم لهم، فمتى فهمنا طبيعة الأرض كان النصر حليفنا، فمعنا العدة والعتاد ... وهم شرذمة قليلون.

هدأت من وقع كلماته، فـ «موسى» ليس بالغر الساذج، فهو رجل حرب... خاض معارك لا حصر لها... وانتصر في أغلبها، وهو داهية دائماً ما ينضم إلى التحالفات الرابحة، عساه أن يكون قد رأى في صراعنا مع الخبيث غير ما أرى.

تركت خيمة «موسى» وأنا أشعر ببعض الحرج أن أبديت الجزع أمامه ، ترجلت بين خيام الجند ساهماً ... تبعني بعض خاصتي من الرجال أشرت لهم أني أريد أن أبقى وحيداً.

جلست على تبة عالية وقد تذكرت ابني «العباس»، فهو أكثر ما أفكر فيه عندما يأتيني خاطر الموت. أخاف أن يقتله عمه «المعتمد» عندما يزول سنده في الدنيا، فقد ينظر له انه منافس لأبنائه على الخلافة، قبل أن أخرج على رأس هذا الجيش أراد «العباس» أن يكون معي في حربي ضد الزنج، لكني رفضت ذلك رفضاً قاطعاً، فإن مت... فلتبقى نطفتي لتأخذ نصيبها من ميراث الأجداد، نعم أنا خائف... لكني لست جباناً. الشجاعة الحقيقة هي أن تكون خائفاً فتقدم ولا تُدبر. وابني «العباس» لم تكن شجاعته تقل عني بل تزيد، سوف نصل غداً إلى بغداد، ومنها إلى البطائح وواسط عسانا ان ننتصر على أعدائنا ويكون لي وأبنائي قدم صدق عند الناس.

اقتربنا من أبواب بغداد عاصمة الخلافة القديمة. كان الناس ينظرون إلينا في إعزاز وفخر. كانوا ينظرون إلى أبهة ملابسنا وإلى أسلحتنا اللامعة

المُتدليـة. أحسسـت بالانتشـاء مـن نظراتهـم لي فشـددت قامتـي ونظـرت إلى «مـوسى» لأرى انطباعـه وهـو يدخـل المدينـة...

وكأن نظرتي كانت مشوبة بتعويذة سحرية قاتلة...

سـقط «مـوسى» مـن فـوق جـواده! نزلـت مـن فـوق جـوادي بسرعـه أريـد مسـاعدته، فـإذا أحـد الجنـود وقـد سـبقني إليـه وقـد الصـق أذنـه بصـدر قائـدي الأول فقـال وقـد اتسـعت عينـاه:

- قد مات القائد «موسى بن بغى».

اسمي أدهم

264هـ

استيقظت من نومي مفزوعاً؛ فقد رأيت كابوساً بث الرعب في أنحائي وهوى بقلبي إلى أعماق الجحيم. رأيتني طفلاً صغيراً أعيش في كوخ بسيط مبني من القش. كنت نائماً بداخله مُطمئناً وكل ما حولي ساكن ومستقر... فجأة شعرت بجلبة ثقيلة، فتحت عيني فوجدت أبي وجلاً يحاول ارتداء ملابسه في سرعة. أما أمي فقد كانت مرتدية جلبابها، وكانت في أقصى أركان كوخنا الصغير مقرفصة أرضاً تلطم وجهها بكلتي يديها والدموع منسابة من عينيها. عندما رأيتها على تلك الحالة فزعت وشعرت بالخوف والخطر. فلا بد أن شيء مخيف وشيك سوف يحدث لنا، فأمي التي أستمد منها الأمان خائفة إلى حد الارتعاب.

علت دقات قلبي ونظرت إلى أبي، أحاول أن استمد منه الأمان الذي افتقدته من مشهد أمي البائس... فوجدته هو الآخر مُرتعباً. أطل أبي برأسه خارج الكوخ يتلمس طريقاً يصلح للفرار، أسرعت والتصقت بقدمه لأشاهد ما السبب في كل ذلك، فإذا بالجحيم حاضراً....

رجال على صهوة جيادهم وفي أيديهم سيوف رفيعة معقوفة وأخرى

مستقيمة. كانوا يرتدون ثياب فضفاضة وعلى أظهرهم حرامل تطير من ورائهم، كان المشهد مُشتعلاً، صرخات النساء تصم الآذان، وأرواح الرجال العُزَّل تحصد بغير أن يملكوا فرصة للدفاع عن أنفسهم. كانت الضربات المُميتة تنهال عليهم من كل صوب. قرر أبي المكوث داخل الكوخ فكل من يخرج من الرجال يُقتَل. نقب جزء من القش من أجزاء الكوخ الخلفية لينظر من خلاله عساه أن يهتدي إلى سبيل، فلم يجد، فأجلسني بجانب أمي وهو يسعى بين مقدمة الكوخ ومؤخرته بالتتابع ثم يعود إلينا يائساً...

لم يمضِ كثير من الوقت حتى هدأت الأمور بالخارج. دخل كوخنا رجل مُلَثَم بشرته ملونة. نظر إلى أبي في تحفز ثم أمره أن يقف وكبله من الخلف وهو ينظر إلى أمي من طرفٍ خفي. أخرج الرجل الملون أبي من الكوخ وسلمه إلى أصحاب له في الخارج ثم عاد إلينا ونظر إلى أمي بطمعٍ وهو يتفحصها بيده وهي تتلوى منه هاربة. ركلت الملون في قدمه فدفعني دفعة قوية سقطت على أثرها فاقد الوعي ... لأستيقظ في النهاية من هذا الكابوس الدامي.

***

شاء الله أن يُذكرني بحياتي الأولى التي آيست من تذكرها، فما رأيته لم يكن كابوساً، كانت رؤية كاملة حاضرة التفاصيل عن الكيفية التي تم أسرنا بها. وجدت نفسي أتذكر بعد تلك الرؤى جميع ما حدث بعدها، تذكرت كيف استيقظت لأجد نفسي محبوساً في قفص خشبي متين كما تُحبس القرود. جلت بعيني في الوجوه البنية من حولي لأتعرف على أبي أو أمي فلم أجد لهم أثراً. صرخت وبكيت فلم يحنن ذلك قلوب الملونين عليَّ، واكتفى أحدهم بهز القفص بعنف وهو ينظر إليّ مُحذراً، سَكَت خوفاً وأنا أحاول التعرف على وجوه المُقَيَدين من الرجال والنساء وقد

سيق بعضهم في أقفاص خشبية مثلي وربط الآخرين وتم سحبهم بواسطة حبال فساروا يهرولون خلف خيل المُلونين وقد ربطوا من أيديهم..

أخيراً رأيت أمي. كانت في قفص كقفصي مُحملة على عربة يجرها خيل عليها الرجل المُلون الذي رآنا أول مرة في كوخنا. صرخت بأعلى صوتي أناديها باسمها، فجفلت وقامت ونظرت إليّ وصرخت باسمي هي الأخرى وحاولت تحطيم قفصها بلا جدوى. نهرها الرجل الذي أسرها ونهرني الملون الذي أسرني، وباعد القوم بيننا حتى يهدأ صياحنا، فقد كانت صرخاتنا تزعجهم.

كان ذاك آخر عهدي بأبي وأمي، لا أعرف أين هما الآن، شاء الله أن أتذكرهما الآن وقد تحررت نفسي من ذل الأسر وقررت الانضمام إلى الثوار الكرماء اتباع «علي بن محمد».

***

لطالما كنت عبداً وفياً لأسيادي العرب. قد دنت بدينهم وتحدثت بلغتهم واندمجت بينهم، ولم أعص الشيخ «عمر» مرة. ورغم الاهانات المتتالية التي كنت أتلقاها من زوجته... لم أتبرم يوماً، لكن تأبى القلوب الغليظة إلا أن تظلم غيرها، فقد استكثر «نصير» عليَّ أن تكون لزنجي مثلي زوجة جميلة تحبه، فقد أبى إلا أن تكون زوجتي أمة لهُ... ينكحها ويهينها وتكون له خادمة حتى يزهدها ويلقيها فيلقفها عنه غيره من أصحابه.

دمر «نصير» حياتي وزلزلها من قواعدها، ولم يكتفِ هذا المجرم بأن اغتصب مني زوجتي، بل أرسل إليّ من يأتيه برأسي.

أذكر هذا اليوم الذي سمعت فيه خطوات مُتسللة بجوار نافذة غرفتي في حديقة الشيخ. لم يكن يعلم أولئك القتلة المأجورون أني مستيقظ لا أنام منذ أن نزعوا «بشرى» من بين ذراعي. فزعت من فراشي وارتكنت

إلى الحائط بجانب النافذة التي عرفت أنهم سينقضون عليَّ منها وسويت وسادتي تحت الغطاء الذي تدثرت به ليتوهم القتلة أني نائم... غافل، كسر الرجال النافذة بدوي مكتوم وقفز رجلان من خلالها، تبادل الرجلين النظرات أمام الوسائد التي توهمها جسدي واتفقا على التنفيذ. هوى الأول على الفراش بسيفه في الحين الذي وقف فيه الثاني على بُعد خطوات منه متربصاً. لوهلة فوجئ الإثنان بأني لست داخل فراشي... استغللت المُفاجأة وانقضضت على الأقرب وانتزعات سيفه من يده. في نفس اللحظة هويت به على رقبة الأول تاركاً فيه جرحاً عريضاً سالت منه الدماء، نظر إليَّ الثاني في رعب للحظة وهو أعزل وهمَّ بالهروب من النافذة فعاجلته بضرتين الأولى فوق ظهره والثانية على قفاه فخر يغرغر تحت النافذة، نظرت له باحتقار وبكل الحقد المتجمع لدي في الأيام السابقة هويت بالسيف مرة أخرى على وجه الرجل لتخمد حركته إلى الأبد.

رفعت رأسي وأنا أمسك السيف بكلتي يدي أحاول أن أهدأ. بعد دقيقة من السكون اتخذت قراري أني لا بد من الهروب، فلن يسامحني القوم على تلك المقتلة حتى وإن كنت فيها مدافعاً عن نفسي، فلا بد أن «نصير» سوف يجدُ في ذلك فرصة أن أقتل بهذين القاتلين عندما يُقدم شكوى للقاضي. وبالطبع لن يستطيع الشيخ حمايتي منه كما فشل أن يحميني وأسرتي من قبل، وكيف سيقضي القاضي لزنجي على عربي، سأترك ابني هنا مع الشيخ والشيخة؛ عسى أن يكون حظه أسعد من حظي. فمن المؤكد أن تركه يعد أفضل خيار له، فلن أستطيع المحافظة عليه ما دام معي.

لم تكد ساعات فراري الأولى تمر حتى اختمرت الفكرة في رأسي وعزمت الانضمام إلى الزنج في ثورتهم ضد الظلم والعبودية، فعندما فررت أول مرة لم أفكر في الانضمام إليهم خوفاً على «بشرى» و«عمر» أما الآن فلم

يتبـقَ لي مـا أخـاف عليـه أو أخافـه. وبالفعـل أخـذت طريقـي جهـة الجنـوب حتـى لاقيـت قـادة الزنـج وانضممـت إليهـم وخضـت معهـم القتـال تلـو الآخـر. قابلـت «عـلي بـن محمـد» وآمنـت بمـا يدعونـا إليـه، فمـن غـير المعقـول أن يأمر الإسـلام باصطيـاد البـشر عـلى النحـو الـذي تـم اصطيـادي بـه وذلـك للتسريـة بهـم واسـتخدامهم في الشـاق مـن الأعـمال.

***

لبثـت في «المختـارة» لأيـامٍ حتـى اختـارني «عـلي» لأن أسـافر ضمـن قـوة من ألـف وخمسـمائة رجـل إلى واسـط لأعيـد تحريرهـا مـن قبضـة جيـش الخلافـة. يقـول «عـلي» أن واسـط كانـت لنـا وقـد حررهـا «سـليمان» مـن أيديهـم منـذ أسـابيع مضـت، لكـن جيـش الخلافـة اسـتطاع غزوهـا مـرة أخـرى عندمـا تركهـا القائـد المغـوار «سـليمان» وجـاء إلى المختـارة حتـى يأنـس بزوجتـه وأبنائـه.

تحركـت مـع «سـليمان» في جمـع مـن الرجـال قصـد واسـط لنحررهـا مـن رجـال الخليفـة الملاعـين، منـذ رأيـت «سـليمان» في المـرة الآولى أكبرتـه، فقـد كان شـديد الطـول سـمين الـوزن هائـل الجسـد عظيـم اللحيـة شـديد السـواد.. كان اسـتثنائياً في جميـع صفاتـه، قلـما كان يسـتطيع الانتفـاع بسـلب المـوتى مـن جيـش الأعـداء بسـبب ضخامـة حجمـه. تشـعر أن صافحتـه أنـك طفـل صغـير بسـبب كفـه الضخـم المُلَحَّـمْ. كانـت الخيـل تجفـل لمـرآه وتشـفق على نفسـها أن تكـون مطيتـه. لازمتـه وخضنـا معـاً معـارك متصلـة حتـى اسـتطعنا في النهايـة اقتحـام واسـط عـلى جنـد الخلافـة وانتزاعهـا مـن بـين أيديهـم.

كان الرجـال يتـسرون بالنسـاء بعـد كل غـزوة. أمـا أنـا فكنـت أعـزف عـن ذلـك فقـد كان حبـي لـ «بـشرى» يملـك نفـسي. لا أسـتطيع الاقـتراب مـن غيرهـا، كان الأمـل يحـدوني إلى قـرب اللقـاء، فرؤياهـا واحتضانهـا بـين ذراعـي

كانا يمثلان الأمل وسط الأهوال التي ألاقيها. أعرف أن «نصير» قد يكون وطأها، لكن قلبها الطاهر سيعلو دائماً فوق ما طالها من دنس.

عرفت اليوم أن «سُليمان» سيعود إلى المختارة مرة أخرى للقاء زوجته وأبناءه فلم أتفاءل. وعرفت أن «علي» قد وافق له أن يعود بعد أن ولى على «واسط» أحد القادة الموثوق بهم. أما أنا فبقيت هنا في واسط تتقاذفني الظنون حول مصير «بشرى» و«عمر».

***

اسمي نصير

264هـ

أعجب لأمر تلك الأمة! كيف تحب عبد زنجي حقير، ألم تنظر إليه يوماً؟... ألا تأنف من أنفه الفطساء وجيوبها الواسعة العجيبة، ألا يقشعر جلدها الناعم من ملمس يده الخشنة السوداء الكبيرة.. كيف ألفت شقراء فاتنة مثلها هذا القرد الضخم بخلقته المشوهة ووجهه الطويل وشعره الأشعث؟

أريد أن أفهم الأسباب. ظننت أن مهمتي ستكون سهلة، فكيف لمثلي أن يفشل أن يأسر قلب رضى يوماً بمثله، إن فهمت استرحت! كنت سأنجح في انتزاعه من قلبها إن كنت نجحت في انتزاع روحه من جسده يوم استأجرت الرجال لقتله. تدافعت الأفكار المؤلمة في رأسي وفرسي يتهادى خلف فرس «الموفق» الأبيض.

اضطررنا إلى معاودة سامراء مرة أخرى بعد أن تحركنا تلقاء الزنج.. لم يكن موت «موسى» السبب في أوبتنا.. بل كان السبب في ذلك ما فعله الخليفة «المُعتمد» الذي قرر عزل الوزير الموالي لـ «موسى» و«الموفق» بمجرد موت الأول. قد ظن أن شوكة الموفق قد وهنت بموت موسى، ورغم

أن «الموفق» كان سيجد السير إلى الزنج بعد موت «موسى» وقد أرسل جثته لتدفن بسامراء... فقد قرر الرجوع لمواجهة أخيه الذي يراه قد طعنه في ظهره بعزله أحد عماله[30] في غيبته فحبسه مُقيَداً وأمر بنهب دوره ودور أقربائه... ورد صاحب له [31] إلى الوزارة، وعندما حاولت تهدئته رد زاعقاً:

- هل أتركه يُعاقر الخمر ويخالط النساء ويخون عهده معي وأنا أقاتل له معاركه!

لم أقوى على جداله فمعه الحق فيما يقول، فربما انتظر «المعتمد» انتصارنا على الزنج ليرسل إلينا من خلفنا من يقضي علينا بعدها فيكون قد أصاب طائرين بحجر واحد. فقد أثبت لنا بما لا يدع مجال للشك أن ليس لمثله عهد ولا وعد..أما أنا فقد اشتقت أن أرجع إلى سامراء فألقى «بشرى» مرة أخرى، فرغم كراهتها لي، لا أملك لها غير الحب، وقد اشتقت لها كثيراً.

كان فرس «الموفق» يلمع بياضه الناصع تحت أشعة الشمس وهو يحث الخطى نحو سامراء على وجل.. كأنه أحس غضبة صاحبه فأراد أن يوافقه إلى ما يريد، أرخيت لجام فرسي لتتأخر خطاي عن خطاه. لم يشعر «الموفق» بتقهقري عنه لشدة غضبه وانشغاله، فرجعت أطلب أحد خُدامي المخلصين، وعندما وقفنا في استراحة قصيرة كتبت رسالة إلى أمتي «شمس» تلك الجارية التي أحبتني من شغاف قلبها وهي تعلم أن قلبي مملوك لغيرها.. أعلمتها أني قادم وأمرتها بتجهيز الدواء الذي استخدمه كي تنام «بشرى» فأفعل بها الأفاعيل بغير أن تقاومني، أتممت الرسالة وسلمتها إلى الخادم ليسبقنا بها إلى سامراء.

---

30) كان العامل المعزول المحسوب على «موسى بن بغا» و«الموفق» هو «سليمان بن حرب».

31) هو «الحن بن مخل» وكان يدين بالولاء للـ «معتمد» وحده.

واه يـا «شـمس» واه أيتهـا البائسـة... تعديـن بيـدك الفـراش الـذي أمـازج فيـه غـيرك، ليـت كان لي في قلـب «بـشرى» قـدر قطـرة مـن الحـب الـذي أسـكنه اللـه في قلبـك لي. لم ألبـث في حـسرتي غـير قليـل... حتـى اسـتدعاني «الموفـق» وقـال:

- مالك تقهقرت عني قُبيل الظهيرة!

- كنت أكتب رسالة أوجهها إلى نسائي كي يستعدن لمقدمي في سامراء.

ضحك «الموفق» بشدة وقال:

- ومن قال أننا سنتوجه إلى نسائنا إن دخلنا إلى سامراء.

ضاقت نفسي مما يقول، لكني كتمت ضيقي واستوضحته:

- وما يمنعنا من ذلك!

ضحك بافتعال ورد قائلاً:

- قـد جمـع «المعتمـد» جيشـاً وتحصـن في نواحـي شرق «سـامراء» يسـتعد للقائنـا، فـإن ذهبنـا إلى قصورنـا وتركنـا الجيـش انفلتـت قبضتنـا مـن عليـه ولاسـتطاع «الموفـق» أن يسـتميل قادتـه ورجالـه... فالأصلـح لنـا أن نتحـرك مُبـاشرة جهـة الـشرق حتـى نحتفـظ بوحدتنـا ونلقـاه عـلى قـوة.

لم أملـك سـيطرة عـلى حالـة الحنـق التـي انتابتنـي، ولم اسـتطع دفعـاً للإحبـاط المُنغـرز في أنحـائي، قبلـت مـا يقـول وانصرفـت مـن أمامـه أجـر أذيـال الخيبـة. فقـد كان مـن المرتقـب أن أكـون في حـضرة «بـشرى» وعطرهـا وجسـدها بعـد سـاعات، أختليـت بنفـسي وأفرغـت شـهوتي فـزادني مـا فعلـت شـهوة ورغبـة لا تنطفـئ.

تحركـت مـع «الموفـق» والجيـش مـن خلفنـا وحاصرنـا «المعتمـد» لأيـامٍ حتـى توسـط بينـه وبـين أخيـه العقـلاء، فقبـل الأخويـن الوسـاطة عـلى أن

يقر «المعتمد» الوزير المخلوع على منصبه، وعندما جلس «المعتمد» مع «الموفق» تعاتبا فقال «الموفق»:

- وعدتني فأخلفت.. عاهدتني من قبل أن تترك لي شئون الحكم والتعيين والعزل فنكثت، وخنتني وأنا أسير بنفسي كي ألقى أعدائك وأنت ها هنا جالس مُتنعم.

رد «المعتمد» في حرج وضيق:

- عفا الله عمّا سلف يا أخي.. ليكن بيننا عهد جديد لا أخالفه أنا ولا أنت، لن أتدخل ثانية فيما أوكلته إليك.

- فلتعلم... أنك إن فعلت... لن أقبل منك في المرة القادمة وساطة ولا صلح. ولسوف أحالف عليك غيرك ولن ترى مني إلا ما يسوءك.

أغلظ «الموفق» على أخيه الخليفة في الرد لكني شعرته راضياً عن نتيجة الوساطة وهو يعيد على مسامعي ما كان بينهما، ثم قال لي ضاحكاً:

- فلنكمن في سامراء بضعة أيام نسترح فيها من وعثاء السفر وتستمتع فيهم بلقاء نساءك قبل أن نتحرك إلى «الخبيث» مرة أخرى.

***

لم أطل في مكوثي معه وتوجهت مُباشرة تلقاء قصري. بمجرد أن دخلت طلبت من «شمس» أن تأتيني، لم يمضي كثير من الوقت حتى جاءتني وقد حملت عينيها جميع الأشواق الكامنة في الدنيا، احتضنتني وهوت على يدي وقدمي تُقبلهما في شوقٍ جارف. رفعتها إليَّ وتركتها تحتضني متحسسة جسدي القوي وكأنها تتأكد أن كل جزء منه لازال على وضعه كما تركته تماماً، حاولت أن أؤخر سؤالي لها عن «بشرى» قدر الإمكان فلم أستطع أن أكتم ذلك غير دقائق، فردت في حسرة:

- قـد جهـزت لـك العقـار الـذي طلبـت، وهـي الآن في جناحهـا الـذي خصصتـه لهـا.

كانت الحسرة بادية على وجهها وهي تجيب، فسألتها حائراً:

- هل ترينني وسيماً يا «شمس»؟

- ردت في سرعة:

- بـل أنـت أوسـم أهـل الأرض.. ومـا تعلقـك بهـا ورفضهـا لـك إلا طلسـم سـحري سـوف أخـوض بحـار العـالم جميعهـا لأكـسره، ولسـوف تشـفى مـن لعنتهـا حتـى حـين.

لم أعبأ بمـا تقـول، فـما أظننـي شـافياً مـن حبهـا أبـداً مـا دمـت حيـاً، كنـت أطلـب مـن «شـمس» أن تُغيـب «بـشرى» عـن الوعـي... كي لا ألقاهـا واعيـة أاتـألم مـن رفضهـا. أمـا الألم الـذي أخافـه فقـد أصيبـت بـه «شـمس».. فباتـت كظيمـة عاجـزة وهـي مُنصرمـة لتعـد العـدة للقـائي بامـرأة أخـرى.

دخلـت إلى جنـاح «بُـشرى»، فوجدتهـا مُسـجاة عـلى فراشـها، كانـت تبـدو أنحـف مـما تركتهـا فأقبلـت عليهـا أتلمـس جسـدها في إجـلال ورهبـة وكأني كاهـن يتنسـك في معبـده.

أنا بن طولون

265هـ

بعد أن أنجاني الله من مكر «الموفق» وقد رد جيشه خائباً وفيت بنذري إلى الله وبنيت جامع عظيم... أسميته على اسمي «جامع أحمد بن طولون»[32]. بنيته فوق تلك الربوة الصخرية على جبل «يشكر» على مساحة عظيمة تقدر بحوالي ست أفدنة ونصف الفدان، وكلفني بناءه مئة ألف دينار.

وفي إحدى الليالي، بعد انتهائي من بناء الجامع رأيت رؤية مُحيرة... رأيت وكأن الله تجلى إلى القصور حول الجامع ولم يتجلَ إلى الجامع الذي بنيته، فجزعت وسألت المُعبرين فقالوا «يُخرب ما حوله ويبقى قائماً وحده». ظننتهم يُرضونني بالقول فاستزدت منهم فقالوا «ألم ترى أن الله عندما تجلى للجبل جعله دكاً» فعرفت صدقهم وتفاءلت بالرؤية.

***

كنت أتابع عن كثبٍ ما يحدث بسامراء مع الخليفة العباسي وأخيه. عرفت أن «موسى بن بغي» الذي كلفه «الموفق» بغزو بلادنا قد توفى منذ

32) اسم القائد الذي ارسله «الموفق» «بن ليثويه» وكان عامل له على مدينة تسمى «جنبلاء».

أشهر مضت وهو على مشارف «بغداد». قد انتقم منه المنتقم الجبار بعد أن رد كيده إلى نحره فقبضه إليه لا سامحه الله. ورغم أن «موسى» كان ظهيراً قوياً للـ «موفق» فلم يفت ذلك في عضد الأخير، بل استمر في تحريك جيوشه لمواجهة الزنج في مواقع مختلفة. وكان هذا العام عام حظ له، فقد نشبت معركة بين أحد قواده و«سليمان» أحد أشهر قادة صاحب الزنج، واستطاع جيش «الموفق» الانتصار على جيش صاحب الزنج فقتل منهم خلقاً كثيراً وأسر منهم سبعة وأربعين أسيراً وحرق مراكب كثيرة وغنم أموال جزيلة.

ثم أرسل «الموفق» قائد آخر[33] ليواقع «بن أبان» وهو قائد شهير آخر لصاحب الزنج، فانتصر جند «الموفق» على جند صاحب الزنج في تلك الموقعة التي عرفها الناس باسم «باب كورك».

ولحسن حظ «الموفق» وأخيه «المعتمد» فقد مات في هذا العام «يعقوب الصفار» عدوهم اللدود، فقد كان يعاني من القولنج. وقد أمره الأطباء بالاحتقان بالدواء فلم يفعل واختار الموت، رحمه الله وسامحه... كان من أشد الأعداء ضراوة على الخلافة العباسية، وكان الناس يسمونه «السندان» لثباته في المعارك.

لم يحدث في هذا العام ما يسوء «الموفق» اللهم إلا نجاح الزنج في دخول مدينة «النعمانية» وقد تناقل الناس أنهم أحرقوا سوقها وأكثر منازل أهلها وقتلوا وسَبوا. لكن في الجملة كان العام عام حظ على «الموفق» وأخيه «المعتمد».

صراحة كنت أتمنى للـ «موفق» الشر. خاصة بعد حملته الأخيرة التي حركها ضدي تحت لواء الهالك «موسى بن بغي»، فكان كل نصر للزنج يُعَدُ نصر لي. لو أني أملك مد صاحب الزنج بالسلاح والعتاد لفعلت، وأياً كانت

33) أسم هذا القائد هو «تكين البلخي»

الاوضـاع في العـراق... فعـليَّ الآن أن أنتبـه إلى مُلـكي في مـصر وأدعـم ركائـزه حتـى لا تهتـز الأرض مـن تحتـي، عـليَّ أن اتحـرك أنـا الآخـر لحصـار أحـد عـمال «الموفـق»[34] في أنطاكيـة.

دخـل عـليَّ وزيـري ومستشـاري في قـصري بالقطائـع وكنت قد اسـتدعيته. انحنـى في سرعـة ثـم جلـس عـلى يسـاري، جـال بعينيـه في المجالـس مـن حـولي فعـرف أكـثر رجـال الدولـة الحاضرين.

- أهـلاً أيهـا الوزيـر... قـد اسـتدعيتك اليـوم كي أبلغـك رسـمياً أني اسـتخلفت ابنـي «العبـاس» عـلى مـصر. حيـث أنـا قائـم لملاقـاة أحـد عـمال «الموفـق» في «أنطاكيـه» وقـد اسـتدعيت كبـار الدولـة لأشـهدهم عـلى اسـتخلاف «العبـاس» وأريـد منـك أن تعاونـه.

- سمعاً وطاعة يا مولاي.

قالهـا الوزيـر مومئـاً برأسـه مائـلاً بجزعـه إلى الأمـام احترامـاً وهـو جالـس في مكانـه.

- سـيكون جميـع رجـال الدولـة في عونـك وقـد حسـمت لـك جميـع الأمـور.. فقـط عليـك اتبـاع مـا أوصيتـك بـه مـن تعليـمات، ولسـوف يعينـك الأمـير «لؤلـؤ» في أي شـان أردت.

أشرت لجميـع مـن حـولي بالانـصراف، إلا أولئـك المسـئولين عـن تجهيـز العـدة للتحـرك إلى «أنطاكيـة»، ولم ألبـث غـير قليـل حتـى تحركـت بالفعـل وأثنـاء حصـاري للمدينـة بلغتنـي الأخبـار المُفجعـة...

فقـد أرسـل «لؤلـؤ» إليَّ يُخـبرني أن ابنـي «العبـاس» قـد ثـار ضـدي! وأنـه اسـتولى عـلى كل الأمـوال ببيـت مـال المسـلمين واسـتولى عـلى الآلات والمعـدات

34) يقصـد «سـيما الطويـل» وهـو الـذي قـال فيـه البختـري: فـردت إلى سـيما الطويـل أمورنـا. وسـيما الرضـا في كل أمـر يحاولـه.

الحربية التي تركتها لحماية مصر واتجه بكل ذاك إلى برقة[35].. اختلط عليَّ الأمر وتكدرت وبت عاجزاً عن التفكير، ها أنا ذا أحاول أن أؤمن أبنائي وأخوض في سبيلهم أهوالاً وحروباً حتى أترك لهم دولة آمنة مستقرة مترامية الأطراف... وهم يطعنونني في ظهري، أنا أمد إليهم يدي بالخير وهم يقطعون تلك اليد بسيف بتار.

قضيت في خيمتي ليلة سوداء أشعر بالعجز وانعدام الحيلة ولم تذق عيني اليوم حتى صباح اليوم التالي.. في ساعات الصباح الأولى أخيراً زُف إليَّ خبر سعيد، فقد مات عامل «الموفق» في أنطاكية، يقولون أن هناك قبائل كثيرة كانت كارهة له داخل المدينة، ولما علموا بحصاري إياه قامت امرأة من إحدى تلك القبائل برميه بحجر ضخم من شاهق، فوقع الحجر على رأسه وخر صريعاً.. وقتها استعدت الثقة في نفسي، وقررت التعجيل بالهجوم على المدينة، وعندما لاحت ليَّ آيات النصر. قررت أن أرسل نصف جيشي ليلاقي جيش ابني المارق في «برقة»، وطلبت منهم أن يأتوني بابني حياً بغير أن يمسوه بسوءٍ، وتحرك الجيش إلى «برقة» بالتزامن مع انتصاري ودخولي إلى «أنطاكية» فلبثت فيها أيام أعيد الأمور لنصابها ثم تحركت إلى مصر. وبينما أنا في الطريق إليها جائتني رسالة مُبشرة من جيشي الذي أرسلته إلى برقة، فقد قبضوا على الوزير الذي طاوع «العباس» وجميع الخونة الذين صاحبوه إلى برقة. وأنهم استطاعوا استرجاع المُعدات الحربية التي تم الاستيلاء عليها والأموال التي نُهبت من بيت مال المسلمين.

حششت الخُطى إلى مصر وأنا أتصور لقائي مع «العباس»، فكرت أن أقتله جزاء ما اقترف... لكن سرعان ما تراجعت عن تلك الفكرة، فأنى لي أن أقتل أحد أبنائي، ولكني لا بد أن أؤدبه ولسوف يذوق وبال أمره.. ما أن وصلت إلى «القطائع» حتى أمرت بابني وقواده ليمثلوا بين يدي. كانوا

35) الجزء الشرقي من ليبيا الحالية.

جميعاً مُقرنين في الأصفاد في سلسلة حديدية واحدة طويلة، نظرت إليه متشفياً وهو يقف ذليلاً في انتظار حكمي فيه، كان رجالي قد استجوبوا القادة الثائرين مع ابني، وعرفت أنهم من حرضوه ضدي فقالوا له:

- أنت ابن ذكر للسلطان من بين سبعة عشر ابناً فأنى يكون لك الملك إلا بالانقلاب على أبيك.

كنت قد قررت العقوبة التي سوف تنزل بهم خلال رحلة عودتي إلى مصر. ودخل الجلادون، يحمل كل واحدٍ منهم سيفاً ضخماً بتاراً، قصدت أن تكون هيئة السيوف مرعبة، وبإيماءة مني انقض الجلادون على الخونة ممن أعانوا «العباس» ففصلوا الرؤوس عن الأجساد. وكان «العباس» ينظر إلى الأجساد منزوعة الرأس مُرتعباً وهو يشهد سقوط كل واحد منهم جواره، ثم جُمعت الرؤوس ووضعت أمامه... كانت دماءهم قد تطايرت ليتلوث بها وجهه وملابسه فبكى من هول ما رأى.

أخيراً وقفت لأتكلم:

- كان الأفضل أن تلقي بنفسك بين يدي وتسأل الصفح عنك وعنهم، كان ذلك سيكون أعلى لمثلك.

ارتفع صوته بالنشيج، فتذكرته طفلاً يبكي لشيء مُنع عنه فرققت لحاله لكني قررت أن أكمل ما انتويته.. أمرت به فضرب مائة مقرعة وكادت دموعي أن تجري على خدي رقة لحاله، وعندما انتهى الضرب أمرت باعتقاله.

***

اسمي بن أبان

266هـ

كانت هزيمتنا قاسية في «باب كورك»، حتى اضطررت إلى الفرار ومن معي من الرجال إلى منطقة تسمى «قنطرة فارس» فاختبأنا فيها غير مُتحصنين، الأحوال كانت شديدة القسوة، فقد كان الجو قائظ والمؤن قليلة والجنود أثقلتها الجراح، فكان يموت أحدهم كل بضعة ساعات، كان «جعفرويه» ماكث بجانبي أسقيه وأطعمه قبلي وقبل الجميع... كان حلقي شديد الجفاف أشعر بدوار وضعني في حالة تشبه الحمى، تحدثت إلى «جعفرويـة» بغير أن أنظر إليه:

- فلتقم يا بُني إلى عمك «أوس»... وأخبره أني أريده في شأن هام.

استجاب الغلام ولم يبطئ، فما هي إلا دقائق قليلة حتى حضر «أوس».. اعتدلت في مجلسي وأحسنت إسناد ظهري على التبة وقلت:

- ما رأيك يا «أوس» فيما نحن فيه؟ إن مكثنا هنا أيام آخر لسوف يعرف جند «الموفق» مكاننا ولن يكون بنا طاقة لامتشاق الحسام.

لم يرد عليَّ فأكملت بأنفاس قد غلب عليها التعب:

- إن لقانا جند الخلافة على حالنا هذا، فلسوف ينالنا منهم هزيمة منكرة ومذبحة عظيمة.

رد بنفاذ صبر:

- إذاً فلنضمد جراحنا في سرعة. ولنحث الخطى نحو أقرب مدينة عامرة نتحصن بها ونتحصل على المؤن اللازمة حتى نتعافى ونلقاهم بأجساد طازجة.

- نعم القول قولك... فلتتفقد الجيش وتنزل على أحوال الرجال وتضرب لنا مدة نتحرك خلالها من مقامنا هذا، ولتكن تلك المدة قصيرة بقدر الإمكان.

- قد تفقدت أحوال الرجال ويمكننا التحرك بعد يوم ونصف اليوم على أحسن تقدير، لكن هناك أمراً يجب أن تكون على دراية به.

اعتدلت في مجلسي أكثر مُتأهباً لما سيقول، فقد عرفت من ملامح وجهه السوء فأكمل:

- الفتى الرومي الذي يَعدُ لنا الطعام... لم يعد له أثر بين الرجال منذ ساعات الصباح الأولى، يقول نفر من الرجال أنهم شاهدوه بعدته كاملة يتسلل ليلاً جهة العباسيين.

شعرت بالقلق مما يقول، فنحن في غاية القرب من جند الخلافة وقائدهم «تكين البخاري»، وما يسترنا عنهم غير اختبائنا وراء تلك التباب.. ولئن عرفوا مكاننا فلن يألوا جهداً لأن يقضوا علينا ونحن مُثخنين بالجراح.. حاولت أن أبدي تماسكاً أمام «أوس» الذي بدا شجاعاً ناقماً غير عابئ فقلت:

- وهذا أدعى بأن نسرع التحرك، إذ من الجائز جداً أن يكون هذا الرومي قد اتجه إلى «تكين» وأنه سوف يخبره بمخبأنا كي يكسب تعاطفهم.

أومأ «أوس» برأسه بغير أن يبدي رأياً وقد بانت على وجهه معالم الجدية ثم أولاني ظهره وانصرف. تحاملت على نفسي وتجولت بين العسكر أحث الرجال على التحرك وأنظم الصفوف وأتابع مداواة الجرحى وأقف على من لا أمل في شفائهم.. وبينما نحن على هذا الحال جاءنا بشير السوء يخبرنا أن جند «تكين» في طريقهم إلينا وأنهم يحاصرون التلال التي تسترنا، نظرت حولي أُقَيم الموقف في سرعة.. فلمحت طريقاً مُعَبَّداً يمكننا الفرار من خلاله، فأمرت من صَح من الرجال أن يحملوا ما يستطيعون حمله ويهربون من هذا الطريق.

هربنا بصعوبة من «تكين»... نجا منا من نجا وهلك منا من هلك.. ووصلنا أخيراً إلى «الأهواز» لننضم إلى جيشنا الرابض هناك، أما «تكين» فقد آيس منها لما وصلنا فرجع ليتحصن هو الآخر بـ «تستر». وعندما تم لنا الاحتماء بأسوار المدينة شرعت في التتميم على الرجال لأتبين الخسائر وأقف على من فُقد، كان «أوس» يسير بجواري في جولتي جامد الوجه عابسا لا تبدو عليه إمارات التأثر، سألته عن «جعفراوية» فرد في لا مبالاة:

- غير موجود بين الرجال، ربما أُسر أو قُتل.

كدت أصرخ من شدة الفاجعة. وانتابني غيظ مفاجئ من هذا الوغد الجامد، فكدت استل سيفي لأغمده في صدره، ليصمت عن المصيبة التي يلقيها عليَّ بغير أن يطرف له جفن.. اكتفيت بأن دفعته وسرت أهيم بين الرجال أبحث عن «جعفرويه» وأنادي اسمه كالمجاذيب بغير رد. سالت أدمعي بغير أن أشعر، فما شعرت بمثل تلك المرارة والخسارة أبداً ما حييت.

أخذت وصية أبيه التي أوصى بها قبيل استشهاده تدوي في عقلي وتسير في دمي. فلم تكن له حاجة غير أن أرعى عنه ابنه «جعفروية» فضممته

إلى كنفي وكان لي بمثابة الإبن. لما آيست أن أجده اتجهت إلى أطراف المدينة لأنفرد بأحزاني. بعد ساعاتٍ تمالكت فيها نفسي تحركت إلى قلب المدينة مرة أخرى وقد عزمت على ما أريد...

أرسلت رسالة إلى «تكين» أسأله فيها عن «جعفروية»... مر يومٍ ونصف اليوم حتى جاءني الرد الذي أثلج صدري فقد أجابني «تكين» أن «جعفروية» عنده وأنه سليم معافى، فكتبت إليه في سرعة أطلب منه الكف عن قتل الغلام، فجاءني الرد منه أن نعم وأنه محبوس عنده.

مرت أيام وأنا أفاوض «تكين» على «جعفروية» حتى جائتني الأخبار الشؤم من معسكره.. فقد عرف «الموفق» بأمر الرسائل المتبادلة بيننا واتهم «تكين» أنه متواطئ معنا وقرر عزله عن منصبه وقرر أن يولي آخر.. استبد بي القلق، فقد كنت قادراً على التفاوض مع «تكين» وقد أفشل في التفاوض مع غيره، فما هي إلا أيام حتى ولى «الموفق» شخص يدعى «مطر بن جامع». وأتتني الأخبار أن «مطر» قد أخرج جماعة من أسرنا في ميدان تستر وأحنى رؤوسهم وضربها جميعاً وذلك حتى يُثبت للـ «موفق» أنه عامله الوفي وأنه غير «تكين» الذي قبل التفاوض مع الزنج.. امتلأ قلبي قلقاً على «جعفروية» وكنت أتعلق بأهداب الأمل. وأنه لا بد قد استثناه «مطر» من القتل لحداثة سنه أو لأهميته في التفاوض معي. علمت بأمر قتل الأسرى في الصباح، وما هي إلا ساعات أخرى مرت من هذا اليوم الشؤم حتى آتاني الخبر اليقين...

قد قتل «مطر» «جعفراوية»...

قتل «مطر» شفيعه الوحيد إلى الرحمة...

***

في الأيام التالية كنت أسابق الزمن، أريد تجهيز الجيش في أسرع وقت. طبيعتي كانت تأبى الانتقام... ولكنها كذا لا ترضى الظلم، كان الغلام صغيراً أن يُقتل، لم يكن جندياً حتى يحقُّ عليه الموت.

أما أنا فأصابني شيء من التصلب والجمود الذي أصاب «أوس» ولكن غضبي كان بادياً.. قد نُقش اسم «مطر بن جامع» في قلبي ولن يمحَ إلا برؤية رأسه مفصولة عن جسده. أخيراً تجهز الجمع للخروج، وراسلت «علي» استأذنه في التحرك إلى «تستر» ولم أنتظر الرد وإن أيقنت من موافقته. كان معي أخي[36] واتفقت معه على الخطة فقسمت الجيش إلى أثلاث، فأعطيته ثلث الجيش واحتفظت بالثلثين، واتفقت معه أن يتحرك جهة المدخل الرئيسي لمدينة «تستر»... على أن أفاجئهم أنا من جانب المدينة الشرقي. فقد أعلمني رجالي أن هناك ثغرة هناك يمكن مفاجئة «مطر» منها.

تحرك «الخليل» على نحو ما اتفقنا وتمركز بجيشه أمام بوابة المدينة.. أما أنا فتحركت من وراء التلال مبتعداً عن المدينة قدر الإمكان حتى كمنت على الجانب الشرقي لتستر وانتظرت حتى يبادلني «الخليل» بالإشارة المتفق عليها.

مر اليوم الأول وشعرنا بصخب في المدينة. فبات من الواضح أن «مطر» يتجهز للقاء «الخليل»، وما أن انقضت الساعات الأولى من اليوم التالي حتى تحرك خارجاً من أبواب تستر لملاقاة جيش أخي.. كنت قد اتفقت معه على إشارة براية حمراء تكون من رجل فوق جبلٍ بيني وبينه، على أن يأمر الرجل برفع الراية فقط عندما يتأكد أن «مطر» قد خرج بأغلب قوته حيال أخي حتى نكون على يقين أن ظهره سوف يكون مكشوفاً.. وبالفعل ما هي إلا ساعاتٍ أُخر حتى رفرفت الراية فوق الجبل فتقدمت ورجالي وخربنا سور المدينة ودخلنا من حيث أردنا وابتلعنا المدينة في

36) اسمه «الخليل»

دقائق كابتلاع طفل جزل لقطعة من الحلوى. أرسلت الفرق إلى الأبراج الملتحمة بأسوار المدينة فقتلوا من كان فيها وقاموا مقامهم.

صعدت على أحد الأبراج أتابع ما يكون بين «مطر» وأخي. رأيت «مطر» يحاول التقدم، فبرز له رماة الأسهم من بين الشقوق يُمطرون رجاله بالنبلِ، ومع ذلك أوغل في التقدم، فأمرت الرجال من فوق الأبراج أن يرموا مؤخرة جيشه بالمجانيق والآلات العملاقة المُثبتة على الثغور والتي كانت لهم.

ارتعب جيش «مطر» وعرفوا وقوعهم بين شقي الرحى.. وفل ذلك من عزمهم، وعندما رأيت ذلك رفعت لأخي راية خضراء يعرف دلالتها، فانقض هو على جيش مطر من الأمام وانقضضت عليه أنا من الخلف ونلنا منهم مقتلة عظيمة.

كان الجميع على علم بتعليماتي الصريحة فيما خصَّ «مطر»... فانا أريده حياً، تقارعت السيوف قرابة الساعة حتى استسلم من بقى من جيشه وألقوا السيوف وجلسوا أرضاً وأيديهم فوق رؤوسهم، كان «مطر» بينهم... قيدناهم وقيدته بينهم، كنت أحاول أن أظهر عدم الاكتراث بـ «مطر» حتى نصل إلى المدينة، لكني لم أكن لأتمالك نفسي من أن أنظر إليه متشفياً بين الحين والآخر.. كنت أنظر إليه وأنا أتصور نفسي وأنا أفعل به الأفاعيل، روح «جعفروية» كانت تصدرت المشهد وكأنه معي يرقب ما سيكون.

دخلنا المدينة وبمجرد دخولنا صففت الأسرى جميعهم فعفوت عن بعض صغار الجنود والعبيد المُرتزقة الذين تم استجلابهم للجيش وأبقيت القادة من أصحاب «الموفق» يتقدمهم «مطر».. وبدأت عمليات الإعدام، وطارت الرؤوس وبينما هي تتطاير كان «مطر» ينظر ساهماً ينتظر دوره غير مُبالٍ، قمت إليه بسيفي وانحنيت بجوار أذنه هامساً بصوت كالفحيح:

- ما كان لك أن تقتل «جعفروية» وقد علمت أني مولاه، ربما لو تركته حياً لكنت عفوت عنك اليوم.

رفع الرجل عينيه إليَّ في استهانة قائلاً:

- هـو حثالـة سـوداء ... مثلـك تمامـاً.. كيـف لإنسـان أن ينـدم عـلى قتـل صرصـور.

لم أمهلـه أكـثر... فهويـت بسـيفي عـلى قفـاه فانفصلـت رأسـه عن جسـده... بقـى جسـده ثابتـاً في وضـع الركـوع... وموضـع القطـع لازال يُصـدر دمـاً، دفعـت جسـده بقدمـي ليسـقط أرضـاً بجـوار رأسـه وتأملتـه للحظـة ثـم أنصرفـت ولا زالـت رؤوس القـادة تتطايـر.

هـدأت الأمـور في المدينـة.. أعلنـت عشـائرها دعمهـا التـام لثورتنـا. وصلنـي رد «عـلي» بشـأن الإذن بدخـول «تسـتر»، أبـدى قلقـاً وطلـب تأجيـل التحـرك إليهـا إلى حـين، حـاول أن يقنعنـي أن أمسـك عـن ذلـك لأننـي الآن غاضـب بسـبب موت «جعفرويـة».. طويـت رسـالته وأمـرت رجـالي أن يجمعـوا رؤوس القـادة ومـن بينهـا رأس «مطـر» وأن يتـم إرسـالها جميعـاً إليـه كبـشرى للنـصر... وحتـى يعرف حجـم النجـاح الـذي أجـراه اللـه عـلى أيدينـا ببركـة روح الصغـير «جعفرويـة».

عندمـا جـنَّ الليـل سـألت أهـل المدينـة عـن الموضـع الـذي دُفـن فيـه أسرانـا... عـن الموضـع الـذي دُفـن فيـه «جعفرويـة» وانطلقـت إليـه لا ألـوي حتـى وصلـت فجثـوت عـلى ركبتـي، وبـدأت الدمـوع تنهمـر مـن عينـي وجدتني أُحدثـه بصـوت خنقتـه الدمـوع:

- أسـف يـا بُنـي... أسـف يـا «جعفرويـة».. أسـف أني لم أنتبـه إليـك وقـت الفـرار ياحبيبـي، لكـن قاتلـك قـد نـال جـزاءه وفاقـاً، فهـو الآن جاثـم تحـت الأرض غـير بعيـدٍ عـن موضعـك، اغفـر لي يـا بُنـي سـهوي... اغفـر لي سـهوي وليسـامحني آبـاك حتـى ألقاكـما عـلى خـير.

لبثـت سـاعاتٍ بجـوار قـبره لا أدري عددهـا وقـد اسـتغرقني الحـزن، أتحسـس الـثرى وأشـمه حتـى غلبنـي النـوم فنمـت حيـث أنـا.

***

اسمي أدهم

266 هـ

كان «سُليمان» نموذجاً في كل شيء. لا يملك المرء إلا أن يُعجب بحنكته وذكائه وشجاعته مُنقطعة النظير.. عرفت أنه من الزنج الشورجية ممن كانوا يَكسحون الملح؛ هو صديق لقائد آخر اسمه «بن أبان» فَكُلاً منهما الآن قائد كبير من قواد «علي» بعد أن كانوا عبيدا مُستحقرين. الشيء الوحيد الذي يؤخذ على «سليمان» أنه شديد الحب لأهل بيته، وأنه لا يطيق أن يبتعد عنهم لمدد طويلة؛ فلا يكاد يمضي شهران حتى يرجع «سليمان» إلى المختارة لينعم بحضن زوجته ويُملي نظره بالنظر إلى أبنائه. ولولا خوفه على أهل بيته لكان اصطحبهم معهم في كل موقعة يتحرك إليها، لكنه كان يعلم أن المُختارة لهم أمن. وقد تسبب اشتياقه الدائم إلى أهله أن فُقدت واسط حينما كان هو في المُختارة.

ليتني مثله...

استبد بي الخيال فتخيلت نفسي في موضع «سليمان» و«بشرى» محفوظة في المختارة. وأنا أرجع إلى قصري وهي تنتظرني في الشُرفات، و«عمر» يجري نحوي ويحتضن أقدامي في شوق، فأرفعه إليَّ لأقبل وجناته الناعمة الدافئة

وأنا أنظر إلى أمه من طرفٍ خفي وقد استبد بي الشوق إليها، وهي تنظر إليَّ في أعجاب وافتتان وأنا احتضن ولدنا وهو يعبث في ملابسي العسكرية.. كنت مُستغرقاً في التخيل حتى افتر ثغري عن بسمة رضا وامتلأت روحي بسعادة زائفة خلقتها في عالم صنعه الأمل.

أفاقني من أحلام اليقظة أحد الرفقاء قائلاً:

- يبدو أن اليوم سيكون سعيداً ... فقليلاً ما أراك تبتسم.

أومأت له بلطف رغم انزعاجي منه أنه أفاقني من أحلامي العجائبية الجميلة، أردف الرجل قائلاً:

- هناك رجل قادم من سامراء يريد مقابلتك، يقول أنه حُمِلَ برسالة إليك.

بغتة صار قلبي يدق بعنف من وقع عبارته، فلا بد أنها أخبار من الأحباب في «سامراء»... هل تراها «بشرى» أم أن الشيخ «عمر» يريد أن يزف لي أخبار تخص «عمر» الصغير، لم أرد على الرجل ولكني فزعت من موضعي وقبضت على يده:

- هيا بنا إليه.

شعرت به تفاجأ من ردة فعلي... لم أعبأ له. كنت أفكر، كيف عرف الرسول أني في «واسط» تحديداً في جيش «سليمان»؟ قابلت الرسول ونظرت إليه، فإذا هو فتى داكن البشرة مثلنا، وكان شعر يديه وصدره مُنجرداً كالنساء. عندما تكلم وجدت صوته غريباً فشككت أنه خصيّ... أخذ يتمعن فيَّ وكأنه يريد أن يتأكد أنني المُراد، تصافحنا على عجلٍ وأنا الآخر أتفحصه... أريد أن أعرف كنه الأخبار التي يحملها، هل هي أخبار سعيدة أم هي أخبار مُفجعة حزينة؟ تخلصت من صاحبي كي أخلو بالرسول فلما صرنا وحدنا قلت بصبرٍ نافد:

- من أنت ومن أرسلك وكيف عرفت بمكاني؟

- أنا خادم في أحد قصور الأمراء المُقربين من الأمير «الموفق» اسمه «نصير».

شعرت وأن الأرض تميد بي من عجب ما أسمع...

«نصير» الذي حاول قتلي في بيت الشيخ «عمر».

«نصير» الذي سلبني حبيبتي وزوجتي مُغتصباً إياها بغير أي وجه حق.

«نصير» الذي حرمني ابني وحياتي.

لم يفطن الرسول للبراكين الثائرة داخل نفسي، الكامنة طوال سنوات طوال، فاستمر هو في إجابة أسئلتي قائلاً غير آبه أو غير واعٍ للهزة التي اجتاحتني:

- قد أرسلتني سيدتي إليك وبذلت لي أموال كثيرة ودبرت لي كي أهرب من القصر فقط حتى تصلك رسالتها، وبعد أن تقرأ ما فيها... فعليك بالرد حتى أرجع إليها ويطمئن قلبها.

قالها وابتسم وغمز بعينيه بغنجٍ. لم أتجاوب معه في الضحك، وأخذت أنظر إلى ملابسه بشغفٍ وكأني أريد تفتيشه واستخراج الرسالة من بين طياته.. أدرك هو ذلك وشرع يخرج كنزه المكنون، فلم أمهله وسألته:

- ما اسم سيدتك؟

أجاب هو ببساطة وعفوية كاد قلبي ينخلع معها...

- اسمها «بشرى»...

انتزعت الرسالة من يده، وجرت عيني على العبارات المسطورة فيها أحاول قراءة المكتوب دفعة واحدة. فوصلت إلى آخرها بغير أن أعي أولها ثم عدت وقرأت بتريث والرسول صامت جانبي منتشياً بنجاحه في توصيل رسالته وإتمام مهمته المقدسة.

حبيبي وزوجي أدهم:

اشتقت لك كثيراً.. لا تعلم كم استبدَّ بي الشوق وعصفت بي الأنواء وأنت عني بعيد، أِعلم يا حبيبي أني مُخلصة لك، لم يلج أحد محراب قلبي ونفسي إلاكَ.. كم من ليلة بت فيها دامعة أبكيك وأبكي تلك الأشهر الهانئة التي نعمنا فيها معاً، أذكر كل لحظة أمضيناها... حتى تلك الأوقات الصعبة التي كانت الشيخة تغلظ علينا فيها تبدو الآن كأسعد الأوقات، فقط لأنك كنت فيها جانبي وجواري، لم أشعر بالأمان إلا في كنفك ولم أشعر بالرضا إلا في حضنك.. ولا السعادة إلا في حضرتك.

«عمر» ابننا بخير صحبة الشيخ والشيخة وهما يعاملانه كحفيدٍ لهما، حتى الشيخة «مؤنسة» تغدق على «عمر» الصغير العطايا وتحيطه بصنوف العطايا والاهتمام والحب. يبدو أنها شعرت بوخز الضمير لما آل إليه مصيرنا... وودت لو كانت علينا أحن وأرق ونحن تحت يدها.

أعلم يا حبيبي أن «نصير» يحبسني في جناح من قصره.. إنه حاول استرضائي بكل الطرق فأبيت إلاكَ، ولما آيس مني هذا الزنيم، قرر أن ينتقم مني فيك وأن يقتلك، فأرسل نفر من الرجال إليك علني أميل إليه من بعدك. كدت أموت يا «أدهم» هذا اليوم.. أغمي علي وسرت أشد من شعري كالمجاذيب، ولم يهدأ لي بال حتى اطمأننت أنك أفلت من التدبير الغادر الذي أعده لك.

أريد أن أعترف لك اعترافاً يا حبيبي، وأرجو من الله أن تسامحني عليه وإن لم يحدث التفريط من جانبي، فقد حافظت على قلبي ونفسي خالصة لك، لكن «نصير» سقاني غير ذات مرة شراب منوم حتى يستطيع أن يأتيني على غفلة مني، وعندما علمت منه ذلك امتنعت عن الطعام والشراب، فكثرت المرات التي كان يغمى عليَّ فيها، ولشدة حقارة هذا

الشخص، فقد كان يأتيني وأنا مريضة متيبسة كعود قمح جاف، ومهما بلغ قدر تحوطي كان يدس لي شرابه في طعامي في أوقات لا علم لي بها، فكنت لا أراه لأسابيع متصلة ثم فجأة أفيق من نومي وقد غشاني.. كان اللئيم يتكتم أخبار وصوله من السفر حتى لا أتحوط له فأمتنع عن الطعام والشراب وأفسد عليه متعته فيَّ... سامحني يا حبيبي، فلم يكن الأمر بيدي، وما فعل فعلته إلا بعد أن آيس أن يحصل علي وأنا نابهة، فاغفر لي ولا تزهدني.

تداول أناس في حينا القديم، أنك انضممت إلى «علي» صاحب الزنج. وذاك أمر سعدت به وأبهجني، فقد بلغ الظالمون المدى فاستعبدونا وانتهكونا واستباحوا الأنفس والأعراض، فاعلم يا حبيبي أنك في جانب الحق، وأن الله مع الصابرين، لكن احذر يا حبيبي أن تصيبك طعنة غادرة أو سهم شاردة.. فأنفاسي متعلقة بأنفاسك وحياتي ترتبط بحياتك، فإن حدث لك سوء هلكت وإن أرجعك الله لي سعدت وهنئت، وأعلم يا حبيبي أن الأمل في لقائنا لم ينقطع من نفسي يوماً، والإيمان يملؤني أننا سوف نعيش مثل حياتنا الأولى.

أحبك ... أحبك ... أحبك.

أعدت قراءة الرسالة أكثر من مرة مُتفرساً فيها... أحاول أن أصل إلى ما خلف كل عبارة. ضممت الرسالة إلى صدري ولم أتحرج من الرسول الذي بقى مُبتسماً شاهداً على شغفي برسالتها، كنت أعلم أن «بشرى» لا تجيد الكتابة، لا بد ان أحد جواري أو خصيان القصر قد ساعدها في كتابتها. فرحت أن لـ «بشرى» أصدقاء في قصر الظالمين... وكيف لا وهي الملاك الرقيق الوديع الذي تميل القلوب إليه، هي الروح الصافية الشفافة التي تؤسر الجميع، أفقت من سحر رسالتها بعد حين فنظرت إلى الرسول:

- ما اسمك أيها الأخ الكريم.

- اسمي «عاهد»

تيممت باسمه وسألته عن أحوالها، انتابني القلق مما يقول... فقد كان حديثه عنها محزناً، فحكى لي كيف أنها تعاني من ظلم سيدها «نصير» وكيف تعاني أنها بعيدة عني وعن «عمر» الصغير.

رغم قلقي عليها فقد كنت سعيدا، فهي على الأقل حية تتنفس. وهي «ويالسعادتي» لاتزال تحبني. فضلتني على هذا السيد المغرور، أكرمت وفادة الرسول ومشيت معه حتى بيتي الذي اتخذته في «واسط», لاحظت أن خطواته كانت ثقيلة على الأرض على نحو غير مُعتاد، أكرمت وفادته وأجلسته معي كي أعد رسالتي التي سيحملها إلى الشمال، في صباح اليوم التالي سألته:

- كيف غبت عن القصر طوال تلك المدة التي بحثت فيها عني ولم يشعر بك «نصير»؟

ضحك «عاهد» حتى بدت نواجذه:

- بالطبع عرف أني هربت من سُلطانه، وعلى الأرجح أنه يظن أني التحقت بصاحب الزنج، ولئن برزت له مرة أخرى فلاقاني فلا بد أنه قاتلي، لكن صراحة قد أغدقت علي زوجتك العطاء، فصار لي من الأموال ما يكفيني لسنوات وسنوات.

تعجبت مما يقول فسألته:

- وكيف ترجع برسالتي مرة أخرى إليها؟!

- سوف أرجع إلى أنحاء سامراء وأنا الآخر لي أناس أثق في ولائهم لي في قصر الأمير. فلن أخض في المدينة حتى يأتيني مبعوث من القصر يستلم رسالتك ويرسلها إلى سيدتي «بشرى».

- ألـن يكـون في أمـر الرسـالة خطـر عـلى حياتهـا إن عرفهـا أحـد أعـين «نصـير»؟

- لا شيء خطـر عـلى حيـاة زوجتـك، فـ «نصـير» يعلـم أنهـا تحبـك ويعلـم أنهـا لـه كارهـة، ومـع ذلـك لا يقـوى عـلى إيذائهـا مـن شـدة حبـه لهـا، قـد تتطايـر الرقـاب مـن حولهـا لكـن هـي باقيـة.

اطمأننـت لمـا يقـول لكـن حزنـت مـن هـذا الظـالم الـذي تعلـق قلبـه بزوجتـي ونقمـت عليـه، وتذكـرت ظلمـه لنـا وأفاعيلـه التـي أفسـدت حياتنـا فنَمَـت داخـلي الرغبـة في الانتقـام، كنـت أعـرف أنـه يصاحـب «الموفـق» في حملاتـه ضدنـا، وتمنيـت يومـاً أن ألقـاه في ميـدان المعركـة فأزهـق روحـه بيـدي.

عندمـا جـن الليـل جافـاني النـوم، وسرت أفكر في «بـشرى» ورسـولها العجيب «عاهـد». هـو طيـب القلـب أمـين، فـكان مـن الممكـن أن يأخـذ جائزتـه التـي اسـتلمها مُقدمـاً ولا يكلـف نفسـه مشـقة البحـث عنـي وتوصيـل الرسـالة إليَّ.

هـو الآخـر أحـد ضحايـا العباسـيين... لم أسـأله لكـن يبـدو مـن هيئتـه أنـه خـصي، ورغـم أن النبـي (ص) حـرَّمَ المثلـة والإخصـاء فقـد تحايـل الظالمـون عـلى الـشرع حتـى يسـتخدموا الخصيـان، قـد قـرأت في كتـاب الحيـوان للـ «جاحـظ»[37] في فصـل بعنـوان الخـصي والخصيـان... فتـوى لفقهـاء السـوء يحرمـون فيهـا الإخصـاء ويبيحـون في الوقـت ذاتـه اسـتعمال الخصيـان إن تـمَّ اخصائهـم مـن غـير المسـلمين، فـكان اليهـود والنصـارى في جنـوب مـصر يقومـون بفعـل الإخصـاء ليتـم بيـع العبـد مخصيـاً لأسـياده المُسـلمين جاهـزاً... خـالي مـن الآثـام والذنـوب.

وكان أولئـك الذئـاب يختـارون ذبائحهـم مـن بـين صغـار السـن الذيـن تـتراوح أعمارهـم مـن بـين ثـلاث وتسـع سـنوات، ممـن تـأتي بهـم قوافـل الجلابـة

37) توفي الجاحظ في العام الأول لثورة الزنج سنة 255هـ.

مـن مختلـف البقـاع، وكانـت عمليـة الجـب تتـم في فصـل الخريـف لاعتبـارات طبيـة هـم عـلى درايـة بهـا، فكانـوا يقومـون بتقييـد الذبيحـة مـن أطرافـه الأربعـة بحبـال حتـى يتملكـوا منـه... ثـم يقومـون مـن بعدهـا بالبـتر، ولم يكـن يكتفـي السـفاحون ببـتر عضـو التذكـير وحـده، بـل يبـترون بالمـوس جميـع الأجـزاء البـارزة المرتبطـة بـه، ثـم يصبـون في الحـال عـلى مـكان البـتر الزيـت المغـلي، ويتبعونـه بإلقـاء مسـحوق الحنـاء، ويثبتـون أنبوبـاً في الجـزء الباقـي مـن مجـرى البـول، وبعـد الانتهـاء يتـم دفـن العبـد في الأرض إلى مـا فـوق بطنـه وبعـد أن يتـم تركـه عـلى هـذه الحالـة يومـاً أو يومـين، يتـم اسـتخراجه مـن الـتراب فيدهـن الجـرح بعجينـة مـن الطـين الإبليـز والزيـت ليكـون مـن بعدهـا صالحـاً للاسـتخدام.

بالطبـع لم يكـن الجميـع قـادراً عـلى تحمـل هـذه الآلام، فـكان ينفـق منهـم الكثـيرون في يـد جلاديهـم، ولم يكـن النخاسـون يعبـأون لذلـك، فقـد كان الثمـن الـذي يقبضونـه مـن الأسـياد المسـلمين مقابـل الخـصي الـذي نجـا، يُعـوض أثمـان مـن مـات منهـم. أعجـب كيـف اسـتطاع أدعيـاء الديـن هـؤلاء تزييفـه والتحايـل عليـه بهـذه المهـارة للوصـول إلى مآربهـم وإتيـان الـروادع التـي نهـى اللـه عنهـا، هـم كالشـياطين بـل هـم أضـل.

أزحـت عـن نفـسي تلـك الأفـكار الثقيلـة التـي أوغـرت صـدري حقـداً بغـير أن أقصـد. فحلـت أفـكار أخـرى ورديـة ناعمـة محلهـا، أتتنـي «بـشرى» وكأنهـا تناجينـي أن «دع عنـك ذلـك، فقـد تواصلنـا اليـوم مـن بعـد سـنوات كثـيرة مضـت»، فأخـذت أفكـر فيهـا وفي حالهـا... شـعرت بقلبـي خفيفـاً مـن فـرط السـعادة، فـ «بـشرى» لاتـزال تحبنـي و«عمـر» بخـير، لم ألبـث في ذلـك غـير قليـل حتـى انقضـت عـليَّ تلـك الأسـطر مـن الرسـالة التـي صارحتنـي فيهـا أن «نصـير» قـد نكحهـا، أخـذت أهـدأ نفـسي أن هـذا كان عـلى غـير إرادة منهـا... لكـن قلبـي لم يسـلم مـن الحـزن، لم أكـن ناقـماً عليهـا... أبـداً، فقـط كنـت

ناقماً من هذا المهين «نصير» ظل وجهه يطاردني طوال الليلة وهو يعتلي زوجتي غائظاً وهي تئن تحته متألمة.

استيقظت في اليوم التالي بمشاعر متضاربة بين سعادة وكرب.. بقدر ما سعدت برسالة «بشرى» وأنها تحفظ العهد، بقدر ما أثقلت عليَّ الرسالة نفسها... فقد كنت أستعجل الوقت لتحريرها، سرت أشتاق إلى ميادين القتال، فهي السبيل للقضاء على جند الخلافة والحقير «نصير»، فالقتال هو السبيل لاسترد زوجتي وابني مرة أخرى من براثن هذا الوغد. كنت على يقين من شيء واحد فقط... أن كل ضربة سيف يسددها ساعدي سوف تقربني من عائلتي خطوات، وكأن الله استمع أمنيتي واستجاب.

***

وصلنا تكليفاً مباشراً من «علي» أن نقوم بغزو «رامهرمز»، أخبرنا «سليمان» بذلك من بعد رجوعه من المختارة مُباشرة.

مضت أيام تجهزنا فيها ثم بدأنا التحرك، نزلت عن فرسي أحتضن «عاهد» وكأني أودع الكلمات الطيبة التي بثتها إليَّ «بشرى».

- أنا عاجز عن شكرك يا «عاهد»، أنت لا تعلم الأثر الذي لاقيته من تلك الرسالة.

ابتسم هو ابتسامة طيبة بغير أن يجيب، فأكملت:

- قد بثت في تلك الرسالة الحياة في أوصالي، وخلقت لي هدف جديد أقاتل لأجله، استحلفك بالله أن تكمل معروفك وتوصل رسالتي تلك إلى «بشرى».

أخرجت رسالتي إليها من طيات ثيابي، واستخرجت صرة من الدنانير كانت تمثل جميع الأموال التي اكتسبتها منذ انضمامي للزنج وقلت:

- هذه لك..

تراجع «عاهد» للخلف خطوة:

- لا حاجة لي بهذا فمولاتي قد أعطتني الكفاية.

- وأنا أيضاً أعطيك... ولو أملك أن أعطيك أضعاف هذا ما وفيت حقك وحق أمانتك. فلتنطلق في عناية الله وحفظه، آملاً من الله أن نلتقي بعد حين.

احتضنته مرة أخرى وربَّت على كتفه، ثم اعتليت جوادي بقفزة واحدة وحثثت السير لألحق بالركب الذي سبقني، وما ان ابتعدت عن الرجل خطوات، حتى وجدت نفسي أتلفت إليه مرة بعد مرة وجسده يصغر حتى اختفى تماماً.

***

أنا المعتمد

266 هـ

رميت الرسالة التي وصلتني في غضب وزعقت فيمن حولي...

- استولى «الخبيث» على «راهرمرز» وأهان «الموفق» ورجاله. عطل القائد المغوار سُلطاني واعداً إياي أن يأتيني برأس «الخبيث»، فإذا بالـ «خبيث» ينتصر عليه المرة تلو الأخرى ونحن نمني أنفسنا أن العاقبة ستكون لنا.. ما نهاية هذا التهاون!

شعرت أن مستشاري غير راضٍ عما أقول، الأمر الذي زاد من غضبتي، فسرت أسب وأشتم «الموفق» وعصابته مُحملاً إياه مسئولية فقدان المدينة.

- فلتأذن يا مولاي أن نتحدث عن الأمر بهدوء وحدنا.

لم يعطني المستشار فرصة للمراجعة، فأشار إلى كبار رجال الدولة بالانصراف، ولما خرج آخرهم، نظر إليَّ قائلاً:

- يا مولاي، فلتهدأ قليلاً... هذه الأمور الدقيقة لا تناقش على ملأ من الجميع، فقد يكون لل«موفق» رجال من الحضور فيخبرونه بما بدر منك.

تصاعد الدم في رأسي واجبته:

- أنـا الخليفـة ولا أهـاب أحـداً.. إنمـا تنازلـت عـن بعـض سـلطاني لهـذا الغـر كي يخلصني مـن ثـورة البرابـرة، لكنـه خفـق كـما يخفـق الجميـع.... تاللـه لأرسـلن إليـه مـن يخلعـه وأثبـت عـلى الجيـش مـن هـو أقـدر منـه.

- سـأتفق معـك فيـم تقـول.. فلتعـزل «الموفـق» ولتحـاول القبـض عليـه أيضـاً، فمـن يكـن لـك بعـده يواقـع «الخبيـث» نيابـة عنـك، حتـى وإن وجـدت مثلـه ومـا أنـت بفاعـل، هـل تأمـن ردة فعـل «الموفـق» ورجالـه، أنسـيت يـوم حاصرنـا شرق بغـداد وتصالحنـا معـه عـلى كراهـة منـا.

هدأت غضبتي قليلاً، لكني لم أملك كبح جماح المعاندة فقلت:

- لكنه خزانا وجعلنا أضحوكة أمام الجميع.

- مـن هـم الجميـع يـا مـولاي، الأيـام دول ولا تنـسى أن جميـع أعدائنـا قـد تحلقـوا حـول «الخبيـث»، وجـزء كبـير مـن زنـوج الجيـش قـد تمـردوا علينـا وانضمـوا إليـه. ورجالنـا يقاتلـون بـين الآجـام والمُسـتنقعات في أراضٍ لا خـبرة لهـم بهـا ومـن الإنصـاف ألا ننكـر مهـارة «الخبيـث» في إدارة دفـة الحـرب، فالاسـتهانة أول سـبيل الفشـل.

كنـت أعلـم في نفـسي صـدق مـا يقـول، فالتحـدي الـذي يواجهـه «الموفـق» صعـب، لكنـي كنـت ناقـماً عليـه أن جـردني مـن سـلطاني كشريطـة لخـوض تلـك الحـرب، جانـب كبـير منـي كان شـامتاً.

- ليـس هـذا وقـت الشـقاق يـا مـولاي، فلندعـم «الموفـق» حتـى إذا مـا انتـصر تكالبنـا عليـه وقيدنـا أوصالـه، لكـن ذلـك ليـس وقتـه الآن، فاليـوم علينـا أن نتحـد ضـد الخبيـث الـذي اسـتفحل شره.

رددت في حيرة:

- وما العمل الآن؟

- فلتدعم أخاك، وجدد ثقتك في شخصه وادعوه لبذل المزيد من الجهد من أجل القضاء على الخبيث وأعوانه.

عاد إليَّ الغضب فقلت:

- وكيف أمده بالدعم الذي يريد، أتريدني أن أفرغ خزائني على تلك الحرب التي وإن انتصر فيها سُيحسب النصر له ويكون له ما يستعلي به عليّ ولا يبقى لي وقتها من المال شيئاً أستطيع مواجهته به!

- ومن قال أننا سوف نبذل له المال ليتجهز من جديد.

ألجمتني الحيرة فأكمل مبتسماً:

- قد أضرت ثورة الزنج بالتجار في البصرة ضرراً شديداً، فتعطلت حركة الموانئ وكسدت التجارة، ولا تنسى ما فعله «الخبيث» معهم في بداية تمرد، وكيف شرد بهم، فلتطلب منهم المدد لمواجهة الزنج وإعادة النظام إلى البصرة، وأنهم حتماً قابلون.

استحسنت ما يقول، وسرت أستوضحه ليبين معالم فكرته وتحديد أسماء التجار الموثرين الذين يمكن الارتكان إليهم لإعادة تجهيز الجيش ضد الزنج وفي النهاية أضاف فاخر:

- هناك جانب كبير من الناس استمالهم «الخبيث» إليه وقد أقنعهم بعدالة قضيته واننا نخالف صريح الدين بشكلٍ أو بآخر، فعلينا أن نستخدم المنابر حتى نهجوه ونبين سوء مقصده، بل وكفره، فلنقل أنه قد ادعى النبوة، والدليل على ذلك إدعائه الرؤى واستحداثه أنه أحكام جديدة، فهو يحرم ما أحل الله عندما يُعصي علينا العبيد، فما نهى الله أبداً عن اتخاذ العبيد.

سكت لوهلة ثم أكمل:

- وقد استباح دماء المسلمين وغدر بهم، ونكح من بعد ذلك نسائهم، ويمكن أن نصوره ورجاله للعامة أنهم كوحوش الفلاء، فهم يأكلون لحوم الآدميين، ويحرقون الزرع ويهلكون النسل ويشربون الخمر ويؤتون الفواحش، ومن اليوم هو ليس له كُنية غير «الخبيث».

- أنت داهية أيها المستشار، لكن كل ذاك يصب في مصلحة «الموفق».

- مصلحتكما الآن واحدة يا مولاي، فلتساعده الآن... كي تقضيا على عدوكما، وبعد الانتهاء من «الخبيث» يكون لنا معه أمر.

رضيت بتدبيره وقررت أن أنفذ وصيته تفصيلاً.. اجتمعت مع أئمة الجوامع في بغداد، وأوعذت إليهم ما يقولون في شأن «الخبيث» وتمرد البرابرة. أمرتهم أن ينادوا في الناس بضرورة الانضمام إلى الجيش ومساعدة المقاتلين، وأن يتبرعوا لتجهيز الجيش بجميع ما يملكون، وأفهمتهم أن يخوفوا الناس من الزنج، وإنهم إن قدروا عليهم سيقتلونهم وأبنائهم وسينكحون نسائهم ولن يكون لهم من دونهم ساتر ولا وازع.

في الأيام التالية تجولت متخفياً في أرجاء المدينة أرقب الحرب النفسية ضد الزنج والتي خطط لها مستشاري، فقد صار أئمة المساجد ليل نهار يحظرون الناس من الزنج وخطر الزنج وكيف بلغ «الخبيث» في كفره المدى، كان الأئمة يعيدون ما يقولون ليل نهار بعد كل صلاة يجتمع الناس حولهم فيسمعون، وأيام الجُمع لا وصية لهم إلا توحيد الصف ضد الزنج وخطر الزنج، وشعرت أن الناس في الأسواق يستجيبون، فكرهوا الزنج وأيقنوا أن «الخبيث» زنديق، وأن أتباعه كفرة ملاعين وأصبح أحدهم يحض الآخر على أن مقاومة أولئك فرض عين على كل منهم، وأصبح ذلك كله شغلهم الشاغل.

***

كنت قد راسلت «الموفق» قبل أيام، أشد من عضده وأحضه على الجلد في القتال، وأرسلت إليه بعض الدعم ووعدته بالمزيد، وأجابني أنه ممتن لتفهمي وأنه سيبذل قصارى جهده حتى يقضي على تلك الفتنة المُستعرة في الجنوب، شعرت هذه المرة أن «الموفق» قد شحذ جميع قوته لمواجهة الزنج، فقد وافق على انضمام ابنه «العباس» إلى الحرب... بل وأمَّره على الجيش الجديد الذي تم إعداده، وبات «الموفق» وابنه يتجهزان على مدار أسابيع ويأتيهم المدد عن طريق التجار أصحاب المصالح ومن أموال صدقات المسلمين الذين استجابوا لأئمة المنابر وساعدته أنا أيضاً بجزء من أموالي.. وإن كنت أدخرت الكثير لأواجهه بها بعد أن ينتهي من الزنج، وما هي إلا أيامٍ آخر حتى كان «العباس» متجهزاً على رأس جيش عظيم قوامه عشرة آلاف فارس وراجل في أحسن هيئة وأكمل استعداد لقتال الزنج، عزم أخي أن يتحرك جهة واسط فأرسل لي يستأذنني فأذنت له على أن أودعه قبيل قيامه، فلما رأيته ضممته بين ذراعي وكان ابنه «أبا العباس» يقف على خطوات منه، فدعوته فاقترب فضممته هو الآخر وأوصيته بالحرص ودعوت لهما بالتوفيق والسداد، ثم انتحيت به جانباً وقلت:

- ألا تتفق معي أن ابنك «العباس» لا زال صغيراً أن يتأمر على جيش بمثل هذا الحجم؟

نظر لي «الموفق» ناقماً ثم قال:

- أنا أعلم بمن وليت، وإن كنت تخاف على جيشك، فأنا أخوف منك على أبني ونفسي، فلا داعي أن تفت في عضدي وأنا وابني لك منهم رجاء.

قالها وانطلق إلى فرسه يركبه بغير أن يعطيني فرصة للرد. حاولت أن استرضيه قبل انطلاقه، فرد عليَّ بإيماءة متكبرة وانطلق ومن خلفه الجيش الذي أعددناه، كانت تتنازعني أحاسيس مختلفة، فقد كنت أغار

مـن «الموفـق» وابنـه أنهـما يملـكان شـجاعة مواجهـة الزنـج مُغامريـن بحياتهـما، وأنهــما إن تــم لهــم النــصر فســوف يســتعلون بــه عــليَّ وســوف يســتعلي «العبـاس» عـلى ذريتـي مـن بعـدي، لـذا كنـت أتمنـى لهـم المـوت في المعركـة، لكـن مهـلاً فقـد جهزنـا ذاك الجيـش بعصـارة جهدنـا، فـإن هلـك... لـن نسـتطيع تجهيـز غـيره ولـو بعـد حـين، ابتعـد الجيـش مـن أمامـي وأنـا أقـف مُتأمـلاً لا أدري بمـا أدعـوا ربي، لكـن إن تـم لهـم النـصر وقتلـوا «الخبيـث» لأكيـدن لهـم ... وليكونا هما اللاحقين....

اسمي سليمان

محرم 267 هـ

لم تمضِ أيامٍ على عودتي من «المختارة» حتى تجدد الشوق داخلي إلى زوجتي وأطفالي، لم أظن يوماً أني سأتعلق بأحدٍ كل هذا التعلق.

سنوات طوال وأنا أكسح السباخ عن الأرض... سنوات من العذاب والشقاء لا يعلم عدتها إلا الله... كنت أتمنى فيها الموت وأشتهيه، وقتها لم يكن هناك فارق بين الموت والحياة، بل كان الموت أحب إلى قلبي حتى ارقد مُستكيناً في حفرة ظلماء لا يطالبني أحد فيها بعمل. لم أكن أواظب على الصلاة، لكني لم أفعل ما يستوجب غضب الله عليَّ، لذا كنت أتوقع أن يُنَعمْني الله في حياتي الآخرة، لم يكن لي وقتها شيء أخاف عليه، لكن منذ أن زوجني «علي» ورأيت ذريتي تزحف على وجه الأرض صرت أحرص على الحياة من أي وقتٍ مضى، أريد أن أحيا لهم وبهم، أريد أن أغير الواقع حتى يكون لهم غد أفضل.

نعم أحببت الحياة بعد أن ذقت من رغد العيش وصار لي حضن دافئ أوى إليه من شظف العيش وقسوة الحياة.. لكني كنت اعرف أن الحياة مُرتبطة بحد سيفي، فإن تركت مقبضه طالني الذل والأسر والموت،

لـذا لم أتـوانَ أن أكـون دائمـاً ضمـن صفـوف المقاتلـين الأولى، فـما حييـت إلا بعـد انضمامـي إلى «عـلي» وجيـش الزنـج. أتمنـى للقتـال أن ينتهـي ... ولا أملـك أن أتـولى عنـه، سـأظل أقاتـل حتـى تكـون كلمتنـا هـي العليـا ويـذوق الخليفـة وأعوانـه وبـال أمرهـم ويعترفـوا بالجرائـم التـي ارتكبوهـا في حقنـا نحـن الزنـج خاصـة... والعبيـد عامـة.

***

عرفـت اليـوم أن الخليفـة قـد جهـز جيـش أخيـه ليعيـد الكـرَّة علينـا، وأنـا اليـوم لـه بالمرصـاد، فالموفـق اليـوم قـد جاءنـا بجيـش كبيـر... قرابـة عـشرة آلاف مقاتـل. عرفـت أيضـاً أن الخليفـة قـد ألقـى بجميـع أثقالـه وأموالـه لتجهيـز هـذا الجيـش، فـإن هلكـت تلـك العصبـة لم يجـد الخليفـة مـن بعدهـا رهـطٍ يدافعون عنـه، يجـب أن أجـدَ في طلبهـم والقضـاء عليهـم عـسى أن أنعـم بصحبـة أسرتي بغـير مـا يكـدر الصفـو مـا بقـى لي مـن العمـر.. وقـد زاد مـن جـدي هـذه المـرة أن «الموفـق» قـد ولى عـلى هـذا الجيـش ابنـه الصغـير «العبـاس»، فكيـف لهـذا الفتـى الأغـر أن يقـود جيـش عرمـرم، عـسى أن يكـون اللـه قـد أعمـى أبصارهـم فضللهـم بهـذا المكـر السـيِّئ؛ عسـانا أن نهزمهـم ونردهـم مدحوريـن.

كان في جيـش «العبـاس» سريـة بحريـة بقيـادة رجـل اسـمه «نصـير».. عـرف أولئـك الملاعـين مهارتنـا في قتـال المـاء فأرسـلوا لنـا مـن يظنونـه بـه خبـيراً، فكـم مـن مـرة اسـتطعنا النيـل منهـم مُحاصريـن إياهـم مـن خـلال مجـاري الأنهـار المنتـشرة في أنحـاء الجنـوب، فطنـوا لذلـك الآن بعـد مـرور سـبع سـنوات!! لكـن لا بـأس. سـوف أقـدم إلى «الموفـق» رأس ابنـه هديـة بعـد انتهـاء هـذه المعركـة، فهـي فرصتنـا للقضـاء عليهـم للأبـد.

***

«أدهـم» أحـد رجـالي الثقـات المُخلصـين كان متوسـط الطـول مُعتـدل الجسـد مفتـول العضـلات ذقنـه مدببـة وفي عينيـه بريـق يـدل عـلى ذكاء كامـن. عندمـا عـرف «أدهـم» بأخبـار الحـرب رأيتـه مُتحمسـاً وقـد أظهـر اهتـمام اسـتثنائي بقائد السريـة البحريـة العبـاسي «نصـير» فأخـذ يسـأل عـن اسـمه بالكامـل فأجبتـه أني لا أعلـم عنـه غـير أن اسـمه «نصـير» وأن كنيتـه «أبي حمـزة» وأنـه خبـير في قتـال البحـر. سـألني عـن النواحـي التـي أتى منهـا... فبينـت لـه مـا أعلـم، عرفـت مـن إصراره في السـؤال عنـه أن بينهـما أمـر.. وتأكـد ظنـي عندمـا طلـب أن يكـون مـع السـميريات في الأنهـار للتصـدي للسريـة البحريـة فسـمحت لـه، فقـد كان حماسـه مُنقطـع النظـير ورأيتـه يتجهـز عـلى نحـو لم أعهـده منـه مـن قبـل.

تجهـزت أنـا الآخـر عـلى الوجـه الأكمـل. جمعـت جميـع مـا قـدرت عليـه مـن الرجـال والعتـاد، وأعلمـت «عـلي» بعزمـي عـلى التحـرك لمُلاقـاة جيـش بـن «الموفـق»، وبـدأت في التحـرك... فـكان أول جيـشي بالـ «صلـح» وآخـره بـ «واسـط».

كنت واثقاً من النصر لا أبالي...

أخـال أن الفـرس مـن تحتـي قـد استشـعر الثقـة داخـلي فـشرع يتبخـتر رغـم عظـم ثقـلي عليـه، وكأننـا قـد خرجنـا لرحلـة صيـد أو لنزهـة خلويـة لا حـرب فيهـا ولا دم. لم تمـض دقائـق أخـرى حتـى هـوى الفـرس مـن تحتـي فجـأة... وجـدت نفـسي وقـد سـقطت في حفـرة عميقـة ابتلعتنـي والفـرس بالكامـل... وقبـل أن أفيـق مـن المفاجـأة انغـرز وتـد ضخـم مشـحوذ في في رقبـة الفـرس وبـرز في وجهـي ليتوقـف قبـل اخـتراق رقبتـي بمسـافة زهيـدة.. صـدر عـن الفـرس خـوار عنيـف تـردد صـداه في الحفـرة الرطبـة الضيقـة واهتـز قليـلاً قبـل أن يلفـظ أنفاسـه الأخـيرة، حاولـت جاهـداً أن أخـرج مـن الحفـرة مُتعكـزاً عـلى جثـة الفـرس، كنـت أسـمع جلبـة عظيمـة في الأعـلى وكأن أمـر جلـل قـد حـدث.

أخيراً خرجت من الفخ المنصوب لأجد أن بضع رجال من جيشي قد سقطوا في مثل تلك الفخاخ المَنصوبة ما بين مُتَرجل وراكب. أخذت أصيح فيهم ليتوقف الجميع عن التقدم، لكن المزيد كان لايزال يقع في تلك الفخاخ المنصوبة.. وما أن هدأت حركة التقدم بعض الشيء سمعت أزيز الأسهم تخترق الهواء لتنفذ في أجساد الجنود!

وقفت ذاهلاً أرقب التخطيط المُحكم الذي حيك لنا، نظرت إلى الخلف أفكر في الانسحاب والتراجع فخفت أن تطالني أسهم جيش الخلافة فتنال المزيد من رجالي خاصة ونحن بعد في منتصف مرماها تماماً.. فقررت التقدم بغتة وقد تبدى المُترجلين من جيشهم ينتظرون لقاءنا مُتَحفزين بأسلحتهم يلوحون بها في السماء متوعدين، صحت بأعلى صوتي:

- إلى الأماااااااام.

استجاب الجمع من حولي فاندفعنا في سرعة خاطفة جهة المشاة من جيش الخلافة. كان بعضنا يسقط في مثل الفخاخ المنصوبة التي سقطت فيها منذ دقائق... لكن ذلك لم يمنعنا من التقدم خاصة وأن جند الخلافة كانوا يعدون أمامنا مُرتعدين.. سبقني حفنة من الرجال إلى القوم إثر شبابهم وحميتهم وتمهلت أنا أرقب نتائج تلك المطاردة...

فإذا بي أرى جند المشاة من العباسيين ينسحبون وقد برز من ورائهم جند آخرون يمسكون بكلتي اليدين حراب طويلة تتقدمهم بأمتار أربع ومن خلفهم وعلى مسافة متر واحد، صف آخر يمسك نفس الحراب وبزاوية أعلى قليلاً... وكذا الحال حتى أشارت الحراب إلى عنان السماء لتحمي جنودهم من أي قذائف قد تأتيهم من أعلى! التحمت أجساد الزنج وخيولهم بسنان الرماح المشحوذة وبقى جند العباسيين في الأرض مُمسكين بحرابهم حتى تلك التي تكسرت سنانها في قلوبنا.. كانت هناك

صعوبة شديدة في اختراق هذا الدغل من الرماح المصوَّبة نحونا... فقد كان امتداد النصل أمام من يمسكه عظيماً، وحتى وقتما تم اختراق الصف الأول يبقى الذي يليه والذي يليه!

وبينما نحن حائرون وأنا بين الرجال أحاول اختراق الدغل المميت فإذا بصفير السماء يدوي من جديد، فقد شرع رماة الأسهم في رمي قذائفهم علينا؛ بزوايا شبه قائمة لتنغرز في رقاب وصدور الرجال، بقينا دقائق على تلك الحالة وقد انسحب مِن حولي من انسحب.

دوى نفير سمعه الجميع.. انسحب على إثره حاملي الحراب إلى الخلف والأجناب ليبرز جند المشاة من جديد وهم يصرخون في حمية جنونية عنيفة وقد أثار ما نالنا من تقتيل حماستهم فشرعوا يحصدون رقاب الرجال ونحن بين فار ومدهوش.

***

اسمي عاصم

267 هـ

كنت أشعر بجفاف شديد في حلقي. أريد شربة ماء لتعيد المرونة إلى عروقي المُتيبسة فتُرطب الدم المتخثر داخلها. كنت أشعر بصداع شديد تكاد رأسي تنفجر من شدة الألم. فتحت عيني على مهلٍ لأجد نفسي أمام تَنّور عظيم في غرفة ضيقة. كان يحيط بي رجال لا أعرف وجُههم كانوا ينظرون إليّ باهتمام شديد يتربصون فيقتي من نومتي. الجميع من حولي مُتعرقون من شدة الحرارة، بدت على أحدهم ملامح الزعامة... كان أسود اللون وفي بياض عينيه شيء من الصفار لا أعرف إن كان عن مرضٍ أم غضب. يدل حال جسده على صحة جيدة رغم نحافته النسبية، تلَفَّت من حولي لأتعرف على الباقين فأحسست بالقيود من حولي. فقد كبلوني في المقعد الذي أجلس عليه، أتممت النظر إليهم... فإذا هم زنجيان وعربي.

شعر جسدي بالخطر فإذا به يُفرز تلك المادة السحرية التي تهب نشاطاً زائداً واستثنائياً لجميع الحواس، رفعت رأسي المُثقلة وسألت من حولي:

- من أنتم؟

لم يجبني أحد.. لكن زعيمهم الرفيع التف من حولي وانحنى على أذني من جهة الخلف وهمس:

- أما أنت فاسمك «عاصم». الطبيب المعروف.. أما أنا فأعتقد أنك لن تحب التعرف علي.

تيقنت أن أولئك القوم يُضمرون لي شراً. وأنه قد تم خطفي في وقت ما سابق لأكون تحت رحمة هذا الرفيع، آخر ما أتذكره أني كنت رفقة هذا الرجل الذي تعرفت عليه منذ أسابيع مضت. هو تاجر على ما أذكر قد أظهر اهتماما بصنعتي في الطب فتوافقنا، يبدو أنه ناولني شراب مُخدر فهو آخر من بقيت معه قبل مقامي هذا، لكن لا بد الآن أني غير بعيد عن بغداد، فمفعول المنوم لم يكن ليدوم لأيام حتى يتم إخراجي منها، لكنه لا بد أنه كاف ليتم الانفراد بي في منأى عن الناس.

هل اجرب الصراخ لعل أحدهم يسمعني؟ أم سأبدو حينها ضعيفاً مذعوراً أمام الأسود الرفيع؟ اتخذت ما بين ذلك سبيلاً وزعقت فيمن حولي آملاً أن يسمعني من يستطيع إنقاذي:

- أنتم تؤذون أنفسكم بما تفعلون، سوف يفتقدني الجميع وسيبحثون عني لا محالة.

خرج صوتي ضعيفاً مشروخاً رغم اجتهادي أن يكون صوتي عالياً فتيقنت من بؤس حالي، أما الأسود الرفيع فقد فطن إلى محاولتي فقال ضاحكاً بهدوء:

- عزيزي فلتصرخ ما شئت، فلن يلبي صراخك أحد.

تأملت وجهه الحليق ونواجذه البارزة في صمت محاولا سبر غوره بغير فائدة. أكمل هو:

- أنا «أوس بن البحراني».

تبـاً لهـذه المـادة العجيبـة التـي تنتـشر في جسـدي رغـماً عنـي... تحـاول إثـارة دمـاء راكـدة في العـروق بغـير أمـل. ازداد جفـاف فمـي وأخـذت دقـات قلبـي في التسـارع مـرة أخـرى.. لا بـد أن الأسـود قـد فطـن لمـا اعـتراني. فقـد راقـه أني تذكـرت أبـاه. مضـت سـنوات عـلى مـا كان بينـي وبـين «البحـراني».. عـادت ذكـراه تفـرض نفسـها عـليّ في تلـك اللحظـات التعيسـة.

نعـم قـد أخـبرت «الموفـق» بمكانـه عنـد نهـر العبـاس.. فقـد كان أبـوه جريحـاً وحيـداً لا أمـل في نجاتـه، فـكان مـن الحكمـة أن أنجـو أنـا بنفـسي... بـل وكان عـليَّ أن أفعـل ذلـك، ألم يقـل فقهـاء الديـن أن الـضرورات تبيـح المحظـورات.. لـو كنـت ظللـت بجانبـه لهلكنـا معـاً... لكـن وحـدي كانـت لي فرصـة في النجـاة، فشـل الرفيـع أن يُشـعرني بالذنـب عـلى مـا اقترفتـه مـع أبيـه، حاولـت إقناعـه بغـير أمـل كبـير فقلـت:

- كنـا سـنهلك معـاً.. لـو كنـت في موضعـي لفعلـت مثـل مـا فعلـت، وقـد أسـفت للمُثلـة التـي لاقاهـا مـن بعـد.

لم يمهلنـي الفتـى لأسترسـل فقـد انقـض عـليَّ كالذئـب ولطمنـي بظهـر يـده لطمـة زلزلـت كيـاني.. عـاود الصـداع إلى رأسي أشـد مـا يكـون وسـارت الحوائـط والموجـودات مـن حـولي تقـترب وتبتعـد ببـطء شـديد، ذكـر هـو شيء عـن «بـن المقفـع» ونهايتـه البائسـة، وأنـه أراد لي نهايـة كنهايتـه، إن كان مـا فهمتـه صحيحاً.

كان «بـن المقفـع» أحـد الأدبـاء البارزيـن منـذ أجيـال مضـت. قـد مـات منـذ قرابـة المائـة عـام وعـاصر ثـورة العباسـيين عـلى بنـي أميـة فعـاصر الخلافتـين. قتلـه ثـاني خلفـاء بنـي العبـاس «أبـو جعفـر المنصـور» الـذي ابتنـى بغـداد... وذلـك عندمـا أوكل الخليفـة أمـره إلى «بـن المهلـب» عـدوه اللـدود.. كان «بـن المقفـع» دائـم السـخرية مـن «بـن المهلـب»، فقيـل أن أنـف «بـن المهلـب» كان طويـلاً، فـكان إن دخـل عـلى جماعـة فيهـم «بـن المقفـع» قـال لـه الأخـير السـلام عليكـما -يقصـده وأنفـه- وقـد اختلـف معـه يومـاً فقذفـه قائـلاً:

- يا بن المُغتلمة[38] .. والله ما اكتفت أمك برجال العراق حتى نكحها رجال أهل الشام.

فلما قدر عليه «بن المهلب» بتفويض من الخليفة أتى بتنور وأخذ يقطع أعضاء بن المقفع عضواً تلو الآخر ويرميه في التنور لينضج أمامه ثم كان يجبره على التهام نفسه... حتى مات المسكين من شدة التعذيب.. شعرت بالضياع التام عندما وصل عقلي لتلك المعلومات المشؤمة، فلا بد لهذا الفتى المُفعم بالكراهية أن ينفذ ما انتواه بغير أن أجد عنه حاجزاً.

رأيت في يده مشرط طويل، واقترب هامساً من أذني بصوتٍ محايد:

- دعني أخبرك.. انقطع أملك اليوم من الجميع إلاي، فأمرك بيدي إن شئت كتبت لك النجاة، وإن شئت قضيت عليك بالهلاك، فلتطع أمري علك تنجو.

نظر الرفيع إلى الرجال من حوله وأشهدهم على ما يقول:

- أشهدكم أيها الرجال، إن أكل الطبيب الخائن مقدار رطلاً من جسده عفوت عنه، ليعش بعدها وقد عفوت عنه، أما إن فشل لاستمرت في الاقتطاع من جسده حتى يموت.

أنهى حديثه إليهم ونظر إلي بخبثٍ وقال:

- أما أنا فلست فظاً مثل «بن المهلب» الذي لم يعطي ضحيته فرصة للنجاة، فقد ألزمت نفسي بالعفو إن حققت أنت شرط النجاة.

شحذت ذهني أحاول استجماع تركيزي لعلي أنجو.. لكن لم يحدث ذلك سوى أثراً طفيفاً في حالتي المُزرية.. وبدأ الجنون بغتة!

حرر العربي يدي اليمنى من قيدها وأحكم وثاقي مرة أخرى.. مسك باليد يبرزها لابن «البحراني» قبضت أصابعي بشدة مُحاولاً سحب ذراعي من اليد الحديدية التي أمسكتها.

38) هي المرأة الشبقة التي لا تكتفي من الرجال.

- فلتتعاون يا «عاصم» حتى نستطيع تحقيق الشرط. أنا أريد فقط أصابع اليد، فإن لم أستطع النيل منها قطعت ما هو أجل منها وفقدت أنت شهيتك عن الأكل.

شيء ما بداخلي كان يدفعني إلى تصديقه. مددت أصابعي وقد أرجعت رأسي إلى الخلف وجززت على أسناني أتقي الألم، نزل النصل الحاد في سرعة خاطفة ليحصد أصابعي الأربعة وجزء من الإبهام، كان الألم عاتياً.. لم أكد أدركه حتى أحضر أحدهم طست ملئ بالزيت المغلي فغمر كفي فيه ليندمل الجرح.

كان بن «البحراني» يراقبني عن كثبٍ مُستمتعاً بآياتٍ الألم المرتسمة على وجهي.. انطلق هو من بعدها يلملم أصابعي المُبعثرة حولي، نطر عنها الدماء ثم أتى بمكيال دقيق أمامي وسجل الوزن ثم كتبه في ورقه.

- قد آتيت بهذا المكيال حتى أكفيك فتنة الشك، ولتتأكد أني لن أبخس من لحمك الغالي شيئاً.

استدار السفاح عني وأخذ يقلب أصابعي في آنية على النار مترنماً ببعض الألحان في خبلٍ واضح. كان الألم يطن من يدي في دقات متلاحقة على نحو بث الذعر في أنحائي.

- بالطبع قد أدركت بفطنتك مدى كرمي أني أزن الرطل من جسدك قبل الطهي، فأنت تعلم أن النار تُخسر الوزن الشيء الكثير.

قالها «بن البحراني» ثم ضحك هازئاً.. مرت الدقائق طويلة مؤلمة قبل أن يستخرج أصابعي ويضعها في طبق أمامي، قَطَعَ من الأصابع المُتفحمة قِطعة ووضعها أمام فمي يعرض عليَّ أن آكلها، نزلت الدموع من عيني في صمت وأنا أرمق أصابعي المحترقة وقد أدرت رأسي عما يقدمه لي مُنهنهاً، تصنع الأسف على حالي ونصحني أن أقبل.

لا أدري كيف اقتنعت وكأن الفتى الأسود قد صار إلهاً... يأمرني الصعاب

لأنال حُسن العاقبة، أخذت ألوك أصابعي وموضع بترها لازال طازجاً يطن من الألم. هالني لوهلة أني آكل قطع من جسدي فتمردت معدتي وشرعت أطرد ما فيها على قلته، وتحت إلحاح الإله الأسود... أخذت ابتلع اللحم المحروق مُمنياً نفسي بالنجاة. بعد أن انتهيت من أصابع اليد اليمنى عاد الكابوس ليبدأ من جديد وبنفس التفاصيل مع أصابع يدي اليسرى.. لكني لُكتها هذه المرة بلا تردد. كانت تتوارد على عقلي وقتها أفكار عجائبية حمقاء... هل تراني لو ابتلعت ما انفصل عن جسدي يعود مثله لينبت من جديد؟ عندما وصلت بخاطري لذاك المدى... عرفت أني أهلوس من فرط الحرارة والألم، يبدو وكأنني محموم.

اقترب الأسود من جديد وهو يقول:

- رغم أنك ما انتهيت من أكل تلك الأصابع الشهية... فسأعتبرك قد أكلتها وذاك من سماحة نفسي.

اقترب بوجهه مني وفجأه سلخ أذني اليمنى بمشرطه ودلاها أمامي ثم قذفها على المكيال وقال متعجباً:

- تكاد الأذن ألا تزن شيئاً سآخذ الأخرى عساها أن تثقل صاحبتها في الميزان.

نزع عني أذني الثاني وأنا أدمي من مواضع القطع. لكنه أمسك بمغرفة كبيرة من الزيت فكوى بها مواضع الجرح وأنا أصرخ مُتألماً.. احترق شعري وتشوه وجهي.. قال شيئاً بعدها عن طهي الطعام بطريقة مبتكرة حتى لا أمل الأكل. وقذف أذني في الزيت المغلي وأخرجها لي لآكلهم.

توالت القطع المبتورة من جسدي وبقى المكيال مُلطخاً بالدم، وبدا الوعي مُتسرباً وأنا ألوك اللحم هاذياً. يبدو أني استسغته بعد طول التجربة. هنا خطر لي خاطراً ملأني تواضعاً، فمذاق لحمي كمذاق لحم الأنعام، لا فرق بيننا غير تلك النفخة المقدسة التي وهبنا الله إياها.

وضع أمامي قطعة أخرى مني وأخبرني أنها لينة ولن تتعبني في البلع قالها وهو يبتسم مع من حوله في فُحش، لم أقوَ على ابتلاع المزيد فاقترب هو منتوياً قطع لساني.

- هذا ما استخدمته للوشاية بأبي، حق عليَّ أن أنزعه منك.

قالها بتشفٍ واضح وهو يضغط على أسنانه من شدة الغيظ، فَذَكره الرجل العربي هازئاً أنه إن فعل ذلك لن أستطع ابتلاع المزيد.

- يمكنه أن يبتلع بغير أن يتذوق، فما أظن لحمه طيب الطعم على أية حال.

أخرج من حقيبته كماشة... لطمني بها على وجهي كي أفتح فمي الذي حاولت إبقاءه مُغلقاً فانفتح عنوة.. أمسك بطرف اللسان بكماشته وقد أحكم أحدهم يديه على وجهي حتى لا أكثر الحركة أثناء القطع، أما هو فقد بدأ بحز لساني على مهلٍ مستمتعاً، ولما خلص منه عجب من القطعة الصغيرة التي استطاع استخلاصها منه، عرضها علي لأكلها، لم أستطع وظللت أبكي من فرط الألم وانعدام الحيلة.. أخذ يتودد هو إلى الهر الأسود المشئوم الذي كان يرقب جرائمه مُستمتعاً. مسح على ظهره بيده الدامية ثم اقتاده أمامي ممنياً إياه بلساني المقطوع ثم طرحه أمامه، أخذ الهر يلعق الدم عن قطعة اللحم الجامدة يحاول مضغها المرة تلو المرة فيفشل، أخذ الجميع يرقبون المشهد بفضول وأنا معهم حتى مل «بن البحراني» اللعب.

فقد أعلن أخيراً أني لم أستطع الالتزام بالشرط وعليه الآن أن يقتلني آسفاً وبهدوء شديد أحضر سيفاً في طول الذراع ونظر ملياً في عيني الزائغة ثم نزل بحدة قبالي مُستهدفاً رقبتي.

***

اسمي بشرى

267 هـ

خرج «نصير» إلى حرب الزنج على رأس جيش كبير يقوده «العباس» بن «الموفق». يتداول الجميع أن «المعتمد» قد استجمع جميع ثروته الباقية في هذا الجيش للقضاء على ثورة الزنج، فإن هلك هذا الجيش لم يجد الخليفة وأخيه لهم وجاء من «علي»، كنت أشعر بالتفاؤل وأن الله سينصر المستضعفين عمّا قريب.

كانت تمر بي الخواطر المشئومة؛ تصور لي أن «نصير» قد يقتل «أدهم». هو يكرهه ويحقد عليه. هو يملك المال والسلطة الكافية حتى يرسل إليه من يبحث عنه في ميدان المعركة ويقتله حصرياً كمثل فعلة هند بنت عتبة بحمزة عم الرسول، فإن كنت أنا قد نجحت في الوصول إليه مُستخدمة خادم بسيط، فلن يعدم رجل مثل «نصير» أن يصل إليه، ولديه القادة والجواسيس والرجال المُخضرمين في الحروب، لكني كنت أطرد تلك الخواطر المشئومة من عقلي سريعاً.. فقد قال لي الشيخ «عمر» ذات مرة أن التوقعات السيئة تُحيق بأصحابها من كثرة ما تعلقوا بها وتخيلوا وقوعها، وأن ذاك من باب سوء الظن بالله.

أجدر بي الآن أن أتفاءل فقد رجع إليّ «عاهد» بالبشارة الكبرى، فزوجي لا زال على قيد الحياة وهو الآن من كبار قواد «علي بن محمد» يقاتل بشجاعة في الصفوف الأولى لينتصر للظلم الذي يلاقيه كافة المُستعبدين، وهو لا زال على عهده معي يحبني كما في السابق. فكلمات رسالته تخبرني بذلك، تخبرني أن الأراضي الشواسع والسيوف البواتر والدماء والمعارك والفواجع، لم تزحزح حبي من قلبه قيد أنملة. سألت «عاهد» عن هيأته الآن وحاله، شعرت أن شيئاً لم يتغير عنه... اللهم إلا تلك الشعيرات البيضاء التي غزت لحيته، فلم يكن لمثلها وجود في سنوات هنائنا الأولى.

***

قررت اليوم الخروج لزيارة ابني في البيت الذي شهد سنوات طفولتي الأولى، فغياب «نصير» عن القصر فرصة لا تعوض كي أطمأن على أحوال «عمر». كان الوشاة في القصر يخبرون «نصير» عند عودته بانخلاعي عن القصر وذهابي إلى منزل الشيخ «عمر»، ومع ذلك لم يجرؤ أحدهم على منعي.. فقد حاولوا ذلك من قبل فهددتهم بقتل نفسي وكانت نتائج منعهم إياي وخيمة. لذا امتنع الجميع عن اعتراضي من بعدها تنفيذاً لأوامر سيدهم، فكنت أخرج في غيابه كل فترة على كراهة منه وإن كان لا يجرؤ على منعي.

وصلت إلى الباب الصغير المؤدي إلى حديقة الشيخ وأخذت أتأمل أخشابه الزرقاء وقد تقشر عنها لونها فهاج الحنين في نفسي. شيء من الوجد الممزوج براحة النفس يغمر المرء عندما تقع عيناه على أشيائه القديمة التي لم يرها منذ زمن. دفعت الباب برفقٍ فأحدث صريراً رقيقاً داعب أوتار قلبي وتقدمت إلى الداخل. لم تزل أزهار الحديقة مُزهرة فواحة يانعة، وعندما مررت بالغرفة التي كان يسكنها «أدهم» في الحديقة. بدا لي أن هناك ساكن جديد لها. اغتممت لوهلة، لكني نفضت عن نفسي

الحـزن سريعـاً وتقدمـت لأطـرق بـاب المنـزل. فتحـت لي سـيدة تبـدو أسـن منـي قليـلاً...

- السلام عليكم... هل الشيخة «مؤنسة» بالداخل؟

- نعم. من أنت...

- أنا «بشرى» هلا أخبرتيها أني أريد لقاءها من فضلك.

انصرفـت الأمـة مـن أمامـي فلبثـت لوهلـة استنشـق مـن عبـق المنـزل القديـم، فـإذا لـه نفـس الرائحـة الزكيـة لم تتغـير.. رائحـة الخبيـز الصباحـي الممزوجـة بروائـح عجائبيـة أخـرى مُنبعثـة مـن عـوالم سـحرية عتيقـة. كان شـعاع الشـمس سـاقطاً عـلى بهـو البيـت مـن النافـذة العاليـة فظهـرت مـن خلالـه ذرات الغبـار الدقيقـة وكأنهـا أجـرام سـماوية تَجـول في الكـون الفسـيح.

قطـع عـليّ تأمـلي صـوت طفـل صغـير يلهـو في الجـوار... هـو «عمـر» بـكل تأكيـد، دق قلبـي انفعـالاً مـن صـوت ضحكاتـه التـي أحدثـت في نفـسي أثـراً سـحرياً زادني وجـد عـلى وجـد. تقدمـت خطـوات وتلفَّـت حـولي حتـى رأيتـه، كان الصغـير يحـاول أن يلاعبنـي مُتخفيـاً وقـد شـعر بوجـودي. ناديتـه باسـمه فـشرع يهـرب منـي لاهيـاً، اقتربـت منـه في سرعـه وضممتـه إلى صـدري بقـوة فبادلنـي الضمـة بأخـرى حانيـة رقيقـة ضاحكـة مُفعمـة بالحُـب.

هـو الآن بـن سـت سـنوات ويعـي الكثـير، وقـد أخبرتـه أني أحبـه ولكنـي لا أسـتطيع البقـاء إلى جـواره إلا خـلال تلـك الزيـارات السريعـة الخاطفـة وذلـك لظـروفٍ سـأخبره إياهـا عندمـا يشـتد ويكـبر. وعندمـا كان يسـألني عـن أبيـه كنـت أخـبره، إنـه صحبـة الجيـش لمُقاتلـه الأشرار والطواغيـت.. كان يُشـبه أبيـه كثـيراً، وكانـت لـه نفـس الرائحـة، لـذا كنـت أدس أنفـي في صـدره مستنشـقة رائحة الحبيـب بحنـين جـارف.. سـألته عـن حالـه في الكتـاب فوجدتـه وقـد حفـظ معظم كتـاب اللـه، فقـد أحسـن الشـيخ تعليمـه وتهذيبـه كـما أحسـن إلى أبيـه مـن قبل.

حضرت الشيخة «مؤنسة» مهرولة من الداخل فاحتضنتني بقوة وهي تسدد لي القبلات وقد غمرها الحنين، لم أشك يوماً في حب الشيخة لي، فقد كنت دوماً هرتها المُدللة. ورغم أنها كانت تقسو على «أدهم» في أوقات كثيرة؛ إلا إن ذلك لم يكن ليقلل من قدر حبي لها. أنا لم أعرف لنفسي أماً، وكانت هي أمي. لذا لم أتعجب أن وجدت «عمر» الصغير يناديها بـ «جدتي.. جلس «عمر» على حجري وأخذت الشيخة تطمأنني على أحواله وتقدمه في علوم اللغة وحفظ القرآن والحساب. أخذت تذكر لي ما يتناقله الناس عن الأوضاع المضطربة في البلاد بسبب ثورات الزنج في الجنوب.

سمعنا جلبة عند باب البيت فانتفض «عمر» من فوق قدمي وعدا جهة الباب ليرحب بالشيخ الذي رفعه من فوق الأرض محتضناً إياه، داعب الصغير لحية الشيخ الغالب بياضها وقبله في وجنته قائلاً:

- أهلاً جدي... هل رأيت من أتى لزيارتنا اليوم.. إنها أمي!

ربت الشيخ على «عمر» وقبّله وأنزله من بين ذراعيه وانطلق نحوي فضمني بين زراعيه وربت عليّ بكفه القوية الممتلئة.

- افتقدناك كثيراً يا بُنيتي، قد مر وقت طويل منذ زيارتك الأخيرة لنا.

ليس عن إرادة مني يا شيخ.. قد فرضت عليَّ رقابة شديدة في القصر ولا أستطيع مُغادرته إلا في توقيتات معينة كما تعلم.

- لا بأس ابنتي، مرحباً بك في أي وقت، فالبيت بيتك دائماً.

غمز الشيخ لزوجته حتى تتركني وابني وحدنا لبعض الوقت. التقطت الشيخة الإشارة واعتذرت لحاجة ... قالت أنها سوف تعود بعد قليل وتركتني و«عمر» وحدنا.

بقيت أنا وصغيري معاً فانقضضت عليه أحتضنه في شوقٍ وقد سالت أدمعي رغماً عني، أخذت ألثمه بعمق واحتضنه بقوة وهو ذاهل وأنا

أقلبه بين يدي، أجلسته على قدمي رغم اتساع المكان، وأخرجت من صدري خطاب أبيه وقلت أحادثه:

- هذا خطاب أبيك لي، قد أرسله إليَّ من أراضٍ بعيدة.

فضضت الخطاب بحرص وأخذت أتلو عليه ما فيه وقد أسكرتني حلاوتها، أخذت أتلو على الصغير عبارات أبيه السحرية وأنظر إليه كأنني استوثق أنه يعي ما يسمع، في النهاية طويت الصفحة الغالية ودسستها في صدري بحرصٍ:

- هل رأيت بنفسك كم يحبني أبوك، هو بعد لا زال بعيداً.. لكنه لا بد عائد في يوم من الأيام ليلتئم شملنا مرة أخرى، عندما تكبر يا «عمر» يجب أن تعامل زوجتك باللطف مثله، أريد أن ترث ذاك عن أبيك فتكون رجلا حقيقيا.

سمعت خطوات الشيخة مُقبلة فمسحت أثر العبرات الجافة واعتدلت في جلستي، ضحك «عمر» وبشَّ لمرأى الشيخة، وقام من فوق قدمي يهرع إليها قائلاً:

- إني جوعان يا جدتي.

ضحكت الشيخة في حنان وضمته إليها:

- حالاً يا بني...

نازعتني بعض مشاعر الغيرة أن تعلق ابني بغيري بهذا القدر. لكني حمدت الله أن قلب الشيخة كان حنوناً عليه، عساه أن يتعلق بي بعد أن يأذن الله في عودة الغائب. أزف الوقت وسار لزاماً عليَّ أن أرجع إلى المنفى.. استأذنت الشيخة على كراهة فنادت الشيخ فأحسنا وداعي بعد أن استحلفوني ألا تتأخر عنهما زيارتي القادمة. كانت الشيخة تحمل «عمر» الصغير على كتفيها والأخير ينظر إليّ بفضول، قبلته قبلة طويلة فسمح لي بها بغير أن يتململ، وودعت الجمع الطيب ووليت عنهم راغمة.

***

اسمي نصير

267 هـ

انتهيت من صلاة العصر وبمجرد أن سلمت لمحت أحد الحراس خاصة الـ «العباس» ينتظرني على أعتاب خيمتي:

- تقبل الله سيدي.. الأمير «العباس» في انتظاركم في خيمته الخاصة. وهو يلح ألا تتأخر عليه فالأمر هام.

قمت ولساني لازال يلهج مُسبحاً وأنا أشير للحارس أني سأتبعه سريعاً.

وضعت نعلي وعدلت من ملابسي وسلكت طريقي بين الخيام لأصل إلى «العباس»، قد حقق الفتى على الزنج نصراً مؤزراً استحق عنه قيادة الجيش، فما أحرز أباه نصراً في قوة هذا النصر طوال السنوات الإثنى عشر الماضية. يبدو أن الفتى تعلم الكثير عن فن الحرب من أساتذته... بل وأحسن تطبيق ما تعلم. كانت لتدبيراته الحربية أثر حاسم في إنهاء المعركة لصالحنا، وعندما سألته عن تلك الحراب الطويلة التي استخدمها في معركته ضد الزنج، أخبرني أن أصلها يرجع إلى ذي القرنين[39]، الذي قيل انه استخدم تلك الحراب في حربه ضد الفرس في الزمن العتيق، يقول أن اسمها

39) حقيقة تاريخية.

الساريسا وأنه صنعها بنفس الكتل والأبعاد التي صنعها ذو القرنين.. حقاً نال الفتى إعجاب الجميع واستحق احترامهم ووجب له السمع والطاعة رغم حداثة عمره.

دخلت على «العباس» خيمته، وعجبت أن لم أجد بها آثار للبعوض المُنتشر خلال تلك الآجام المتشابكة والمستنقعات الآسنة التي علقنا فيها.

- أهلاً نصير.

قالها وهو ما يزال يوليني ظهره... يصب لنفسه شراباً.. وجدت في نفسي غضاضة أن ناداني باسمي مجرداً من أي القاب. فارق السنوات بيننا يناهز العشرين عاماً وأنا القائد الأقرب من أبيه، توقعت أن يظهر لي بعض الاحترام لكن لا بأس، يبدو أن النصر الذي أحرزه أسكره فبات يرى نفسه سيداً للعالم.

استدار يواجهني مُشيراً إلي بالجلوس وهو يرشف من شرابه، رسمت بسمة على وجهي قائلاً:

- مرحى أيها الأمير، لبيك يا بن الكريم.

- قد وردت الأخبار من جواسيسنا تُنبئنا أن «سليمان» قد انتوى التحرك إلينا مرة أخرى، وأنا أفكر الآن في استباق هجمة عليهم من حيث لا يحتسبون.

- سمعاً وطاعة... أنا رهن إشارتك في جميع ما تريد.

قام «العباس» إلى منتصف الخيمة حيث تختة الرمل المُثبت فوقها قطع خشبية ترمز إلى جيوشنا وقطع أخرى ترمز إلى شرازم الزنج، قال وهو يشير:

- قد ارتد الزنج إلى هنا، ووفقاً لما كان منهم طوال الأعوام الماضية

فسوف يسعون لإعادة الاستحواذ على البلدان التي فقدوها ولسوف يحاولون الهجوم علينا خلال الساعات القادمة. لكنهم لا ريب ... لا يتوقعون الهجوم.

سكَّت مُستمتعاً مأخوذاً وقد أعجبني منطقه وثباته في العرض ... وأحببت أن يستمر:

- لكن هجمتنا كذا ستكون من خلال مناورة لن يتوقعوها، فسوف تتقدم أنت ومعك ربع الجيش فتظهر بمظهر المُغير وذلك في الحين الذي ستنسحب فيه من أمامهم فيتقدمون من خلفك، فنكر عليهم نحن من الأجناب.

نظرت إليه مدهوشاً وقلت:

- لكن ذاك التدبير معروف لدى الزنج، وقد استخدموه ضدنا أكثر من مرة.

رشف من كأسه ونحاه جانباً وقال مرتداً عن تختة الرمل:

- هم من يمارسون تلك الخدعة ضدنا... لكننا هذه المرة من سنمارسها عليهم.

أخذت أتخيل موضعي وأنا على رأس شرزمة من جيشنا لتكون طُعماً لتلك المُسوخ الزنجية، أصابني شيء من الخوف، فالطُعم قد يؤكل في أحيان حتى يتم الاصطياد... ويبدو أن السيد الصغير لن يهدأ له بال حتى يتم له النصر وإن اضطر في سبيل ذلك للتضحية بكل الرجال من تحته. تسرب شعوري بالضيق إلى قسمات وجهي ليعلن بقوة عن حضوره، ومع ذلك قلت مُذعناً:

- سمعاً وطاعة يا مولاي، وليكن النصر حليفنا بمشيئة الله وإرادته.

أومأ برأسه مؤمناً ثم أشار إليّ بالانصراف في علياء بغير أن يضيف كلمة واحدة أخرى.

رغم نقمتي على الفتى فلم أستطع منع نفسي أن تُعجب به.. فقد كان عبقرياً شجاعاً قائداً اجتمعت فيه سمات الفارس والملك. لا أرتاب في أن يكون للفتى شأن إن كتبت له النجاة خلال تلك الحروب الطاحنة.

***

كانت نفسي تهفو إلى «بشرى»... كم أفتقدها وكم يؤلمني رفضها، في كثير من الأحيان لا يهاب المرء الموت إلا لخاطر من أحب. فهو لا يريد لهم الألم ان فقدوه وهو كذا يقبل متاعب الحياة على مضض من أجلهم. أعلم أن «بشرى» لا تحبني وأنها تتمنى موتي، لكني أحبها وفي نفسي أمل كبير أن تميل إلى يوماً بعد أن تدرك خبايا نفسي وكم تهواها تلك المُضغة الخافقة بين أضلعي.

ولكي تُحبَني «بشرى»، فيجب الخلاص من زوجها، فثمة أشياء لا يستطيع المرء نسيانها إلا إن قَنَتَ منها، فالمرء يحن إلى الماضي والفائت وإن كان سيئاً. ولن تتاح له فرصة للتعرف على الجديد إلا بمحو القديم، ولن نستطيع ملء إناء جديد إلا إن أفرغته مما فيه.. أنا واثق أنها سوف تقدر حبي وتعترف بفضلي وستندم على كل ما كان منها من جفاء فقط عندما تمنحني الفرصة لأعبر عن افتتاني وهوسي بها، لكم من مرة تمنيت لها أن تفيق من شرابها المُنوم وأنا معها في الفراش أقبل أقدامها وأنحائها في شوق جارف.

فقط لو يمنحني القدر الفرصة.. أو علَّ الفرصة قد آنت الآن خلال تلك المواجهات الجريئة التي يقودها «العباس»، علنا الآن نستطيع سحق تلك الحشرات السوداء ووأدها إلى الأبد، قد يكافئني القدر بلقاء حاسم مع ذاك العبد الأسود الذي لُعنت به.

لم أكن أنظر إلى الزنج أنهم من بشر مثلنا، كنت أراهم كائنات من

تركيبة مختلفة... في مكانة أدنى من البشر وأرقى من القرود أو مثلها، هم أغبياء خبيثو الرائحة، منزوعو الرحمة، حتى إناثهم تشبه رجالهم يعافهم الكريم ذو الفطرة السوية، لو واتت تلك الحشرات الفرصة لانتشروا في الأرض وعاثوها فساداً ولطال الخراب الجميع، لذا كان حتماً عليَّ قتالهم وإبادتهم وسحقهم، ولئن مِتُّ خلال تلك المواجهات فليسترح قلبي من حب «بشرى» الرابض فيه، ولئن انتصرت... مّكَّن الله لي وأوَّبني سالماً إليها وجعلني أقرب لما أريد.

قضيت الليل أجهز شئون جماعتي وأجتمع مع قادتهم أوضح لهم وأبين ما سيكون خلال المواجهة الأولى، وشدَّدت عليهم بالنسبة بالنسبة للأماكن التي أريد لكل منهم الالتزام بها حتى يمكن السيطرة على الجموع أثناء التقدم والانسحاب، مرَّت الساعات سريعة وبدأت أشعة النهار الأولى تخترق سُحب السماء وتنفلت منها.. بدأنا نتحرك جهة الزنج واستعد «العباس» ليحتل أجناب الطريق كما هو مرسوم بالخطة.

تقدمنا في سرعة جهة الزنج ويبدو أنهم تفاجأوا بتحركنا إليهم قبل أن يتمموا هجمتهم علينا، فمن انتبه منهم كان يوقظ الغافل فينطلق كلٌ إلى سلاحه ويندفع به نحونا بغير ترتيب، فلبثنا نحن في تقدمنا نحصد أرواحهم حصداً.. تطايرت من حولي الهامات والأذرع والأطراف من أثر سيوفنا المشحوذة، أكاد أسمع صوت الصوارم تشق طريقها في اللحوم السوداء المشئومة.

كثر في الزنج القتل ومرت عليهم الدقائق الأولى من هجمتنا طويلة دموية، مر كثير من الوقت حتى استطاع الزنج تنظيم صفوفهم ولم شتاتهم والثبات لنا وإعادة الكرة علينا. فلم تكد دقائق أخرى تمضِ حتى استطاعوا وقف تقدمنا والثبات لنا، ثم تفاقم الأمر علينا فبتنا نتراجع

أمـام شراسـة هجومهـم، وهنـا أدركـت أن سـاعة الحسـم قـد آنـت، فكررنـا عليهـم كـرة شـديدة واحـدة فلـما تباعدنـا بقـدرٍ ولياهـم دبرنـا وشرعنـا في الانسـحاب...

أغـرى القـردة انسـحابنا فطفقـوا يُـشردون بنـا كـما هـو مرسـوم في خطـة «العبـاس»، أكاد أجـزم أني قـد سـمعت صوتـاً يحذرهـم ويأمرهـم الثبـات عـلى الأرض ويعظهـم ألا يتقدمـوا، لكـن حمـداً للـه لم تكـن لتلـك الأنعـام لتسـمع نصيحـة عاقـل بينهـم، فقـد أغواهـم انسـحابنا وقـد منـوا أنفسـهم بنـصرٍ جديـد.

مـا هـي إلا أميـال أُخَـر إلا وقـد شـعرت بتحـركات جيوشـنا مـن الأجنـاب تـبرز للزنـج كحيـاتٍ عظـامٍ من بـين الأشـجار والآجـام.. أخـذوا يرمونهم بالأسـهم والحـراب حتـى اختلـط عليهـم الأمـر وأيقنـوا إلى الفـخ الـذي نُصِـبَ لهـم، فـكان جماعـة منهـم تمسـكوا بمطاردتنـا رغـم مـا ظهـر لهـم، وجماعـة أخـرى حاولـوا التصـدي للجنـد البـارز مـن الأجنـاب والبعـض ارتـد عـلى دُبـره يحـاول الفـرار.

كنـت أضحـك مـلء نفـسي وفـرسي يتقافـز بي جـاراً خلفـي حفنـة مـن الأغبيـاء، نظـرت إلى الخلـف فـإذا مـن يطاردنـا مـن الزنـج حفنـة قليلـة... يغلـب عـلى حالهـم الهـروب، يبـدو أنهـم آثـروا الالتصـاق بنـا عـن المكـوث ومواجهـة الجنـد البارزيـن مـن الأجنـاب علهـم ينجـوا، قمـت بتعديـل وجهتـي ثانيـة وأدرت عنـان فـرسي مُتقدمـاً مـرة أخـرى ... مُسـتمتعاً بسـحق تلـك الخنافـس السـوداء المنتـشرة فـوق المـروج الخـضراء، لم أتمالـك نفـسي أن أقهقـه مـن عظـم النـصر الـذي حققنـاه عـلى سـهولته، فقـد كانـت الـرؤوس تُقطـف كثـمار يانعـة متدليـة مـن قطوفهـا.

***

أنا بن طولون

267 هـ

أشعر بانفتاح عظيم على العالم من حولي. تواضعت من فوق صهوة جوادي للعظيم الجبار خالق هذا الكون، كيف يُضله البعض وكل ما في الوجود يشير إليه ويشعرنا أننا حشرات حقيرة جاهلة مغرورة تتقاتل على الفتات. تأملت صفحة النيل من أمامي وقد انعكست عليها أشعة الشمس كنجومٍ مُتلألئة صغيرة وقد استقرت مياهه من أثر اعتدال الطقس. شعور طيب افتقدته منذ أشهر كثيرة مضت، منذ أن طعنني ابني في ظهري وجيش الجيوش من بعدي طمعاً في نعمة كنت سأصبغها عليه لاحقاً.. عاد الحزن يتسرب إلى قلبي حثيثاً عندما جال بنفسي هذا الخاطر، لم أكن عنه غافلاً... فقد شعرت بطموحه الجارف منذ أمد بعيد وكنت أعرف عنه استعجاله للأمور وعدم صبره على الخير، كم من مرة أوعظته ألا يعجل على شيء حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

أردت له يوماً أن يعي ويتعلم هذا الدرس فرحلت إلى بيتٍ مظلمٍ ناءٍ لأحد الثغور التي أمكنني الله منها في زُمرة من خدمي. جلست في بيتٍ مُظلمٍ اخترته على هيئته الكئيبة المظلمة ليساعد من فيه على التفكر والتدبر. فلا يوجد داخله ما يصلح للنظر، غير أن ينظر المرء في نفسه.

أرسلت أحد رجالي في استدعاء ابني «العباس». كنا في أول الليل فحضر الخادم وصُحبته «العباس» بعد ساعات من السفر لبُعد مقامه عن مقامي.. كنت أعلم أن ابني لا يصبر كثيراً على الأكل. فأطلت جلستي معه عمداً حتى جاع وسأل عن الطعام أكثر من مرة. ولما شعرت أن جوعه قد أعياه أشرت إلى الطاهي أن يعد لنا الطعام. تأخر الطاهي لبعض الوقت ثم وضع أمامنا صحاف تحتوي على مُقبلات وبوارد من البقول المطبوخة. لم يصبر «العباس» فأطلق يده في الصحاف أمامه وأخذ يزدردها بشهية يُحسد عليها، أخبرته أن يصبر حتى يأتي الخادم ببقية الطعام... لكنه كان قد أصم أذنيه عني وهو يأكل مما أمامه في نهمٍ شديد، لم أشاركه الطعام وأنا أنظر إليه بفضول. عندما انتهى من طعامه وشبع أشرت للطاهي أن ينزل عشاؤنا فوضع أمامنا ما لذ وطاب من صنوف الطعام. فاصطفت أمامنا صحاف الدجاج والبط والجدي والخراف فشرعت أنا في الأكل وأخذت أضع بين يدي العباس من الصنوف الشهية فلا يمكنه الأكل لشبعه. فأكلت أنا حتى امتلأت وأمرت برفع المائدة، ولما خلا لنا الجو خاطبته قائلاً:

- إنما أردت تأديبك في هذا اليوم، فلا تلق بهمتك على صغار الأمور فيمنعك ذلك من كبارها، ولا تشغل نفسك بما يقل قدره، فلا يكون فيك فضل لما يَعظم قدره.

تذكرت هذا اليوم آسفاً، فلم يعي «العباس» الدرس وتصرف برعونة رغم تحذيراتي المُكررة.

أفقت من حزني وقد انتهى الخادم من تجهيز قاربي. قد عزمت اليوم على زيارة المكان الذي ترعرعت فيه صغيراً لأستمتع بذكريات الماضي، ركبت القارب وقد انقشعت عني سحابة الحزن العابرة وعزمت على الاستمتاع بما أنا مقبل عليه، أفقت من تلك الذكرى مُتحسراً متفاجئاً بشيخ صياد صحبته طفل صغير وقد لاح في الأفق...

كانت ملابسهما رثة تدل على سوء حالهما وفقرهما المدقع فرق قلبي لحالهما وقررت أن أساعدهما.. سألت خادمي عن مقدار ما يحمله من المال فوجدته يحمل قدراً مناسباً منه، فأمرته أن يقدم كل ما يحمل إلى الرجل وأن لا يبقي لنا إلا ما نحتاجه حتى نعود إلى القصر.. كنت أتابع الموقف من بعيد وأنا أرمق الرجل من بعيد وهو يتلقى المنحة الإلهية مسروراً. كنت أشعر به يكاد يجن من السعادة وقد وصلت صيحاته الفرحة مسامعي على بُعد المسافة بيننا، فانتقلت فرحته إليَّ واختلست لنفسي قبساً من أنواره المبتهجة أنير به جنبات روحي المُنهكة.

عبرت بقاربي إلى الضفة الأخرى من النهر. وكان الجو من الصفاء حيث كنت أشعر بانتفاض الأسماك من حولي وكأنها تبارك مسيرتي إلى الجهة الأخرى.

وصلت إلى وجهتي بعد وهلة. ترجلت عن قاربي وقد شعرت أن الهواء تبدل. فصار أكثر حميمية ودفئاً.. تقدمت حتى وصلت إلى أطلال بناء قديم كنت قد مكثت فيه في بعض سنوات الصبا عندما كان أبي «طولون» مُنغمساً في شئون الحكم. أخذت أدور حول البناء استنشق من بين ثناياه عبير الماضي، جثوت على الأرض وقبضت من طينها أقلبه بين يدي مشدوهاً. دخلت البناء وأخذت أجول بين أروقته أتلمس حوائطه مفتوناً. دخلت الغرفة التي كنت أنام فيها فوجدت أثر لرسم قديم موشوماً على الحائط لم يستطع الزمن محوه عن موضعه. أخذت اتأمله أحفر خطوطه وثناياه في قلبي وعقلي كان الرسم لحوت صغير له عين ضخمة. أذكر الآن أني تعلمت هيئته من صاحب لي قد اعتدت اللعب معه، لا أذكر اسمه الآن وإن بقيت ملامحه عالقة في نفسي، بقيت في المكان لبعض ساعة ثم قررت الرحيل.

كانت رحلة العودة هادئة قد ساهم صوت تقلب المياة بواسطة المجداف في بث الطمأنينة في نفسي وكأن أم حنون تُهَدهدني وتنفض عني الآلام.

لطالما كنت أعتقد أن للبشر أصول مائية، وإلا فما تفسير تلك الطمأنينة الأبدية التي يشعر بها الإنسان ان اقترب من المسطحات المائية.. بدت الأفكار الموحشة بعيدة ضعيفة في خضم هذا الكم من الاسترخاء والاندماج مع الطبيعة.

فجأة اقتحمت عليَّ ابنة عمي «خاتون» تأملاتي... تزوجتها فكانت لي نعمَّ الزوجة وولدت لي «العباس» منذ خمسة وعشرين سنة، لم أرى منها ما يزعجني إلا بعد أن حبست ابنها «العباس» بعد محاولة الانقلاب الفاشلة التي قادها. تغير أسلوبها معي على نحو لم أعهده من قبل... في محاولات يائسة أن أعفو عن ابنها.

بينت لها أني عاملته باللين فلم أقتله جزاءا لما فعل وذلك كونه أبني في المقام الأول وإكراماً لمقامها في المقام الثاني، لكنها لم تفهم.. أخذت أُعَدد لها كم من ملك وسُلطان قتل أخيه أو ابنه جزاء لمثل فعال ابنها، لكنها لم تَكل أن تضغط عليَّ أن أفرج عن «العباس» وأخرجه من محبسه، تريدني أن أحرره ليعاود عليَّ الكرة ويقتلني، حسمت أمري الآن ولسوف أهددها بالخراب والنفي إن هي صمَّمَت رأيها وعادت توسوس إليَّ بتحرير «العباس».

أعرف أنها تكره «خمارويه» بن «مياس» وتستكثر عليه أن يكون السلطان القادم فهو بن أمة مهداة إليَّ من الخليفة المُستعين رحمه الله. لم تكن تحب «مياس» من اليوم الأول، والآن زاد مقتها عليها و على أبنها إلى حد الجنون حتى ظننت أنها قد تحيق المؤامرات ضدهما حتى يخلوا لها وجه الحكم، لسوف أحذرها حين عودتي أنه إن وقع لأحدهما مكروه فستكون رقبتها هي الثمن.

أخيراً رسا القارب الصغير على شط النهر في تناغم رائع مع انتهاء الأفكار المتصارعة في نفسي فترجلت منه وقد امتلأ قلبي بالأمل.

ما هي إلا خطوات أخرى خضتها في الأرض الموحلة حتى تناهى إلى مسامعي صوت نشيج. التفت إلى مصدر الصوت فإذا هو بن الصياد الذي قد أحسنا إليه ببعض ما وهبنا الله وقد جثا باكياً فوق جثة أبيه، بقيت إحدى يدي الجثة مُمسكة بدينار من الدنانير، أشرت إلى خادمي أن يذهب إلى الصبي ليقف على الحدث وإن كنت أخال أن أحد الشُطار[40] قتل أباه طمعاً في المال الذي وهِبَ إلى المسكين منذ ساعات مضت. رأيت الخادم يُحاجِج الصبي مواسياً وهو يربت على رأسه ثم توجه به نحوي...

- جئتك به لتسمع منه بنفسك يا مولاي.

أشرت للصبي ليتحدث، فنظر إلي وفي عينيه لومٍ خفي قائلاً:

- قد قتلته تلك القطع الذهبية التي ألقيتها بين يديه.

- هل طمع فيها أحد قطاع الطريق فقتل أباك طمعاً فيها؟

- بل قتلته القطع الذهبية نفسها.

رددت بصبر نافذ:

- وكيف ذلك يا غلام؟

- هي مسحورة فيما يبدو، فما أن استقرت بين يديه إلا وأخذ يقلبها في غير تصديق وكأنه جُنَّ، فما مضى بعض الوقت حتى خر على الأرض ساقطاً وقد انقطعت أنفاسه.

تبادلت نظرات الأسف مع الخادم وقد فهمنا ما حدث، حاولت أن أبقي الدنانير مع الغلام وأن أزيده منها لكنه رفض رفضاً قاطعاً أن يلمس إحداها وقد استقر عنده أن الدنانير مسحورة وأنها السبب مقتل أبيه.

تركت الغلام مُتصلباً فوق جثة أبيه، وقررت أن أرسل أحد رجال القصر

40) قطاع الطريق

ليـواري جثـة المسـكين ويأخـذ الصبـي بعـين الرعايـة، تحدثـت إلى الخـادم بغـير أن أنظـر إليـه قائـلاً:

- تحتاج النعم إلى تدريج وإلا قتلت صاحبها.

مـا أن تجـاوز بي الفـرس بضعـة أميـال أخـرى ألا وكنـت قـد نسـيت مـا حـدث للصيـاد وابنـه، وعـادت خواطـر السياسـة والحكـم تنهـش عقـلي كحيـاتٍ عملاقـة بـلا رحمـة.

فقـد كان للـ «موفـق» عباسـاً كعبـاسي، لكـن «عبـاس» «الموفـق» كان وفيـاً لأبيـه مُخلصـاً لـه، ظهـيراً قويـاً لـه في السـلم والحـرب. هـو الآن يقـود جيشـاً بمباركـة أبيـه في جنـوب العـراق يحـاول القضـاء عـلى تمـرد الزنـج... وللعجـب فقـد نجـح الفتـى نجاحـاً غـير مسـبوق وتعـدى مجـد نـصره أضعـاف المجـد الذي حققـه أبـاه في جميـع معاركـه الماضيـة ... والفتـى بعـد أصغـر مـن «العبـاس» ابنـي، مـا الخـير الـذي فعلـه «الموفـق» ليسـتحق تلـك النعـم الربانيـة التـي باركـت ابنـه فجعلتـه صالحـاً مخلصـاً في عـون أبيـه، ومـا تلـك الجرائـم التـي ارتكبتهـا فجعلتنـي مَلعونـاً ليتحـول ابنـي الـذي ربيتـه في كنفـي إلى ضبـع خبيـث يريـد أن ينهـش مـن لحـمِ أبيـه وهـو بعـد لايـزال حيـاً.

أخـشى مـا أخشـاه أن ينتـصر العباسـيين عـلى الزنـج فيفـرغ الموفـق لي بعدهـا وتكـون بيننـا حربـاً ضروس ، لكـن الأنبـاء الآتيـة مـن بغـداد تفيـد أن مقاومـة الزنـج ضاريـة وأن الأمـور لم تُحسـم بعـد.

ولـئن حسـمت الأمـور لصالـح «الموفـق» وابنـه، فليكـن بيننـا وبينهـم شـأن ولتبلـغ النـيران عنـان السـماء ولتسـفك الدمـاء بيننـا حتـى يتخضـب الأفـق بلونهـا الأحمـر القـاني...

إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً...

***

اسمي بن أبان

267 هـ

لا تظهر المعادن الحقيقية للرجال إلا بتوالي الشدائد عليهم....

استطاع «العباس» أن ينتصر على «سُليمان» مرة من بعد مرة رغم حداثة سنه وقِلة خبرته في ميادين القتال، لعل «سليمان» استهان به فأتاه عدوه من حيث لا يحتسب.

انصرفت تواً من قصر «علي» وقد أخبرني بتلك الأنباء المُحزنة.. طلب «سليمان» من «علي» أربعين قارباً حربياً... وسرايا من الرجَّالة والفرسان حتى يمكنه إعادة الكرة على جند الخلافة فوافق «علي».. وطلب مني أن أكون على رأس القوات المُرسَّلة وأن نتحد معاً لمواجهة جيش العباسيين الأخير:

- هو جيش الخلافة الأخير يا «بن أبان».. إن استطعنا دحره فلن تقم لهم قائمة بعض الآن، قد هلكت جميع أموالهم وهم يَعدّون جيش «العباس».

مشيت في شوارع «المختارة» ساهماً، كنت أحتاج إلى بعض الوقت وحدي قبل أن أختلط بالرجال ويصيبني صخب الحرب.

لم أكن خائفاً، فطالما اعتبرت الدنيا دار ممر فلم أشتهِ يوماً زينتها، حتى عندما توالت انتصارتنا وزادت أموالنا كنت عنها زاهداً أقترب منها على حرص. لم يبهرني بريق الذهب ولم تفسد نفسي من كثرة النساء وتنوع صنوف الطعام والنوم على الرياش. كنت أوطن نفسي على الحرب والجهاد وأعرف أن نهايتي يوماً ستكون جُثة مُقطعة الأوصال منزوعة الرأس بأحد ميادين القتال يتقاسم لحمها المُنتفخ جوارح الطير ودواب الأرض. جددت العهد وصدقت العزم وأخلصت النية وتوجهت صوب رجالي استحثهم القتال وأبثهم نفير الحرب.

بدأ الجميع يتجهز، فكانت الحركة حثيثة داخل المختارة. بدأ «علي» هو الآخر يتأمَّر على رأس قوات احتياطية من الرجال ليتجه بهم صوب المنيعة ليكون بالقرب منا إن دعت الحاجة إليه.

- أين «أوس»؟

سألت من حولي عنه، فكثيراً ما كان يختفي هذا الفتى لأسابيع لوجهة لا أعلمها. لم يجبني أحد... فالجميع لا يعرف مكانه، يقال أنه اصطحب بعض خواصه منذ شهر مضى ورحل عن المدينة ولم يرتد إليها حتى الآن. لم أكن أثق بالفتى كثيراً فقد تسبب استشهاد أبيه على تلك الشاكلة البشعة في تشويه نفسه فبدا وكأنه أصيب بلوثة عقلية. لا يستطيع أحد كبح جماحها، لكني أحتاجه الآن... فهو مقاتل صنديد شجاع يَثبُت وإن تفجرت الأهوال من حوله.

أتذكره يوماً وقد بدا كمارد أسطوري قديم... كسيد من أسياد الحرب وقد انتشرت النار من حوله وهو يطيح بسيفه فيمن حوله فتتناثر الأشلاء كفروع متفرقة من أشجار يابسة.. لم يأبه للموت فأخذ يتفادى النصال من حوله وكأنه يؤدي رقصة مُقدسة وكل ما حوله يُخطأه على كثرته. لن

أنسَ مشهده هذا أبداً ما حييت، ولعل تلك الذكرى التي أحملها له هي شفيعه الأول عندي... هو فردٌ بمثابة سرية من الرجال... أحتاج الفتى ليثبت جواري في تلك الجولة الفاصلة.

انهمكنا في ترميم السميريات والشذوات فأخذت أنظر إليها في إشفاق عالماً أنه سيتم خرقها مجدداً بواسطة المجانيق العباسية العتيدة. على مقربة منهم كانت جماعة أخرى من الصناع يقومون بتصنيع المزيد منها. فكانت تتوالى عليهم الأخشاب المُثقلة فيخيطون بعضها بعضاً في مهارة متناهية، فقد كان أولئك من جند الخليفة وانقلبوا عليه لما بدأت ثورتنا عليهم، بدت أيدي صناع القوارب الجدد أكثر خبرة من أولئك المُرممين، يقولون أن تبدأ الشيء من جديد خير من تعديله وإصلاحه.

كانت الاستعدادات تجري على قدم وساق. الأموال التي غنمناها من الحرب تضمن لنا تدفق دائم ودعم لانهائي حتى يتمم الله لنا النصر بإذنه. جال «جعفروية» في خاطري فشعرت في نفسي أن لقاءنا سيكون قريباً، دوماً كنت أشعر أن في داخلي قدر أكبر من غيري لتقبل الموت والانتقال للعالم الآخر، أبداً لم أفكر في القبر كمكانٍ مُقفراً مُفجعاً، بل كنت أراه ملاذاً وراحة وملجأً. لم تمثل لي الحياة يوماً فارقاً. ولم أراها يوماً شيئاً نفيساً غالياً. بل كنت أراها دوماً عبئاً وجهاداً وكَبَد. لعل السبب في ذلك أنه ليس لي زوجة وأبناء كـ «سُليمان»، لربما كانت زوجته وأبناءه هم سر تمسكه بالحياة ورغبته أن يحافظ عليها. مسكين «سليمان»... يظن أن سلامة أبنائه ووجودهم متعلق بوجوده، متناسياً أن وجوده ووجودهم بيدِ الموجِدُ. يبدو أن زهد الحياة قد أورثني الحكمة والتأمل.

استغرقني التفكير تماماً وأنا أتأمل أحد الرجال يشحذ سنون الرماح بحذق عجيب ويقلب الرمح بحركات مدروسة مكررة فوقفت أتأمله شارداً

كطفل صغير ينظر إلى مسلك عجائبي.. لم أفق مما أنا فيه إلا وأحدهم ينقر على كتفي في لطف.. استدرت فوجدته «أوس» ينظر إليَّ مُبتسماً، بادلته بسمته بمثلها. فهي من المرات القلائل التي شعرت فيها بالراحة لمرآه، كنت أنتظر حضوره وكنت أعلم أن تواجده في الجوار سيصنع فارقاً. وضعت يدي على كتفه مُربتاً واصطحبته بعيداً عن صانع السهام في جوله ننفرد فيها معاً:

- فيمَّ كنت يا «بن البحراني» طوال الأيام الماضية؟

- ثمرة قد أينعت في سامراء وقد حان وقت قطافها.

دوماً كان «أوس» غامضاً مُلَغَّزاً لمن حوله، وكان ذاك من الجوانب التي تشعرني بعدم الراحة حياله، وددت لو ضيقت عليه فسبرت غوره، لكن حماية «علي» له وإصباغه عليه من فضله كانا بمثابة الحائل لي. وأنا كنت أروض نفسي ألا أتدخل في شئون الآخرين كي لا أفسد فطرتي. لو استجوبت من معه من الرجال أو حتى أجزلت لهم العطاء لعرفت منهم سر اختفائه لشهورٍ وعودته فجأة بغير علم أحدهم المكان الذي لبث فيه. لكن هذه المرة كان الفضول داخلي أقل من كل مرة، فقد كنت فرحاً لمرآه مستبشراً بجواره خلال الأيام العصيبة القادمة، فقد كان سيفه دوماً قاسياً صارماً فوق رقاب رجال الخليفة.

كان يعرف بهزيمة «سليمان» أمام «العباس» لكن كانت تنقصه بعض التفاصيل الخاصة بالأعداد والأماكن والتجهيزات وما ورد من أخبار البطائح خلال الساعات الفائتة. كان يبتلع ما أقول كابتلاع الرمال الجافة لماء عابر.. لم يجبن «أوس» يوماً عن مواجهة جند الخلافة... بل كان يتحين لقاءهم، يحاول أن يرضي بذلك شهوة مُضطرمة داخله... يحاول أن يُخمد بها جذوة غاضبة مُشتعلة فلا تزيدها محاولاته إلا سعيراً.

***

تحركنا على عجلٍ لننضم إلى «سليمان» في موقعته الكبرى.

اللهم ثبت أقدامنا وارزقنا نصراً من لدنك يا الله يا رب العالمين...

بدأت السميريات في الإبحار خلال الأنهار الواسعة. كان في كل سميرية ثمانية من الرجال يتولى أربعة منهم التجديف وأربعة مُدججين بالسلاح ليتحول الجميع إلى مُقاتلين عندما يصلون إلى وجهتهم.

تحرك الرجَّالة والخيالة جهة الشمال في أعدادٍ ضخمة. فقد كان «بن طولون» الأمير في مصر يمدنا بالأسلحة والعتاد على نحو سري لمواجهة «الموفق» وابنه، فهو على خلاف معهم منذ سنوات مضت وذاك منذ أن حاول «الموفق» غزو بلاده على رأس جيش قاده «موسى بن بغى».. صحيح أننا كنا ندفع ثمن التسليح، لكنه كان دوماً كريماً معنا وكان يغدق علينا من عطائه ويُسرف في الهبات.

ركبت أحد القوارب مُفضلاً أن أكون مع الجناح البحري وأبقيت «أوس» على الجناح البري حتى نصل إلى واسط ونعيد ترتيب الصفوف.. دام بقائنا في النهر لساعاتٍ طوال حتى لاقانا على ضفاف النهر مجموعة من الرجال أشاروا إلينا أن نقترب. وقد أخذوا يهزون لنا بيارق نعرفها، أشرت للرجال أن يتوقفوا لأستطلع أمر من يشيرون إلينا بالاقتراب، فلما دنا منهم قاربي حادثني رجل فيهم اسمه «أدهم».. كان أسود اللون مفتول العضلات مُدَبَّب الذقن قد لمعت عيناه في ظلام الليل. أقرأني من «سليمان» السلام وأعلمني بآخر المستجدات الحربية الكائنة بين «سُليمان» و«العباس»، فلم أسترح لما سمعت وشعرت أن خسائرنا مُتفاقمة أكثر مما تصورت.

- يريد «سليمان» أن تكون المواجهة التالية بحرية.. فقد واجهناهم مرتين على الأرض فلم نستطع هزيمتهم، فلعل هذه القوارب أن تكون لنا عوناً على النصر.

طلب الفتي مني أن نكون في المقدمة حتى نوجه قواربنا إلى حيث نكمن استعداداً للقتال فاستجبت له. فصار الرجال في قاربنا يجدفون بوتيرة متسارعة حتى كانت لنا الصدارة على المجموع، وبعد أقل من ساعة كنا قد وصلنا إلى المكان الذي قصده الفتى.

ترجلت عن القارب وقد أصابني الدوار من جراء الاهتزاز الحاد المستمر للقارب. شعرت بالراحة أن لامست أقادمي الأرض وجلست وقد ركنت ظهري إلى أجمة ضخمة مائلة إلى النهر وجلس الفتى بجانبي...

- سوف نبدأ التحرك بقواربنا جهة مُعسكر «العباس» بعد أن ينتصف الليل. سنشن هجوما شاملا بواسطة الأسهم النارية والمقاليع الخفيفة على قواتهم الرابضة على ضفاف النهر على أن تبقى تحركات القوات الراجلة والراكبة مرهونة بما نحرزه نحن من تقدم.

كنت أسمعه يحكي عن تفاصيل الخطة المرسومة باقتناع تام.... لم يزل الدوار يلازمني فلم أقو على الرد. لكني شعرت أن للفتى دوراً رئيسياً في وضع تلك الخطة... فقد كان ذاك ظاهراً من قدر الحماسة التي أظهرها لِما يقول، كنت أشفق على نفسي أني سأقوم بركوب تلك السميرية ثانية، وهذه المرة سيكون الاهتزاز عنيفاً بسبب تلك المناورات البحرية التي لا بد هو قائم بها عندما تحين المواجهة.

عندما بلغت خواطري ذاك الحد ضحكت في نفسي من نفسي.. كيف أشفق عليها من دوار قد يصيبني ولا أجزع عليها من سهم نافذ أو غرق جائز. لكن يبدو أن الألم في أحيان كثيرة يكون أقسى من الموت. انتبهت مرة أخرى لما يقوله الفتى وهو يشرح تفاصيل خطته فإذا به يختم حديثه:

- لسوف أتركك تستريح فما هي إلى ساعات قليلة ونتحرك جهتهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ربَّت الفتى على كتفي وحياني بانحناءة خفيفة ثم انصرف من أمامي. وقررت أنا أن استغل تلك السويعات القليلة في نوم هانئ لاستفيق للأهوال القادمة.. أوليت ظهري للأرض وتلحفت السماء وأغمضت عيني، وساعد الدوار أن جعلني أخلد إلى النوم في سرعة غير متوقعة.

***

أفاقتني هزات خفيفة من جنبي، لأجد «أدهم» أمام ناظري. بدت أعينه لامعة ناصعة وقد اختفى ما بقى من جسده في ستر الليل. أوليته ظهري مرة أخرى وأغمضت عيني طامعاً في دقائق نومٍ إضافية، لكنه لم يمهلني وهزني مرة أخرى على نحو أعنف. فاستجبت لهزاته وقمت مُترنحاً إلى طرف النهر أغسل وجهي بمائه البارد وأمرره على قفاي وذراعي حتى استفاقت حواسي وشعرت بتحسن.

كانت القوارب على أهبة الاستعداد للتحرك. وبقى قاربي من القوارب القليلة المُتبقية، فصعدت إليه أنا و«أدهم» على عجلٍ فاهتز بنا القارب هزات عنيفة ثم هدأ. بدأت القوارب جميعها في نشر أشرعتها لتستقبل الهواء بصدرها وتدفعنا للأمام. انخفضت هامات الرجال داخل القوارب وكأنهم يتخذون من جنباتها ساتراً من أعين العدو رغم الليل الدامس الذي يغشانا، انتبه «أدهم» فجأة وأخذ يدق على أخشاب القارب دقات لها وقع مميز فالتقطتها القوارب من حولنا فتوقفت جميع القوارب، بدأ الرجال يطووون الأشرعة ويوارون السواري.. قال «أدهم»:

- أخشى أن يرصد العدو أشرعتنا من بعيدٍ فيكمنون لنا ونفقد عنصر المفاجأة. التجديف أسلم من الآن فصاعداً.

ابتلعت السميريات أشرعتها... وأبرز رجلين من كل طاقم مجدافيهما، كان في يد كل واحدٍ منهما مجداف يحركون به القوارب معاً في تناغم فني

ساحر.. ورغم حرصهم أن يكونوا أقل صخباً، فقد كان لتقليب المجداف في الماء صوتاً مميزاً طفيفاً.. صار الرجال أكثر تحفظاً وقبض كل منهم على نبله وحسامه.. تحفزت أنا الآخر ممتشقاً حسامي وقد جردته من غمده ببطء. فجأة التقطت الآذان أزيزاً من السماء فإذا أسهم من النبل المُشتعلة تنغرز في جسد القوارب وأجسام الرجال من حولنا، ساعد اشتعال الأسهم في تحديد مصدر الرمي، فإذا هم جماعات صغيرة على ضفتي النهر جهة اليمين واليسار يمطروننا بوابل من السهام.

وقف «أدهم» من بين الرجال وقد تلحف ترسه اتقاءاً للأسهم النافذة وصرخ فيهم...

- «عمّار» ومن حوله من القوارب فليطلقوا الأسهم جهة اليمين، و«صادق» وجماعته إلى جهة اليسار... الآن ولتحكموا الرمي.

ثم نقر «أدهم» فوق طبل كانت معه نقرات معلومة فهمتها السفن من حوله فتوقفت...

- لماذا توقفت ... أولى لنا أن نسرع فنفر من هذا الكمين.

- بل نتوقف، فما نصبوا لنا هذا الكمين إلا لآخر في الأمام سيجهزون به علينا.

كان على حق... لكن لسوء الحظ لم يمهلنا الوقت فُسحة للتصرف. كانت قد ظهرت بوارج عملاقة في الأفق تستعلن قدومها بواسطة مقاذيف حجرية ثقيلة تنطلق من مقدماتها لتصيب قواربنا بغير هوادة. انطلقت قطعة صخرية ضخمة لتصيب قاربي من الجانب الأيمن قاضمة كتلة كبيرة من أخشابه ليميد القارب بنا جميعاً مُلقياً إيانا في مياه النهر الباردة.

***

اسمي أدهم

267 هـ

لما سَقَّطُ في الماء طللت منه برأسي استشرف الأمر... فإذا الجحيم مشتعلاً...

بدت سفن العباسيين الآن قريبة وضخمة. كانت تقذف بحمم من اللهب لتصيب به قواربنا الصغيرة ساحقة إياها كما تُسحق صخرة كبيرة دودة زاحفة على الأرض. ولما عرف كُل منا مقام الآخر، بدأت سفنهم ترمينا بالمقاذيف المُشتعلة وكانت تتجنب استخدام الزيت في ضرباتها الأولى امعاناً في الاستخفاء.. كانت الحمم المنطلقة كثيفة لكن يعوزها دقة الرمي، غطست مرة أخرى وتخففت من حزائي وبعض ملابسي وسبحت جهة قارب «عـمَّار»... راجياً من الله ألا يُخطأني الفتى... فيقتلني ظاناً أني متسلل إلى قاربه.

وصلت إلى قاربه ودققت عليه بلطف حتى ينتبه إليَّ طاقمه. لحسن الطالع عرفني «عـمَّار» فمد إليَّ يده ساحباً، صعدت على متن القارب وبدأت في التخلص من بعض ملابسي وأغراضي الصغيرة فقد كانت تعيقني.. تناولت قوس وسهم من جندي في الجوار وشرعت أطلق على البارجة العملاقة. كان

يبدو ما أفعله هباءاً أمام تلك الرواسي العملاقة السابحة بثقة على هونٍ لتحصد الأرواح.

هُم الآخرون لا يستخدمون الأشرعة حتى يكون لهم قدر أكبر من التحكم في الاتجاهات بواسطة التجديف. كان هناك رجل يُصَّفِر بانتظام ليخلق تناغم بين كل تلك الأيادي المُجَدِفة. أخذ صفير الرجل يعلو فتتسارع المجاديف دافعة السفينة في اتجاهنا حتى نصطدم بها ونتهشم. فتركت قوسي وشرعت أجدف مع الرجال لنفلت من التصادم في اللحظة الأخيرة، رنوت بنظري إلى أعلى لأرى قائد تلك البراجة فإذا هو «نصير» لا يرفع أعينه من فوقي وهو يعطي تعليماته لرجاله بالاستدارة استهدافاً لقاربي تحديداً وكأنه ما بات يرى غيري...

عرفته وعرفني رغم الأمتار التي تفصلنا والظلام الدامس المحيط. كان وجهه يرتعش غضباً تحت ضوء الصخور الملتهبة المتوالية علينا. أردت بشدة أن أصعد إليه فأزهق روحه بيدي، لكني لم أكن أملك لذلك سبيلاً... فاكتفيت بالمناورة هرباً من محاولاته المُستَميتة للنيل مني.

رغم أن بوارج العباسيين كانت ثقيلة الحركة فقد كان لها ميزة لم أرها من قبل. فقد تم تزويدها بمجانيق ضخمة من طرفيها، بحيث لا تحتاج إلى استكمال دورة كاملة حتى تكون قُبالة هدفها. فقط نصف دورة من البارجة تكون كافية ليُحدق فيك أحد المجانيق القاتلة تحديقته المميتة، كانت حيلة حربية لم أرها من قبل.

منذ اللحظات الأولى أدرك الجميع أننا سنندحر، أخذت جميع القوارب تفر من أمام الوحوش العباسية الضارية وهي مستمرة في التهامهم الواحدة تلو الأخرى بلا هوادة.. كنت أنظر إلى «نصير» كثُعبان رطب محدق بي وب»بشرى»، كنت أريد القضاء عليه كي أحررها من الخطر فأجدها أنا بعد

حين سالمة وقد نحيت عنها كل تهديد.. لكن ما باليد حيلة فهو جاثم فوق بناء ضخم من المُستحيل حتى خدشه، المحاولة نفسها باتت انتحار مؤكد.

استمرت القطع النارية في الانهمار من فوقنا. فباتت أخشاب القوارب تتهشم ومن كان ينجو من ذلك لقربه من البوارج العملاقة كان يُدهس تحتها...

- فليقفز الجميع من القوارب، اتجهوا إلى الشط.

نصحت الجَمع من حولي وقفزت مباشرة في الماء بعد أن نظرت لـ «نصير» نظرة متوعدة أخيرة بادلني إياها بغير هوادة، قررت ترك القارب والغوص في الماء مُنغَمساً في سواد الليل. فقد كانت القوارب تمثل أهداف ضخمة للبوارج العباسية، التزمت بالسباحة تحت طبقات المياه الباردة. كنت أسحب الماء في شدات متتالية قبل أن ينفذ الهواء من صدري فأطل برأسي طلة خاطفة أنهل فيها من الهواء كي أعاود الغطس والسباحة تحت الماء مجدداً.

ساعدتني مهارتي في الماء من أن انفلت من رقابة نصير الصارمة. وعاكسه الظلام وضخامة سفينته وصعوبة المناورة بها.

وصلت إلى ضفة النهر لأرمق المعركة عن بعد. فإذا بنا قد أبيدت قواربنا عن بكرة أبيها ما بين غارق ومُشتعل وقد تناثرت جثث أصحابنا فوق صفحة النهر. لم يكن جواري سوى شرذمة قليلة من الرجال منثورين.

بدأت النبال والصخور المُنطلقة من العباسيين في استهدافنا على اليابسة.. هرع الرجال على ضعفهم يتوغلون داخل الغابات يستترون بالأشجار، لا أمل لهم غير النجاة بحياتهم. ركضت فيمن ركض أختفي داخل الغابات وما هي إلا أمتار حتى سمعت حوافر الخيل تدك بسنابكها الأرض الطينية

بـدوي مكتـوم. يبـدو أن معركـة شـبيهة تـدار عـلى اليابسـة.. فكـرت أنـه مـن الأفضـل إن بقيـت مـكاني إذ قـد تكـون الخيـل لجيـش الخلافـة وقـد اسـتطاعت النيـل مـن فرسـاننا بـراً كـما نـال أسـطولهم منـا بحـراً.

تخـيرت أجمـة سـميكة وأخـذت أراقـب مـن بعيـد مـا يحـدث.. فـإذا رجـال مـن الزنـج يعـدون بـلا ضابـط ولا رابـط وقـد أصيـب بعضهـم بجراحـات. مـر عـلى مقربـة منـي فـرس وقـد تعلقـت بـه قـدم صاحبـه اليـسرى وبقـى مسـحولاً مُتخَبطـاً بـين جـذوع الأشـجار المتناثـرة وقـد تشـوه وجهـه تمامـاً. بـدأت أعـداد الرجـال الفاريـن تقـل ودبيـب الخيـل آخـذ في الازديـاد ففهمـت أن جنـد الخلافة عـلى وشـك الظهـور فانطلقـت أعـدو مـع مـن يفـرون. كانـت تتناهـى إلى مسـامعي تأوهـات الرجـال الذيـن يدركهـم العـدو فيَحشـون الرقـاب ويحصـدون الأرواح، أخـيراً بـدأت المطـاردة في الانحسـار وكـف جنـد الخلافـة عـن مطاردتنـا وواصلنـا نحـن الهـرب متوغلـين جهـة الجنـوب.

بعـد عـدة سـاعات مـن التحـرك الـدؤوب نحـو الجنـوب. بـدأ الرجـال في التجمـع فقابلـت أحـد قـواد الجيـش، يقـال أنـه صاحـب لـ «بـن أبان» قد سـمعت اسـمه أكـثر مـن مـرة في السـابق، فهـو «بـن البحـراني» الـذي مَثَـلَ بـه الخليفـة بسـامراء وأنـه أحـد المُقربـين لـ «عـلي» كان شـارداً ناقـماً في جلسـته. اقتربـت منـه فلـم يحفـل باقـترابي، حاولـت أن اسـتفسر منـه مـا حـدث معـه عـلى اليابسـة لكـن الغضـب كان متمكنـاً منـه، فـكان يـدق بمقبـض سـيفه الأرض ويقـول:

- قـد كمَّـنَ لنـا أولاد الزنـاة، فنالـوا منـا مـن حيـث لا نحتسـب، ولـولا ذاك لنكحناهـم وسـوينا بأبدانهـم النجسـة الأرض.

تركتـه وقـد أدركـت عـدم جـدوى مجالسـته، فقـد كان يدمـدم غضبـاً. سـألت عـلى «سـليمان» فأخـبروني أنـه خلـف تلـك الربـوة البعيـدة التـي زادها العشـب والأشـجار ارتفاعـاً، ترجلـت وحيـداً وقـد اسـتبدت بي الخواطـر، رغـم كل الأهـوال

الواقعة بقى مشهد «نصير» مُستشرفاً بارجته كثعبان مُتأهب متصدرة كل تفكيري، ليتني كنت وطأت رأسه وكفيت «بشرى» شره.

تأهبت جماعة «سليمان» عندما سمعوا دبيب خطاي، فلما برزت من بين العشب والأشجار عرفني أصحابه فسمعت اسمي يتردد بينهم يطمئنون بعضهم بعضاً.. نزلت على وهنٍ وسألت عن «سليمان» فأشاروا إلى رجل ينام على حرفه وقد أولى ظهره للجميع وجعله قبالة جذع من الشجر، هززته فاستدار بجسده والتفت إليَّ ببطءٍ... عرفت مرارة الهزيمة على وجهه، كان زاهلاً مُستسلماً.

- كيف حالك سيدي؟

لم يرد وصرف وجهه حيث كان وبقى على صمته وقد أولاني ظهره، احترمت حزنه لدقائق وعاودت الكرة:

- أذكر الله يا «سُليمان»، «إن يمسسكم قرحٌ فقد مس القومَ قرحٌ مثلهُ وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذينَ آمنوا ويتخذ منكم شُهداء والله لا يحُبُ الظالمين»

بقى على حاله لوهلة حتى ظننته لن يجيب، لكنه خالف توقعي فرد قائلاً:

- لم نهزم اليوم، بل تم التنكيل بنا.. حتى لم تكن لنا القدرة على صد النذر اليسير.

خرج صوته مشروخاً وكأنه يغالب مدامعه فكدت أبكي أنا الآخر حزناً إلى ما أصبحنا عليه ورقة لحال أستاذي الذي طالما كنت له الاحترام، ربَّت على كتفه وجلست أرقب تلك التلال التي نزلت منها بحزن جارف لا أستطيع التفكير في شيء.

***

أنا علي

267 هـ

مـرت سـنوات وسـنوات منـذ أن بـرزت ضـد العباسـيين، سـنوات كثـيرة مضـت وقـد تبـدل فيهـا قلبـي مـن حـال لحـال، كنـت في قمـة الإخـلاص في البدايـات، فقـد كان قلبـي يتمـزق لمـرأى ذاك الفتـى وقـد انكـب عليـه وكيلـه يذيقـه سـوء العـذاب بغـير أن يجـرؤ أحدهـم عـلى دفـع الظلـم عنـه. تأثـرت لإنسـانية ذاك العبـد المُهـدرة وثُـرت لأجلهـا. كانـت دوافعـي كلهـا خالصـة للـه تعـالى بغـير أن تشـوبها شـائبة، توالـت الأيـام وتراكـم عنـدي الرجـال والعتـاد. لم يكـن هنـاك بُـد مـن إظهـار القـوة والأبهـة حتـى يتبعنـي النـاس، فـلا خـير فيمن لا يعـي دروس الأولـين. ألم يكـن عـلي كـرم اللـه وجهـه مـن المُخلصـين؟ ألم ينبـذ الدنيـا انتصـاراً للديـن؟ فهـل كانـت لـه الغلبـة في النهايـة؟! قـد اسـتطاع معاويـة أن يُجيـش ضـده الجيـوش ويحيـك حولـه المؤامـرات ويُرَغِـب النـاس فيـه حتـى انـصرف عنـه أصحابـه وراء مغريـات الدنيـا وخيراتهـا، فقـد كان الجميـع يعلـم أحقيـة «عـلي» في الخلافـة لكـن أكثرهـم مـال إلى «معاويـة» لسـبب مـن أسـباب الدنيـا. فقـد وعـد «معاويـة» «بـن العـاص» ولايـة مـصر. وأخـذ يعـد ويمنـي مـن حولـه حتـى اتبعـه أكـثر النـاس، لا أحـد يرغـب في بضاعـة يسـمع عنهـا ولا يراها،

الكل ركع أمام مغريات الدنيا وشهواتها، هي فاتنة ساحرة مغرية قل من ينجو من تعويذتها الملعونة. قد وعيت الدرس وأردت أن أكسب الناس بأن أمنيهم الدنيا وأنا أضع الآخرة أمام ناظري، أردت أن أحرك الجموع من حولي باستخدام عصا الدنيا السحرية فأوجههم بها إلى الآخرة...

لم ينبهني أحد أن من يمسك بالعصا السحرية قد يصيبه من منها بعض الفتن. فقد وقر في نفسي ضرورة أن يكون لي قصر وأموال ورياش... كي أظهر بمظهر القادر المُمسك بزمام الأمور... ففاقد الشيء لا يعطيه، كانت لي زوجات وجواري؟ ورزقني الله منهن ببنين وبنات. وتخيرت لنفسي قصراً بالمختارة قد أحطه بقصور أصحابي، فتسللت الدنيا إلى قلبي من ثقب لا أعرفه، فشاب إيماني بعض الشوائب وعلقت بهمتي بعض الفتور.

«سعدية» هي زوجتي الأولى هي من تحملت معي مغامراتي غير المحسوبة. كان من حولي يرون فيما أفعله ضرباً من الجنون، لكن وقتها كنت شديد الإيمان بعدالة قضيتي. وكانت حماستي كالعدوى تنتقل لمن حولي فيصيبهم بعض منها وإن آبوا.. شدت «سعدية» من أزري وتحملت معي الصعاب وتعرضت وبنيها لأخطار الحروب وذل الأسر لكنها لم تفقد إيمانها بي يوماً. ورغم كل تلك الهزات التي تعرضت لها في رحلتها الطويلة معي فلم يزعجها حقاً غير أني تزوجت بغيرها وتسريت بالنساء. تبدل حالها معي وقتها، ولم آبه لحينها، فقد حدثت نفسي أن ذلك شأن النساء دائماً، لم أكن أدرك كم تتألم عندما استدفئ بفراش غيرها. كان شغلي الشاغل وقتها القتال والانتصارات التي كنا نحققها في الجنوب، وكنت أحدث نفسي أني في يومٍ لن أبقَ للنساء ولا للأولاد، وإن مِتُّ ... كلٌ سينساني لا محالة بعد أسابيع أو شهور، فلا يجب أن يتعلق قلبي بهن حتى لا أجبن عند النزال. وكأن تسريتي بالنساء واستمتاعي بهن يزيل من صدري توترات المعارك وخوفي من الموت. كأني أنهل الآن من نعيم الدنيا فلا ضير إن مت بعد أن أفرغ شهوتي.

بالتأكيد كنت أشعر بالاستمتاع التام والنشوة المجنونة مع «هند» تلك الفتاة الصغيرة التي تسريت بها منذ سنوات مضت. ذكية، تعلم كيف تجعلني راغبٌ فيها ما دام الدهر. وكأنها تسللت إلى عقلي وامتصت من رحيق نفسي لتصير حُلماً مجسداً. لكنها أبداً لم تفلح أن تُثبت ولاءها الكامل لي، دوماً كنت أشعر أن لها مآرب أخرى، وللعجب فقد كان هذا الأمر يزيدها إغراءاً في نظري... وهي كانت تعلم.

وعندما شعرت أن قلبي بدأ يتعلق بـ «هند» قررت أن أتزوج بامرأة أخرى حتى تكون لي. وأتى أن يتعلق قلبي بالأرض ويسهو عن ترانيم السماء، فكانت «فائزة» السمراء الصغيرة ذات التفاصيل الدقيقة والجسد الممشوق اللامع. فنجحت الحيلة التي أعددتها لنفسي وزهدت «هند» بقدرٍ.. كلما زهدتها بقدرٍ مالت هي لي بالقدر نفسه حتى بقيت منها على مسافة آمنة تحقق لي الصفاء الذهني والتفرع لشئون الحرب. ورغم أني تزوجت «فائزة» آملاً منها في حب وولاء كذلك الذي لاقيته عند «سعدية» فقد كانت إلى «هند» أقرب وكانت ترى نفسها مُنتصرة عليهن جميعاً فقط لأني اخترتها بعدهن، فقد قالت ذات يومٍ...

- بالطبع لا أغار مِنهما، فقد اخترتني بعدهُن لشيء لا يملكانه وقد وجدت ضالتك فيَّ.

اليوم ورغم كل شيء أجدني في قمة الخوف عليهن وفي أكثر حالاتي تشبثاً بالحياة، الآن وأنا أشعر بالموت يحوم من حولي ينتظر اللحظة المناسبة ليلتهم روحي المُعذبة.. ضاق عليَّ الحصار وبات جند الخلافة يحيطون بي من كل جانب قد انهزمت قواربنا أمام بوارج العباسيين وتم إبادتها عن بكرة أبيها وما بقى منها استولى عليه «العباس بن الموفق» وفر «سليمان بن جامع» و «بن أبان» وشرزمة من الناجين إلى سوق الخميس حتى

استقبلتهم أنا ها هنا في المنيعة. سيُعطل ذلك «العباس» عن مطاردة «سليمان» وأصحابه لوقتٍ معلوم، فالمنيعة من أقوى المدن التي استطعت بناءها لتكون لنا وجاء من العباسيين.. فهي تشبه المنصورة والمختارة في دقة البناء وشدة التحصينات، قد أهلكت أموالاً طائلة في بناء تلك المدن الثلاث حتى يمكننا الاحتماء بها في أيامٍ مثل تلك.

توالت الخواطر المُحزنة في نفسي فشعرت بوحشة شديدة وكأن كل ما هو طيب في هذه الحياة قد رحل فجأة. لم أدر بنفسي إلا وأنا متجه إلى حيث «سعدية» زوجتي الأولى، فإن خذلني العالمين... فلن تخذلني تلك المرأة، ولإن قست عليَّ فذاك لها.

دخلت عليها فعَرَفَت السوء في وجهي...

- ما بك يا «علي»؟ هل استجد مكروه؟

جلست على مقعدٍ بجانب باب غرفتها وأنا أتحاشى النظر إلى عينيها:

- الأمر كما تعلمين، وما هي إلا أيامٍ قلال حتى يجمع «العباس» صفوفه ويحاول اقتحام تلك المدينة علينا.

تركت «سعدية» تلك الملابس التي كنت تطويها وانتبهت إليَّ جالسة جانبي وقد هالتها حالتي:

- لكننا في المنيعة يا «علي»، وأنت أدرى مني بتحصيناتها.

- قد خالف «العباس» جميع التوقعات، لم أعد أؤمن بحصانة شيء.

اقتربت مني أكثر وربتت على فخذي وحدقت في عيني، فنظرت لها باستحياء:

- تشجع يا «علي» ولتظهر بعض الجلد لرجالك حتى يستطيعون الصمود، أتَذكُر عندما بدأ الأمر كله... كنت أنا من أشد المعارضين له

ونصحت لك أن تتخلى عنه وأن نرحل بعيداً.. كنت أذكرك أن معاداة الخليفة العباسي وحاشيته من الأتراك لهو انتحار مؤكد، أتذكر ردك عليَّ وقتها؟

كنت أستمع إليها باهتمامٍ وقد استغرقني حديثها فلم أرد:

- وقتها قلت لي أنك ما انتفضت لنفسك وأنك انتفضت لله.. أنك ثرت من أجل الكرامة الإنسانية المُهدرة وتشويه الدين وتزييف تعاليمه. قلت أنه قد مضى قرابة ثلاث قرون على بعثة سيد الخلق... ونحن الآن على صراطٍ لا يرضاه، وكأن الشريعة حُرِفَت فلم تعد تؤدي وظيفتها.

لم أتمالك نفسي فقد كانت العبرات تنساب من عيني بغير أن أشعر، احمر وجهي وشعرت بالمخاط يسيل في أنفي، كنت أمر بلحظة مُصارحة شديدة النقاء.

- وقتها لم أجد في نفسي قوة الرد عليك، فقد استشعرت الإخلاص من صوتك وهيئتك، كنت كمن نَزَلَ عليه وحياً وأنك لا بد مُتبعه، فقط لانت عزيمتك وخف يقينك وتسللت الدنيا إلى قلبك بتوالي السنون والنيل من متاع الدنيا، تُب إلى الله يا حبيبي وتذكر أيامك الأولى ولتقتبس من جذوة إيمانك الغابر قبس تستضيء به لتُكمل الطريق.

انهمرت أدمعي أكثر فأكثر وصار لبكائي نشيج:

- فلتظهر البأس يا «علي» ولتقاتل من أجل ما آمنت به دوماً، ولا تجزع من شيء، فالمصير واحد مهما تعددت بنا الطرق، فلتحياها حياة طيبة ولتكن مشيئة الله.

قبلت يدها عرفاناً وبللتها بالدموع، فقد التقطتني ضائعاً لتضعني ثانية على قارعة الطريق، ربطت على ظهري وداعبت شعري وقبلتني لأستكين، رفعت عيني إليها فوجدتها تبكي هي الآخرى.

***

أنا نصير

صفر 267 هـ

قـد أثبـت «العبـاس» عبقريـة حربيـة فـذة. كنـا قـد اسـتطعنا الانتصـار عـلى الزنـج والثبـات لهـم رغـم وعـورة الأرض واختـلاف التضاريـس، والحـق يقـال... لم يكـن الفتـى عجـولاً ولم أعهـد فيـه اندفاعـاً يـوشي بالخطـر. فقـد كان عاقـلاً مُتدبـراً راسـخاً. ووجـدت نفـسي بمـرور الوقـت أسـلم لـه بالقيـادة وأعـترف لـه بالفضـل.

ورغـم ذاك الانتصـار العظيـم الـذي حققنـاه عـلى الزنـج فـلا زلـت أجـد في نفـسي لوعـة وضيقـاً. كان يشـغلني أن أظفـر بـذاك العبـد الـذي يمنـع «بـشرى» عنـي. لـو كنـت ظفـرت بـه لم أكـن لأبـالي بنـصرٍ أو هزيمـة. فقـد أصابنـي حبهـا بلوثـة عقليـة، فصـارت كل الأشـياء نسـبة إلى «بـشرى» ذريـة لا قيمـة لهـا.

فـر قـادة الزنـج وكبرائهـم إلى تلـك المدينـة التـي أنشـأها خبيثهـم ويسـمونها المنيعـة، حقيقـة قـد اجتهـد الخبيـث في بنائهـا وتحصينهـا، فقـد وقفنـا عـلى أبوابهـا مُترددِيـن لأيـامٍ بغـير أن نجـرؤ عـلى التقـدم خطـوة. طلبـت مـن «العبـاس» غـير ذات مـرة أن يسـمح لي باقتحامهـا عليهـم عـلى رأس جيـش قـوي... لكنـه تـأبى قائـلاً:

- يبدي الخبيث مقاومة شرسة ويستميت في الدفاع وقد ظننته انكسر.

يقول «العباس» أن قوات جيشنا الآن في روح معنوية عالية وأن الأساطير حول وحشية الزنج وقوتهم قد تبددت... وأنه لا يريد استدعاء روح التخاذل بين جنوده أن انتصر عليهم الزنج لمرة، كان يريدها انتصارات متوالية حاسمة حتى نقضي على ذاك التمرد. كان يتحدث الحق... لكني كنت أعرف أن «أدهم» يختبئ خلف أسوار تلك المدينة وكان يغيظني ويؤرقني أن أعرف مكانه بغير أن تستطع يدي النيل منه. كنت أريد استنفار القتال بأي ثمن قبل أن يهرب الفأر من جحره الذي اندس فيه. لكن «العباس» لم يتزحزح عن موقفه.

- يجب أن تكون هجمتنا قاضية، فلن نهزم بعد اليوم. لسوف ننتظر أبي حتى نُحكم هجمتنا عليهم.

إذاً سيكون علينا الانتظار لأيامٍ آخر حتى يأتي «الموفق» ونستطيع اقتحام منيعتهم، وأستطيع إخراج الفأر من مكمنه وسحقه بحذائي.

مرت الأيام التالية طويلة مليئة بالتوتر والقلق.. كثيراً ما كنت استيقظ من نومي أتأمل أسوار المنيعة، أحاول أن أخترقها بعيني فأطلع إلى مكان فريستي فاتجه صوبه مباشرة يوم تسقط عن المدينة أسوارها.

أخيراً أتى الموفق صحبته مدد... فعسكر جنوده مع جنودنا، ودخل وابنه صحبة عدد من القوات لاجتماع مغلق خرج على أثره «الموفق» وابنه يجولون حول تحصينات المدينة وأبوابها.. في المساء أرسل «الموفق» وابنه في طلبي فأتيتهم.

لم يُسمح لي بالدخول ودخل الحاجب يخبرهم أني حضرت. بعد دقائق خرج عليَّ «الموفق» ثم ابنه ثم نفر من القواد، حييت الأميرين ثم تقدمت في أثرهم واعتليت جوادي مُحتذياً بهم.

- يا «نصير».

لكزت الجواد في صدره ليحث الخطى حتى حازيت جواد «الموفق»:

- لبيك يا مولاي.

أشار بأصابعه إلى جهة مكشوفة من المنيعة كثيفة الأشجار يتخللها نهر واسع.

- بعد طول تدبر ومشاورة قررنا أن يكون هجومنا من تلك الجهة.

تنحنحت مُتخيراً ألفاظي:

- لكن تلك منطقة وعرة، ومن المؤكد أن رجالات الزنج قد كمنوا بها وصنعوا خلالها الفخاخ تأهباً لأي هجمة تأتي منها.

نظر «الموفق» إليَّ في حين ما بقى «العباس» جامداً يعاين موضع إشارة أبيه بعينيه، هو لم يفاجئ مما قيل، يبدو أن جميع ذلك مُتفق عليه في السابق.

- بالطبع معلوم لدينا جميع ما تقول يا «نصير».. الأمر أن تبدأ أنت بالهجوم صحبة عدد من القطع البحرية خلال هذا النهر الواسع، فتتحرك نحوك شراذم رجالات الزنج المختفين بين الآجام فنبرز نحن لهم من خلفك إلى اليابسة فنبيدهم عن بكرة أبيهم.

امتقع وجهي مما يقوله الأمير الأب. سوف يتم استخدامي كطعم مرة أخرى لاصطياد الحشرات المقززة، وكأني الفدائي الوحيد في عسكر بني العباس، أريد أن أعيش... أريد أن أكون بجانب «بشرى» لا أريد لنفسي الموت فأتركها لذلك الصرصور يزحف فوق جسدها، تلاحقت تلك الأفكار داخلي لكن أتت عباراتي لتخالف قناعاتي:

- سمعاً وطاعة يا مولاي.

لاحظ هو امتعاضي.. لكنه لم يُعلق، واستمر في إبداء الملاحظات حول أسوار المدينة وتحصيناتها شارحاً لكل قائد دوره الذي سوف يلعبه خلال الساعات القادمة.

***

كانت الشمس تلوح في الأفق عندما تحركت بوارجنا خلال النهر تشق الماء بخفة ويسر.. أما أنا فبقيت عيني مُعلقة بالأحراش على ضفتي النهر. فقد كنت أعرف أن تلك الحشرات السوداء عالقة بأشجارها وأن تحرك البوارج في النهر سيثيرها فتخرج من مخابئها.

صدق حدسي... فما هي إلا لحظات آخر حتى اهتزت الأشجار حول ضفتي النهر. وتناهت إلى مسامعنا صرخات الرجال المُحذرة، وما هي إلا لحظات أخرى حتى تبدت الحشرات من خلف الأشجار وشرعوا في رمينا بسهامٍ هزيلة. فصرخت في الرجال من حولي كي نكف عن التقدم وتحويل اتجاهنا بمقدار 90 درجة لتواجه المجانيق المُثبتة في مقدمة ومؤخرة البوارج ضفتي النهر. وما أن ثبتت البوارج حتى بدأنا في قصف الأجناب فتناثرت قذائفنا الصخرية المُلتهبة لتحرق الأشجار وما علق بها وهم يصرخون دهشة وألماً، قمنا بتعديل وضعية بوارجنا مرة أخرى لنتقدم حثيثاً وكلما تبدت لنا جماعات منهم بادرنا بتحويل اتجاهنا ثانية لنقصفهم ونُحرِّق الأرض من تحت أرجلهم.

هنا تحركت جحافل «الموفق» عن يميني و«العباس» عن يساري تنهب الأرض نهباً وتدهس من بقى من شراذمهم وتتقدم سابقة بوارجي وأنا أحاول أن اسبقهم بالحمم النارية، فقد كنت أوجهها الآن إلى الأمام مُستهدفاً هيئات أرضية في عمق المدينة نفسها.. كانت صرخاتهم المُلتاعة تصلني من بعيد، فصرت أكثف من القذائف... أوجهها إلى بيوت أظن

أن «أدهـم» كامـن مختبـئ بهـا. تعالـت الصرخـات وتوالـت القذائـف وتقـدم الأميريـن عنـي يميني ويسـاري حتـى اسـتطعنا الاسـتيلاء عـلى المدينـة، وفـر مـن بقـى مـن الرجـال إلى البطائـح والآجـام. بالغـت في مطـاردة مـن بقـى مـن الرجـال واجتهـدت في اصطيادهـم خوفـاً أن يكـون صيـدي بينهـم حتـى نهـرني «العبـاس» وأمـرني ومـن معـي بالعـودة.

رجعت مُتلهفاً أعاين جثث القتلى عسى أن أجد بغيتي بينهم...

كلـما تطلعـت في وجـه مـن الوجـوه السـوداء أصبـت بالخيبـة. يبـدو أن الكابـوس قـد تحقـق وفـر صيـدي مـع مـن فـروا خـلال الآجـام والـزرع.

اسمي سليمان

10 ربيع الآخر 267هـ

مـر يومـان عـلى تلـك الهزيمـة المُفجعـة التـي كالهـا لنـا «المُوفـق» وابنـه. وسـقطت درة مـن الـدرر الثلاثـة التـي بناهـا «عـلي» وبـالا لنـا مـن العباسـيين.

تتناقـل الأخبـار أن «الموفـق» الآن ماكـثٌ في المنيعـة وقـد بطـم خنادقهـا وأخـذ يسـتزيد مـن الآلات والمجانيـق والمعـدات الحربيـة حتـى يسـتطيع اسـتكمال مسـيرته في أثرنـا. لكـن هيهـات أيهـا «الموفـق» فـما قدرتـم علينـا يـوم كنـا كُـثر، فلـن تقـدروا علينـا اليـوم عـلى مـا نحـن فيـه مـن عـزة وقـوة. ولعـل تلـك الأيـام التـي نكابدهـا الآن مثلهـا مثـل أيـام أُحُـد التـي عاصرهـا الأولـون ليمحصهـم اللـه ويتخـذ منهـم شـهداء، هـي كبـوة سـوف نسـتفيق منهـا لنصـير أقـوى، فـما لم يقصمنـي يقوينـي...

انتبهـت فجـأة مـن أفـكاري وقـد أصابتنـي لدغـة في سـاقي التـي انحـصر الـسروال عـن بعضهـا.. فوجـدت حـشرة سـوداء بشـعة المنظـر تمـص مـن قدمـي بنهـم. اعتدلـت مـن متـكأي وهويـت بكفـي عليهـا غـير آبـهٍ ثُـم مسـحت موضعها ببعـض الحشـائش نزعتهـا مـن حـولي، قمت لأغتسـل من نومتـي في أحـد البحيرات القريبـة وصليـت ثـم رجعـت إلى الرجـال اسـتحثهم السـير إلى «المنصـورة».

أخذنا نسير في جماعات يسبقنا رهطٍ صغير يستطلع الأرض ويؤمن لنا المسير.. كنت قلقاً على نسائي وأولادي. فلم أكن أخف على نفسي من الموت، فكنت أخوف ما يكون عليهم. فقط كنت أرتعب من التعذيب والإهانة قبل الممات. علهم إن ظفروا بي أن يُذيقُنني ميتة كميتة البحراني في «سامراء».. حاولت أن اتسرى عن تلك الخواطر المُهلكة فتحدثت إلى»أدهم» وقد كنت أثق فيه كثيراً:

- هل زرت «المنصورة» من قبل يا «أدهم»؟

أومأ لي الفتى أن لا... كان يبدو هو الآخر ساهماً وقد استبدت به الظنون.

- قد بناها «علي» منذ سنوات مضت، وهي أحصن وأمنع من «المنيعة» التي سقطت في يد الموفق. حول المدينة خمس خنادق واسعة لا يستطيع أمهر الفرسان أن يتخطى إحداها إلا أن يخر داخله ساقطاً. خلف كل خندق من تلك الخنادق سور منيع يُمكن للرجالِ أن تصطف خلفه فترمي من خلفه أولئك الذين سقطوا في الخنادق. يعتبر اقتحام تلك المدينة ضرباً من ضروب المستحيل.

هز الفتى رأسه بهدوء مُطمئناً ثم قال:

- قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا... هو مولانا وهو أرحم الراحمين.

كانت السكينة تقطر من بين أحرف عباراته. وكأنه سلم أمره لله تسليماً وقد رضي بقضائه فيما ستجري به المقادير.

ظاهر الأمر اطمئن الفتى بمناعة «المنصورة» وعظيم بنائها. وفي حقيقة الأمر كنت أنا من يُطَئمن نفسه بالحديث عنها، وكأن روح الفتى الشفافة قد رصدت ما بنفسي من قلق وهم فأراد أن يُطَمئنني باليقين الذي أنزله الله عليه. أجبته أكثر وعظمت في نفسي مكانته وأحببت أن أتعرف عليه أكثر:

- عـلى طـول المغـازي التـي قمنـا بهـا، وكـثرة الإمـاء التـي أغنمنـا اللـه إياهـا. مـا رأيتـك قـط تشـتهي إحداهـن لنفسـك... وأنـت شـاب وسـيم وافـر الصحـة، هـل قـام المجرمـون بإخصائـك؟

نظر إليَّ نظرة من يكتم في نفسه أمراً يتردد في الإفصاح عنه، ثُمَّ قال:

- تَعـفُ نفـسي أن أتـسرى بامـرأة قُتِـل رجلهـا تـواً وأنـا أعلـم أنهـا تكرهنـي أني كنـت قاتلـه، فكيـف لي أن أعـاشر مـن كان ذاك حالهـا!

- لكن مُنهن من يأتين راغباتٍ يا أخي.

بادرني هو السؤال ناظراً إليَّ:

- جميـع خاصتـك يعلـم مـدى تعلقـك بنسـائك وأولادك. فلـمَّ تسـتكثر مـن الـسراري عـلى شـدة تعلقـك بأهـل بيتـك.

نظرت له مبهوتاً لوهلة ثم آثرت الصراحة:

- هي العادة يا صاحبي، ثم أني لم ارتكب ما يغضب الله...

شـعرت أني قـد أثقلتـه، لكنـي وجدتـه وقـد اسـتمر في حديثـه قائـلاً بصـوتٍ مهموم:

- وكذلـك أعداؤنـا... يظنـون أنهـم لم يرتكبـوا مـا يُغضـب اللـه.. يبـدو أن مـا يغضـب اللـه ويسـعده يحتـاج إلى اسـتفتاء النفـس وتدبرهـا، فالاعتـماد عـلى فتـاوى الفقهـاء محفـوف بالظـن والاجتهـاد الـذي لا يرتقـي أغلبـه إلى مرتبـة اليقـين.

لم أفقـه كثـير مـما يقولـه الفتـى، فقـررت أن أغـير ضفـة الحديـث فأبـث لـه عـن بعـض مـا يقلقنـي:

- لا أهاب الموت يا «أدهم»، لكن خوفي على آل بيتي يكاد يرديني...

- هُـم الآن في «المختـارة» عاصمتنـا المجيـدة، ومـا أظـن جنـد الخلافـة

يستطيعون النفاذ إليها إلا بعد أن تقع «المنصورة» بين أيديهم، وهو أمر على ما تقول بعيد.

وجدت نفسي أرد بحدةٍ:

- بل هو أمر مستحيل، لن يستطيعوا النفاذ إلى سور واحد من أسوارها ما عنَّ لهم من قوة.

من المستحيل عليهم اقتحام المنصورة.. أنا لو قدت جيشهم فلن أجد لتلك المدينة سبيلاً، فأسورها عالية وخنادقها غائرة ورجالاتها وافرة. لم يكن للمنصورة خندق واحد واثنان بل خمسة، يلي كل خندق منهم سور شاهق. لتكون للمدينة خمس أسوار بخمس خنادق خلف كل سور مجموعة من أخلص الرجال يزودون عن مدينتهم بكل ما أوتوا من قوة. فأنا في الأساس والي المنصورة وأعلم الناس بأهلها والجيش الرابض تحت يدي.

أخذت أفكر في كل أسباب النصر أشجع بها نَفسٌ قد خذلها الشك. لكن فجأة بدت سحابة سوداء في أفق نفسي تتصدر المشهد... أبنائي وزوجاتي في تلك المدينة، ولئن اقتحموها علينا لسوف يسبون نسائي ويذبحون أبنائي.. شعرت بدقات قلبي تتصاعد عندما حلت تلك الأفكار السوداوية بدهاليز مخي، باثة الرعب في نفسي نافثة روح التخاذل في أنحائي. شعرت برغبة ملحة أن أذهب إلى الخلاء، فقد كانت أمعائي تتصارع داخلي وكأني أسقيتها شراب الجنون.

فكرت أن أقوم بتهريب النساء والولدان خارج أسوار المدينة، فأرسلت الرجال خلال الأيام التالية لاستطلاع مُكنة الأمر، لكن كان ذاك بلا جدوى... فقد أحاط «العباس» وأبيه بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم، فلم يبقَ منفذ آمن. عدت أطمئن نفسي فاقتحام المدينة أمر مستحيل مع كل تلك

التحصينات التي جهزناها على مر السنين، من المستحيل عليهم اقتحامها علينا.

وصلنا إلى المدينة ودلفت إلى قصري هائماً وجلست أتناول طعام شهي بلا شهية، لاحظت زوجتي عزوفي عن الطعام...

- لماذا لا تأكل يا «سليمان»، ما بك؟

دفعت الصحاف من أمامي في عنف فطال ملابسها بعض الطعام:

- سألتيني مرات ومرات والإجابة نفسها لا تتبدل... لا شيء... لا شيء.. اتسعت عيناها في ذهول وهي تنظر إليّ في غير تصديق، لم أحتمل نظرتها... فقمت من أمامها مُغاضباً واتجهت صوب جناحي مغتاظاً لا ألوي على شيء، عاودتني رغبة ملحة لدخول الخلاء.

ساعات مضت استفقت منها على استئذان «أدهم» أن يدخل عليَّ فسمحت له بغير التفات، ومع ذلك شعرته يحملق فيَّ بغير أن يحيد:

- للأسف لا يوجد منفذ حول المدينة كلها يمكن النفاذ منه. فرجال «العباس» موزعين حول المدينة في مواقع فارقة، يجب أن نصمد في مواقعنا لا محالة.. وبعون الله ستكون مهمتنا يسيرة مع كل تلك التحصنات المُحيطة بالمدينة... ورغم أني فشلت في إيجاد منفذ لذويَّك أن ينفذون خلاله. لكني وجدت أيضاً أن تحصينات المنصورة شديدة ومُعجزة ولن يستطيع كائن كان اقتحامها علينا.

كان «أدهم» واثقاً مؤمناً فأحببته أن يلبث جواري في الفترة القادمة، وأبقيته أستوثقه أسباب النصر، بعد حين أنهيت الحديث بنبرة العليم:

- إن شاء الله يا «أدهم» إن شاء الله... فلتسترح الساعات القادمة بعدها تمر على تحصيناتنا مرة أخرى.

أومأ برأسه مُطمئناً ثم انصرف عني. لم ألبث بعده غير قليل فقد بات جسدي عصي على الراحة لا يريد أن يطاوعني لأدخر بعض الجهد للأيام التالية أو ربما السويعات القادمة. تمنطقت حسامي وانطلقت أطمئن على الرجال ومواقعهم، لم أرد أن أنفرد بأبنائي ولا بنفسي حتى لا تتداعى عليَّ الأحزان.. وهيئت نفسي أن السبيل الوحيد لحمايتهم أن أنتصر على أولئك الأجلاف الملاعين، أشرفت على توزيع الطعام على الجند الرابضين بالثغور، ثم اجتمعت بقادة الجيش في بلاط قصري، فجلست وجلس عن يميني «بن أبان» وأمامنا «أدهم» و«أوس» و«عمار» وغيرهم:

- بسم الله الرحمن الرحيم، مرحباً بقادة الجيوش وخاصة الرجال... جَمَعتكم اليوم لأمر غير خافٍ عنكم، فالعدو من حولنا مُتربص بنا وعلينا دحره الآن لحماية أرواحنا ومُمتلكاتنا وأعراضنا، فتلك الأرض تحمل أعز ما نملك، ولئن هزمنا في هذا المقام فلن تقوم لنا قائمة بعدها.

مكثتُ أرقب وقع كلماتي على الجمع من حولي. فإذ بأعين يملؤها الحماسة والثقة والتصميم. جال في ذهني لوهلة أن أياً منهم قد يكون أحق بمقامي هذا مني، فأنا أعوِّزَهم إلى من يطمئني. طردت هذا الخاطر الجبان في سرعة خشية أن ينفلت من داخلي ويطل على من حولي وأخذت أرمق الجمع في شدة مُصطنعة.

تنحنح «بن أبان» عن يميني قائلاً:

- من خلال الاستطلاعات التي قمنا بها فجند «العباس» لا يرتكزون في محلة واحدة. بل هم مُتفرقون على كمائن متشظية حول المنصورة، ويمكننا التسلل حول الآجام مستغلين معرفتنا بطبيعة الأرض للوصول إليهم والنيل منهم .

استحسنت ما يقوله «بن أبان» وتأملت الوجوه من حولي فوجدتها

راضية مما قيل، بل وخلت «أوس» وقد تقوس جسده مُتشنجاً لوهلة على نحو عجيب كمن أصابه مس من الجن، تجاهلته وباركت اقتراح بن إبان على أن ينظم هو تحركات المجموعات، فضضت المجلس في سرعة فقد كانت الرؤى من حولي مهتزة وجفاف حلقي يجثم على روحي، أشعر بانفلات الأمور جميعها من حولي، وكأني أرقب نفسي في أحداث أعايشها قدراً بغير أن يكون لي دوراً حقيقياً فيها.

في الأيام التالية تم تنفيذ ما اقترحه «بن أبان». قد تحركت الحملات المُنظمة لتنال من جند «العباس» وكان الآفلون منها يستعرضون غنائم الحرب للتشديد على قلوب زملائهم وأتباعهم، ورَدَتْ لي الأخبار عن «أوس» فهو ينتقم من جند الخلافة على نحو غير معتاد، فهو يثمل عيونهم ويُقطع أوصالهم، ومع توالي ضرباتنا الموجعة زاد اليقين والحماس بين الرجال، فغلب ظننا في الفوز ومُكنة انسحاب المعتدين.

***

أفقت من نومتي القلقة على صوت طبول تقرع باب غرفتي في عنف ليتردد صداها في قلبي فقمت مفجوعاً وقد استللت سيفي من غمده، فإذا بهم خاصة رجالي يخبرونني أن «العباس» قرر اقتحام المنصورة علينا في هذه الساعة المتأخرة، فقد استثار المارد العباسي من نخزنا المستمر وقرر اقتحام الباب علينا، لكننا لا بد رادوه إلى قُمقُمه.

هرولت إلى أسوار المدينة لأجد الجميع يزود عن المدينة فتخطيت أسوار المدينة الأربعة لأصل إلى سورها الأخير وأرقب ما هو كائن فيه، فكان رجالات الخليفة يحاولون اقتحام السور علينا من خلال منصات شاهقة قد استعد لها رجالنا بالنار وما ثقل من الحجر. رأيتهم يتساقطون عن السور كصراصير ضخمة قد أعيتها الحيل. شددت عزم الرجال فوق

السور وأمَّرْت «بن أبان» عليهم وتوجهت تلقاء الجحافل السوداء الرابضة على الأرض وقد جهزت لتبطش بالعدو من حيث لا يحتسب. وزعت السرايا على أبطال الزنج وتأمرت أنا على جماعة كبيرة منهم وطفقنا نخرج من أبواب المدينة السرية لنحارب العدو من بين أيديهم ومن خلفهم لتُغمَد السيوف في الرؤوس وتخترق الضلوع وترتوي بدمٍ بعد طول اشتياق حتمته الهزائم المتتالية.

تعالت صرخات النصر بين الرجال وجبن جند «العباس» فقرروا التقهقر مُبتعدين عن الأسوار المقدسة لمدينتنا. أما انا فاتخذت قراري بالاكتفاء بالنصر الذي حققناه والانكماش مرة أخرى داخل أسوار المدينة كثعبان ضخم قد ارتد إلى صخرته بعد أن نهش قطعة ضخمة من قلب عدوه.

بعد أن أحكمنا اغلاق الأبواب وتأكدنا من ابتعادهم، اجتمعت والقادة مرة أخرى في ذات البلاط الذي اجتمعنا فيه قبل أيام. فجلسنا وقام الخدم بتقديم الشراب وما خف من الفاكهة والطعام. كان الجميع في حالة انتشاء وقد ارتفعت معنوياتهم، فقط «بن أبان» كانت تبدو عليه بعض آيات عدم الرضاء. فقد كان يريد لنا أن نستمر في مطاردة شرازم العباس حتى نفنيها عن بكرة أبيها، لكني آثرت الارتداد حتى يكون لنا من بعدها أمر، ويمكننا بلا عناء أن نستمر في حملاتنا الليلية ضدهم حتى ييأسوا منا ويعودوا إلى سامراء خائبين.

اشتبك الجميع في أحاديث جانبيه كل يروي تجربته خلال الساعات المُنصرمة، فتعالت الهمهات وأصوات صحاف الطعام توضع وترفع، أما أنا فقد انشغلت بكتابة خطاب إلى «علي» أخبره فيه بتفاصيل ليلتنا المُثيرة وأستطلع رأيه فيما نحن مُقبلين عليه من أمر.

مرت الساعات التالية صاخبة حتى انصرف الجمع وبقيت و«بن أبان»

نتحدث كالأيام الخوالي، أخذنا نستعرض الأدوار البطولية التي أداها الرجال فجر ذلك اليوم، لكنه عاد ولامني:

- آه لو كنت استجبت لطلبي واستكملنا هجمتنا عليهم.

رددت بنفاذ صبر:

- لم يكن في الإمكان أفضل مما كان.. ماذا لو سقطنا في فخاخ كتلك التي أعدوها لنا في السابق؟ الأسلم أن نحتمي بتحصينات المدينة حتى ينصرفوا ويكون لنا معهم شأن.

- لن ينصرفوا يا «سليمان» لا هم لهم الآن غير القضاء على ثورتنا، فهي تقف كشوكة ضخمة في حلقهم، لن يستريحوا حتى يبتلعوها أو يخرجوها من أفواههم، فلا شاغل لهم الآن إلانا، أتمنى عليك يا «سليمان» أن تنظر لأبعد قليلاً من ميدان المعركة، فتنظر للأمور بمقياس أكبر، فمن وجهتهم قد عضَّينا عليهم واتهمناهم في دينهم ونازعناهم في حكمهم، فهو أمر دونه الدم ولن يتراجعوا عنه إلا حاملين رؤوسنا فوق الرماح.

أزعجني ما يقول وقررت جداله:

- يا «بن أبان» نحن الفئة المحقة، وقد ظلمنا أولئك القوم، ولسوف ينصرنا الله وإن طال الأمد.

خرجت الكلمات من فمي مهزوزة مترددة حتى خلتها ستقع في الهواء قبل أن تلتقمها أذنيه، لكني وجدته قد قَبل ما أقول وطفق يؤكد:

- نعم يا أخي، لكن وددت لو أننا نستوعب الحقائق من حولنا أكثر، فما كان لنا مُعاداة «يعقوب الصفار» قبل سنوات، كان يجب علينا أن نتوحد جميعاً في وجه الظلم لتكون شوكتنا أقوى، وددت لو أننا لم نسكن القصور ولم نقبل على مُتع الحياة جوعى كما فعلنا فلم تنعم أيدينا ولم

يتسرب الفساد إلى قلوبنا، وددت لو أننا خاطبنا رجالنا بالصدق ووعدناهم العدل وحسن المآل عوضاً عن المال.

- مالك تُقحِم علينا أمور ليس اليوم ميقاتها، فالعدو كان متربص بنا واستطعنا بحمد الله الزود عن مدينتنا.

- الخيوط مُتشابكة والأمور تؤدي لبعضها البعض، فمن حسن فهم الأمور أن نعرف أن أولئك عنا غير مرتدعون، وهم لا بد عائدون ولو بعد حين، فكان من الأفضل وأدهم حيث كنا قادرين.

مرت أيام أخر وقد استمر الرجال في حملاتهم الليلية مُجدداً، لكن جاءت جميع التقارير تفيد أن جند الخلافة قد أحكموا صفوفهم فباتتت مَجموعاتهم المتربصة بالمدينة منتبهة يقظة يصعب النيل منها كما كان الأمر من قبل، كأننا نحاول التصويب على هدف مراوغ عصي على الرمي.

لم يمهلنا القدر المزيد فبينما جلست ألاطف أبناءي فإذا بدوي شديد ينتفض له الجميع، ربَّت على أطفالي في سرعة ثم اتجهت إلى سطح القصر استشرف ما يحدث، فإذا حجارة ضخمها تلقيها خمسة مجانيق غاضبة لتنال من أسوار المدينة وبيوتها وذاك بالتزامن مع تحركات مجموعات نظامية من جيش الخلافة نحو ثغرات واسعة صنعتها المجانيق.

ربيع الآخر 267هـ

وقفت أرمق من شاهق في جذل[41] تلك العماليق الأثيرة وهي تقذف الجلاميد[42] حول أسوار المدينة الحبيسة. كانت الفرحة تتدفق داخلي في رعشات متواصلة متزامنة مع سقوط الجلاميد فوق رؤوس الزنج المتمردين، وكأني طفل صغير قد عاودهُ أباه بألعاب من مدن سحرية بعيدة... وهي الآن أمامه تعمل كأفضل ما يكون.

اعترفت أني تعجلت عندما حاولت اقتحام المدينة عليهم في المرة الأولى بواسطة تلك المنصات العالية. فقد أعيتني تلك الهجمات البربرية التي كانوا يقومون بها في جنح اليل فيذبحون الرجال ويسرقون العتاد ويبثون الرعب في قلوب الجند الرابضة. و«نصير» هذا الأحمق المتهور الذي ظل يشجعني على تسلق أسوار المدينة حتى صرنا كالحشرات التي يلاحقها الزنج بالنعال، لم أكن أعلم وقتها سبب لهفته في اقتحام المدينة وكأن داخلها كنز له يفنى كلما مر بعض الزمن. عندما انضم إلينا أبي من المنيعة كان واجماً غاضباً، بمجرد أن رآني سحبني من يدي في قوة حتى اختلينا في خيمتي الخاصة، وداخلها دفعني وسمح لغضبته أن تمور:

---

41) فرح وابتهاج

42) الصخور

- خذلتني بعد أن عظم أملي وأمل الناس فيك، لم تعجلت اقتحام أسوار المدينة بتلك الحيلة القديمة، كيف ظننت أنك ستنجح!

دافعت عن نفسي وذكرت له ما كان وكيف أن «نصير» كان يتعجل اقتحامها وكيف أنه كان يرى في ذلك كل الخير.

- أحمق... «نصير» له مآرب أخرى، قد أحب جارية رومية ولها زوج عبد أسود من أصحاب «الخبيث» وهو الآن حبيس تلك الأسوار، والأمر الأوحد الذي يأبه له «نصير» هو الفوز بقلب تلك الرومية وأن تكون خالصة له بعد أن يقتل زوجها الذي تعلقت به.

اتسعت عيني في ذهول وأنا أسمع تفصيلات ما يقول، واستوضحته كيف عرف ذلك، ضحك باستهزاء وهو يهز رأسه بأسى:

- هي قوة السؤال يا ملك السُذَّج، فقط عليك أن تلقي الأسئلة لتتبدى لك الإجابات.

ثم أكمل:

- هل تعلم أن وراء السور الذي نراه أسوار أخرى مُتراكبة؟ فحتى لو استطعت أن تقتحم سور المدينة الأول كان الرجال سيعلقون بالسور الثاني والثالث، المعلومة هي سر النصر، لا تحرك قدماً قبل أن تعرف أين ستضعها، وهناك دائماً من يطأ الأرض من قبلك ليخبرك أسرارها.

وكأن الغرور قد استبد بي، فبدت حاجتي إلى درس حقيقي لأتعلم منه الحرص وعدم الثقة في الآخرين، لكن أبي كان قاسياً، هممت أن آتي بنصير وأواجهه بما عرفت عنه وأعاقبه على نصيحته الفاسدة، لكن أبي أثناني عمَّا انتويت:

- تريد أن تتسرع ثانية ... «نصير» من كبار قادة الجيش، ومعاقبته على هذه الشاكلة سوف توغر صدره وتستثير أتباعه وتظهرك بمظهر

النـادم، فقـط أعلـم مـآرب مـن حولـك حتـى تمحـص نصائحهـم، وليكـن لـك معـه شـأن بعـد النـصر.

- وما ترى في أمر تلك المدينة المُتحصنة في أسوارها؟

هـز أبي رأسـه في ثقـة وأخـبرني بشـأن المجانيـق الخمـس وأنهـم الآن عـلى أثـره يتهـادون إلينـا.. وبمجـرد وصولهـم يمكنهـم دك تلـك الأسـوار بأريحيـة تامـة. بـل وقـد تسـتطيع قذائفهـم النفـاذ إلى قلـب المدينـة، لكـن لا تنـسى تأمـين المجانيـق بجماعـات مـن الرجـال يـزودون عـن قواعدهـا... إن أرسـل «سـليمان» رجالـه للنيـل منهـا.

وقد كان...

كانـت المجانيـق تـؤدي وظيفتهـا بمنتهـى الكفـاءة، وكأن اللـه يرفـع الطـور مـن جديـد ليتركـه يسـقط فـوق رؤوس أعدائـه هـذه المـرة، قـد صدق حـدس أبي، فقـد طالـت الجلاميـد منتصـف المدينـة تهشـم المنـازل وتـزري القصـور وتسـبب نوبـات مـن الهلـع والرعـب، أعطيـت أوامـري للرجـال لينفـذوا مـن خـلال الثغـرات الوليـدة. أمـا الخنـادق فقـد أحتـاط لهـا أبي بواسـطة قطـع خشـبية ثقيلـة يعـبر مـن فوقهـا الجنـود والفرسـان ثـم يتـم نزعهـا كي يتـم عبـور الخنـدق التـالي عـن طريقهـا، حقيقـة كانـت المدينـة منيعـة لكـن تدبـير أبي كان أمنـع.

أمـرت «نصـير» أن يكـون في أول المشـاة، اسـتمتعت بآيـات الرفـض المتبديـة عـلى وجهـه بغـير أن يملـك رفاهيـة الإفصـاح كان يُحملـق فيَّ مُرتعبـاً وهـو يمسـد شـعره الدهنـي الثقيـل، دعـه يبحـث عـن صيـده الثمـين في الداخـل، فـإن عـثر عليـه فـلا يهمنـي مـن يكـون فيهـم القاتـل ومـن المقتـول، فقـد خاننـي ولـئن نجـا مـن تلـك الحـروب سـيكون لي معـه شـأن.

مـا هـي إلا سـاعات آخـر حتـى كنـت وسـط المدينـة أرقـب أثـر الدمـار فيهـا وأهلهـا أذلـة صاغـرون. هـرب جُـل قـادة الزنـج مـن نواحـي قـد خلـت

لهم بعد أن تجمعت سرايا جيشنا للقتال وتركوا وراءهم أموالهم ونساءهم وأولادهم، بدا «نصير» شارد الذهن وهو يجمع الأسرى من حولي، يبدو أنه لم يعثر على ضالته فيمن عثر، ناداني صوتٍ تلهج نبراته بالبشرى:

- أيها الأمير... أيها الأمير...

نظرت إليه فإذا به يسوق جماعة من النساء والولدان وقد تباينت ألوانهم وهم مرتعدون.

- هم أبناء «سليمان بن جامع» ونساؤه. «سليمان» يا مولاي كان والي المدينة وقائد الجيش.

ابتسمت في وقار وأنا أرمقهم بغيظٍ. سألتهم عن وجهة «سليمان» فبذلوا الأيمان متناوبين أنهم لا يعرفون له سبيلاً، أشرت لصاحبهم أن يحبسهم بعيداً وبقيت أتجول في المدينة وأعاين القصور التي استوطنها قادة الزنج، أما أبي فقد أمر ببطم[43] الخنادق وهدم الأسوار وقَرَّ في المدينة لأمد.

***

جن الليل وهدأت الأمور وأرسل أبي في طلبي:

- فلتخرج و«نصير» في الغد قبيل الفجر لمُطاردة فلول الزنج.

اصطبغ الأفق باللون البرتقالي وقد انعكست ظلاله على المروج من حولنا. افترقنا أنا ونصير كلٌ مِنا في جهة على أن نتقابل بعد أيام في الأبلة. فقد فر الزنج بالآلاف صحبة كبار قادتهم، ولو أننا استطعنا الإمساك ببعضهم لكان ذاك مكسبٍ هائل لنا، حتى تخف وطأة المواجهات القادمة إن قلَّ عددهم وهلك قادتهم.

---

43) ردم

بمجرد وصولي إلى الأبلة، علمت أن أبي قد تحرك تلقاء الأهواز ليحررها من قبضة الملاعين، وبينما أنا على حالي في الأبلة جائني مندوب من الزنج يريد أن يحادثني، قام الرجال بتفيتشه وتقديمه إليَّ مُحاطاً بالحرس، وبدأ الزنجي الحديث:

- رحم الله الأمير «العباس» أسمي «عامر» أيها الأمير الكريم، ووراءي ألف من الزنج قد يأسوا من صاحبهم، ويريدون الانضمام إلى جيش الخلافة إن قَبِلتهم.

قمت من مجلسي وقد اضطربت مما سمعت. ولم أعلم بما أجيب الزنجي، فذرعت الغرفة أمامه ذهاباً وإياباً وقد صمت هو مطرقاً في انتظار الحكم الصادر فيهم من فمي، أما أنا فقررت أمهال نفسي بعض الوقت فقلت:

- فلترجع إلى أتباعك... وأنتم في أمان منا حتى أراجع فيك «الموفق»، ولئن قَبِلَ فسيكون لكم ما أردتم، وإن رفض فأنتم وشأنكم، فلتراجعني في الأمر بعد أيام.

انصرف الزنجي وأنا أرمقه من خلفه مُتَفَكراً، وبمجرد انصرافه كتبت إلى أبي بأحرف مُتعجلة فحوى ما كان وأرسلت إليه في طريقه إلى الأهواز، وبعد يوم وبعض يوم جاءني الرد من أبي في سرعة لم أعهدها. أوصاني أبي أن أقبل الرجال وأن أجري عليهم العطايا وأضمهم إلى الجيش بغير حساب ولا سابقة عذاب، نفذت أوامر أبي وأرسلت إلى الزنجي أبشه البشرى، وقمنا بعدها بقبول الزنج وضمهم للجيش وأجرينا عليهم العطايا تماماً كما قال أبي.

جن جنون «نصير» وهو يرى الزنج ينضمون إلى جيشنا مرة أخرى وأخذ يرغي ويزبد. فقد كان يكرههم كراهة الموت وحقد على جنسهم بعد أن فضلت تلك التي عشقها أحدهم عليه. لم يهدأ «نصير» إلا بعد

أن زَجرته زجراً عنيفاً وتوعدته بالقتل إن هو خالف أوامر «الموفق»، فلن أسمح له أن يورطني مرة أخرى كالمرة السابقة التي أوحى فيها إليَّ إلى ضرورة اقتحام المنصورة على الزنج بغير استعداد، فلم أنسَ له ذلك ولن.

بعد أيام آخر توالت علينا البشارات من الأهواز، فقد استطاع أبي اقتحامها على الزنج الملاعين وقتل منهم مقتلة عظيمة. خرج «نصير» يؤمِّن حدود الأبلة ويتلقى الزنوج الفارة من الأهواز ليعمل السيف في رقابهم.

هنالك حدثت المُعجزة وبانت حكمة أبي الفائقة، فقد وافى «نصير» مندوب من الزنج يطلب استئمان ألفان منهم كما قمنا باستئمان ألف منهم من قبل، طلب مندوبهم الأمان وإجراء العطايا عليهم وأن ينضموا إلى الجيش تماماً كما كان الحال مع الألف السابقين.

رغم حقد «نصير» على كل من هو أسود فلم يجرؤ على قتلهم وهو يعلم أن أبي يميل لضمهم إلى الجيش، كان «نصير» هذه المرة إلى أبي أقربَ. فأرسل إليه يستشيره في أمر الألفان... وهو يتمنى على الله أن يغضب عليهم أبي ويأمر بقتلهم، لكن «الموفق» سمح لهم بالانضمام إلينا كسابقهم، أما أنا فسعدت بانضمام الزنج إلينا مجدداً كما كان الحال منذ سنواتٍ بعيدة. وما كان الألفان لينضموا إلينا لولا أن أحسن أبي وفادة الألف السابقين.

كانت الأمور تسير في صالحنا بشدةٍ. لم يكن أولئك الزنج لينضموا إلينا إلا وإن آيسوا من صاحبهم. استطلعنا أحوال جيوش الزنج والخيارات الباقية أمامهم والمدن الباقية لهم وتحصينات تلك المدن والأعداد والرجال والعتاد، فإذا بنا قد قضينا على جميع مدن الزنج ولم تتبقى لهم غير مدينة يقال لها المُختارة.

عندما بلغت الأمور ذاك الحد بيننا وبينهم، أرسل أبي إلى «الخبيث»

صاحب الزنج خطاباً يدعوه فيه إلى التوبة والرجوع عما ارتكبه من المآثم والمظالم والمحارم ودعوى النبوة والرسالة وخراب البلدان واستحلال الفروج الحرام، وبذل له الأمان إن هو رجع إلى الحق، ولسوف يأخذه بعين الرحمة كما فعل مع رجاله من قبل، ركب الرسول من الأهواز متحركاً إلى صاحب الزنج صحبته رسالة أبي إليه، رمقت الرسول وهو يختفي في الأفق ممتطياً مطيته وقلت لأبي ساهماً:

- هل تظنه يستجيب؟

- ذاك أمر هو يقرره، أما نحن فلن نكف عن زحفنا عليه حتى ننتهي من تلك اللعنة السوداء.

اسمي أدهم

ربيع الآخر 267 هـ

كانت الجلاميد تتساقط علينا من كل حدبٍ وصوبٍ. مُتخيرة أهدافها بكل دقة وكأن طيور عملاقة تفلتها من مناقيرها متخيرة الأعيان الهامة في المنصورة. مرق «سليمان» إلى الأسوار يحاول أن يزود عنها مع المدافعين وبعد أن أيقن الخسارة انسحب عنها رأيته يتجه إلى قصره يحاول إخراج أهله منه. تبعته بسرعة وشددته من ملابسه أمنعه من أن يردي نفسه، فقد كانت الجلاميد تتساقط بكثافة على موضع القصور وفي الطريق إليها، وأي محاولة للوصول إلى القصر كانت تعني انتحار مؤكد، خلته يعلم ذلك ويوافق عليه... فحياته بغير أسرته غير مُتخيلة.

كان يصرخ بين يدي ويقذفني بأشنع الألفاظ ويدفعني ويكيل اللكمات. احتضنته بقوة وساعدني أن انضم آخرون إليَّ يمنعونه من موتٍ مؤكد، حتى اضطررنا إلى حمله مرابعة والابتعاد به عن لعنات السماء الصخرية. رنوت بطرفي إلى الجنود على الثغور فقد رأيتهم ينهزمون ويدبرون من أمام الزحف العباسي الكثيف. باتت الأمور محسومة وأن الهرب هو الخيار الذكي الوحيد.

خرجنا من أبواب المدينة الغربية والجنوبية. فتلك لم يكن جند الخلافة مرابضين حولها بكثافة. وقد تركز هجومهم من الجهات المغايرة، تسللنا بالآلاف من الأبواب والأسوار وقد جبنت الكمائن الرابضة عن مواجهتنا ففروا وبدأوا برمينا بالسهام من بعيد، ابتعدنا واختفينا بين الأشجار كفئران مرتعبة تختفي بين الشقوق، شعرت أن «سليمان» قد انتهى... قد كان جسداً خاوياً من الروح بأعين ذاهلة شاخصة إلى السماء وكأنه مجذوب إلى نحو خفي. قد أحاط به الرجال خوفاً أن يرتد إلى المنصورة أو أن يقتل نفسه.

بدأت الأنباء المفجعة تبرز من حولنا تترى، فقد أخبرنا رجل منا أن «العباس» و«نصير» في أثرنا مخترقين الآجام، كان لأسم «نصير» أثر سحري في نفسي. يدفع الغضب في عروقي إلى حد الاحتراق. يولد في أضلعي قوة هائلة قادرة على تدمير أكوان بأكملها، شعرت حينئذٍ أني أنا من يريد الارتداد إليه واغتياله وسط رجاله. أحبك يا «بشرى» ولم ولن أسامح ذاك الظالم على جرائمه. لسوف أذيقه سوء العذاب قبل أن أنحره نحر النعاج. للحظات بقيت في انتشائي أتخيل «نصير» بين يدي انتقم منه وأفعل به الأفاعيل و«بشرى» تنظر مُتشفية، أفقت وأدركت أنه لن يكون ما تمنيت إلا إن تأنيت، الهرب هو الخيار الأوحد لا محالة.

استحثت الرجال للتوغل أكثر بين الآجام إمعاناً في الاختفاء. فقد ورثت القيادة بعد الحالة المذرية التي وصل إليها «سليمان». كنت أقودهم بيقين وعزم لا يلين وأنا متيقن من النصر... متيقن من الوصول إلى رقبة «نصير» مُتيقن أني و«بشرى» سوف نعود.

***

تبدت انعكاسات القمر فوق أوراق النباتات العريضة المُتندية فبدا الكون من حولي رائعاً. رغم توالي الأحزان والإخفاقات والدم، غفوت هادئاً وداخلي تناغم هائل مع الطبيعة وتأمل عميق في حقيقة الحياة. لم يتصارع كل أولئك من أجل الفتات والأمور محسومة من رب العباد منذ الأزل، قد قَسَّمَ الله الأرزاق فأوفى لكل مخلوق نصيبه من السعادة كاملاً غير منقوص، فلم يطمع بعضنا فيما وهبه الله لغيره.. وبينما أنا كذلك تسللت رائحة غاية في العطن إلى أنفي، اعتدلت من نومي وأنا أتشمم العفن أحاول أن أعرف مصدره، علها رائحة تحلل أحد الجثث البائدة... لكن إن كان الأمر كذلك ... فما جدد تلك الرائحة الآن، قمت أتتبع ما شممت حتى وصلت إلى موضعها.

كان «أوس» مُسنداً ظهره إلى شجرة هائلة ينظر إلى داخل صندوق خشبي بشهوة ظاهرة، دوى طنين الذباب عالياً وقد أحاط بما احتواه الصندوق مُنزعجاً أن أحدهم اقتحم خلوته. كانت الرائحة لا تطاق لكنني اقتربت أكثر بدافع من الفضول لأعرف المحتوى، فإذا بداخله رأس ممتلئة عوراء سوداء حليقة الذقن قد انتشر فوق سطحها الديدان الدقيقة تتنطع بلا رادع. مد «أوس» يده يقلب الرأس وكأنه يتعرف على صاحبها عن كثبٍ. رفعها إليه لتظهر يدان مبتورتان وقد توسدتهما الرأس. لم أستطع تمالك نفسي فتراجعت في سرعة وقد وضعت يدي على فمي أحاول أن أؤخر لحظات التقيؤ. لم تحتمل نفسي بشاعة المنظر وثقل الرائحة. تقيأت حتى دمعت عيناي ثم نظرت إلى الرجال المحيطة بـ «أوس» فوجدتهم يحتفظون بمسافة بينهم وبين الصندوق وقد هالتهم الرائحة هُم الآخرون، همس أحدهم في أذن زميله مشيراً إلى «أوس»:

- قد فقد عقله تماماً... لن أنسى ما حييت ما فعله مع «عاصم» الطبيب. قد أجبره على ابتلاع لحمه ثم أطار رأسه بضربة سيف واحدة،

لتتدحرج هامته على الأرض وتصطدم بالهر الذي كان يأكل في لسانه المبتور ليهرب الهر أخيراً من أمام وجبته الشهية، فأخذ «أوس» رأس عاصم بين يديه ونظر فيها لوهلة ثم تركها على ركبته ومضى ونحن له تابعون.

استغرقني ما يقولون وافاقتني نظرة «أوس» الخاطفة لي وأنا أتقيأ مُستنداً إلى شجرة جانبية، لكنه سرعان ما عاد تركيزه السابق مع الرأس المقطوعة.

بدا «أوس» الوحيد المستمتع بمحتويات الصندوق المتعفنة. كان يشتم الرأس في شوق متأملاً ملامحه في سعادة. ينظر إلى الأكف المبتورة مدققاً في خيوطها مُستلهماً منهما ذكريات قديمة بائدة. دس «أوس» أصبعه في وجنة الرأس لتغوص داخلها على نحو بشع فقد نَعِمَ اللحم من طول ما بقى. ولما عرف «أوس» ذلك بقى يقتطف من لحم الوجه ويرميه في استمتاع ماجن، كان في رأسي تساؤلات عدة، منعني عنها بشاعة ما أرى. أمر «أوس» أحد من حوله بإحضار الأخشاب وإعداد النار ثم أخذ يوالي قذف رأس الرجل وأطرافه داخلها وقد تعلقت عينيه بالنيران وهي تأكل اللحم.

- من ذاك يا «أوس» وما حملك لأن تفعل فيه فعلتك!

رد وهو على حاله بغير أن ينظر إليَّ:

- هو بن زنا قد نال جزاءه.

لم أشأ أن أرى المزيد فانصرفت عنه وهو يسأل الرجال من حوله عن تفاصيل أخالها بشأن قتل ذو الرأس العوراء، رجعت إلى مقامي السابق حول الزروع التي انعكست أشعة القمر فوقها، خَفَّتْ الرائحة عن المكان لكن ذكراها لبثت في أنفي وتلك المظاهر البشعة لم تختفي عن مخيلتي وقد منعتني النوم طوال الليل.

***

قمت من نومي مُثقلاً وقد هالتني قسوة القلوب وطول الطريق والقلق على المُنتهى. بدأنا التحرك من جديد نحاول مراوغة «العباس» وشيعته. كنا قد انقسمنا إلى فريقين في رحلتنا للهروب من المنصورة. فريق صحبة «بن أبان» وفريق صحبة «سليمان» وذلك حتى يصعب اصطيادنا على «العباس» و«نصير». لكنهم هم أيضاً تفرقا كما علمت، فذهب كل منهم في اتجاه لتضييق الخناق علينا، كانت خيولنا تتمخطر صوب المختارة، أخر المدن المنيعة الباقية للزنج. لعل أن يكون لنا صحوة منها فنستطيع استعادة المجد القديم انطلاقاً منها. كان خيل «أوس» قريباً مني، لكني لم أرد سؤاله عمَّا رأيت وهو لم يرد الخوض في الأمر.

تناهى إلى مسامعي دبيب مكتوم لفارس عجول يريد اللحاق بأول الركب. نظرت إليه مُتمعناً في حاله فلم أستشعر الخير. لم يتجه الفارس تلقاء «سليمان» لكنه وصل إلي وأمسك بمسارع خيله ليهدئ من سرعته جواري وقال:

- قد انضم قرابة الألف مقاتل من أتباع «بن أبان» إلى «العباس» وجنده، قد قادهم رجل من رجالنا إلى «العباس» فاستشار الأخير أبيه فوافق الأخير على بذل الأمان لهم. وهم الآن في خضم جيش الخلافة سنواجههم عن قريب ضمن من نواجه.

جفل قلبي واضطربت نفسي وتهدجت أنفاسي. لم أستطع الثبات للخبر المفجع، قد خسرنا ألف مقاتل دفعة واحدة، فرغم توالي الخسائر علينا فلم نفقد خلالها نصف هذا العدد. أخذ الفارس يستطرد في حكي التفاصيل وأنا ذاهل ممّا يقول، ليتهم ماتوا في وباء من الأوبئة أفضل أن ينتفع بهم «الموفق» وابنه، ليته قتلهم فيردع ذلك من يفكر في الارتداد عنا.

نظرت إلى «أوس» أستلهم منه الثبات... فوجدته يرغي ويزبد وينقم

ويلعـن. أدرت عينـي عنـه محـاولاً تتبـع تفاصيـل الانفصـال المشـئوم، أخـيراً اسـتطعت امتـلاك زمـام نفـسي، فحمـدت اللـه وقلـت:

- يجـب علينـا أن نتكتـم الخـبر، فلـو عرفـه ضعـاف النفـوس أصحـاب المصالـح لانضمـوا إلى جيـش «الموفـق» وابنـه.

أومأ الفـارس برأسـه إيجاباً وظـل «أوس» عـلى غضبتـه. هـو أمـر ثقيـل أن تتحمـل وزر الأخبـار المفجعـة وحـدك بغـير أن تملـك التخفـف عنهـا مـع غـيرك، جـددت في السـير وكأن في ابتعـادي عـن محـل الخـبر ابتعـاد عـن خطـره المُحدق.

جـنَّ الليـل علينـا فعسـكرنا في محلـة كثيفـة الآجـام. نتـوارى فيهـا عـن أعـين المُطارديـن، افترشـت بعـض الحشـائش البريـة وحاولـت أن أغـط في النـوم عـسى أن يتبـدل حـالي الحزيـن صبـاح اليـوم التـالي.

وبينـما نحـن نيـام سـمعت أحدهـم يـصرخ بـين الجنـود وقـد اسـتفاق بعضهـم مفجوعـاً. كان الجنـدي يـصرخ أن عـددا غفـيرا مـن الرجـال، احتملـوا العتـاد وتحركـوا بـه جهـة جيـش الخلافـة في الأهـواز، أسـقطت مـا في يـدي وشـعرت بانعـدام الحيلـة تمامـاً وكأني ورقـة في مهـب الريـح، لا أسـتطيع حتـى القيـام مـن مـكاني وقـد عُقـد لسـاني عـن الـكلام.

جرد «أوس» حسامه من غماده، وشرع يصرخ:

- إليَّ يـا رجـال، فلنلحـق أولئـك اللواطيـين... نفصـل رؤوس خائنـة عـن أجسـاد نجسـة لا تسـتحق العيـش.

بـدأ البعـض في حمـل عتادهـم والتحـرك نحـو «أوس»، فأفقـت مـن جمودي ونفضـت الذهـول عـن نفـسي وصرخـت بصـوت أعـلى مـن صوته:

- اثبتـوا... فـذاك مـا يريـده «الموفـق» منـا أن نقتتـل فيـما بيننـا فتذهـب ريحنـا، مـن أراد أن يكـون مـع جيـش الخلافـة فليكـن معهـم، لكـن لـن يقتـل بعضنـا بعضـاً.

قرَّ صوت العقل في أنفس الرجال. حتى أولئك الذين أسرعوا إلى «أوس» فقد ثبتوا في أماكنهم غاضبون يستمعون لما أقول. طلبت من أصحابي أن يَعدوا لي مقاماً أتحدث منه إلى الرجال، فوقفت فوق صخرة ناتئة أضاءها القمر، سميت الله وصليت على رسول الله ثم قلت:

- هل يتذكر أحدنا لمَّ خرجنا على الخليفة؟ قد خرجنا عليه لما لاقيناه من صنوف الظلم والعذاب والإهانة، كيف تم اصطيادنا وآباؤنا من أوطاننا لنكون عبيداً لقومٍ ما جعل الله لهم علينا من سلطان. أنا مسلم والحمد لله، أما أولئك الخلفاء فيَدَّعون الإسلام؛ والإسلام منهم براء. فما أوصاهم الله أن يستعبدوا غيرهم بغير مصوغ شرعي، وحتى لو أنهم اكتسبوا بعضنا بما حلله الله من وسائل، فهل عاملونا بما يرضي الله ورسوله؟

سكت لوهلة أستطلع الوجوه من حولي والتقط أنفاسي المتهدجة من فرط الصراخ:

- قد أجاعونا وضربونا وأوجعونا وتركونا ننام في العراء، حُرمنا الطعوم وقَطَّعوا منا الذكور. وصرنا منهم بمنزلة الدواب من الأسياد، فهل ترضون العودة إلى تلك المنزلة المُزلة المهينة؟ هل تبدلون من بعد قوة... ضعفاً، من بعد عزة وإكبار... مزلة وصغار.. لم أكن مثلكم... لكني أعلم بحالكم. كان أكثركم يتمنى الموت نفسه عن الاستمرار في حياته البائسة، كنتم تنامون تدعون الله تعالى ألا تطل عليكم الشمس من جديد، وأنتم الآن تملكون الفرصة لتغيير الأمر كله، تملكون فرصة الانتصار ومواجهة كل متكبر جبار، فلا يفرط أحدكم في مقامه الذي أنزله الله إياه، ولتثبتوا حتى يأتين اليقين.

كان الجمع من حولي مأخوذ بما قلته.. وقد نظر بعضهم إلى الأرض مطرقين في خزي. شعرت أن ما قد قلته قد وصل إلى قلوبهم، فما يقال عن يقين تنشرح له صدور المُتلقين:

- ثم ما يدريكم إن وصل أولئك إلى «الموفق» أن يقتلهم انتقاماً منهم، أعلم أنه قبل جماعة منا وضمهم إلى الجيش، لكن ذاك قد يكون لأمد طال أم قصر... ثم يقتلهم ويتخلص منهم منتقماً، أسمعوا واعوا وأخلصوا النية لله تخلص الدنيا لكم ويكون النصر حليفكم.

بدأ الرجال في الانصراف من حولي وقد رضوا مني ما قلت. جفلت عندما لمحت أعين «سليمان» ذاك القائد المقدام الذي طالما أكبرته وقد رحل بريق القيادة عن عينيه وقد بات يحدق فيَّ بأعين قد بهتت داخلها شعلة الروح. ولما التقت أعيننا وجدته وقد أولاني ظهره وانصرف مع المنصرفين.

في مساء اليوم التالي وافتنا الأخبار أن «الموفق» قد قبل ألفين من رجالنا. لم أكن أعرف عدتهم قبل ذاك الخبر، فلم يقتلهم «الموفق» كما تمنيت، فلبثت تلك الليلة مُرتعباً أن يوقظني أحدهم على خبر مشؤوم آخر وأن بعضنا قد تخلى عنا وانضم إلى جيش الخلافة، لكن حمداً لله أن ذاك لم يحدث، فبعض الليالي تَمُرُ رحيمة.

مرت أيامٍ أُخَر حتى وصلنا إلى المختارة مدينة الزنج التي يسكنها «علي بن محمد». صارت المختارة رمزاً للصمود وأملنا الباقي أن تكون لنا الغلبة مرة أخرى، فلم يبقَ لنا أرض غيرها بعض أن استولى «الموفق» وابنه على أكثر مدن الجنوب، لاحت أسوار المختارة فتجدد الرجاء في أكثرنا حتى «سليمان» بدأت عقدة لسانة تنحل. وكنت أول من تحدث إليه، فقال بصوتٍ واهن:

- بارك الله فيك يا «أدهم»، قد أحسنت عندما اشتد علينا الأمر.

رَبَّتْ على كتفه قائلاً:

- أنت القدوة والمثل، هي كبوة نمر بها وسنفيق عنها عمَّا قليل.

رد عليَّ «سليمان» بغمغمة أليمة لم أتبين فحواها.

لما دخلنا أبواب المدينة وبمجرد وصولنا أرسل «علي» في طلب سليمان.

- فلتأت معي، فأنت من خضت غمار المواجهات الأخيرة وما بي طاقة للكلام.

استجبت لرغبته وتوجهت معه مباشرة تلقاء قصر «علي». هي المرة الأولى التي أراه فيها، كنت أسمع عنه الأساطير ولم يُقدَّر لي لقاءه مرة. كان أسمر البشرة وليس أبيضها، في ملامحه قسمات عربية واضحة، فهو يشبه عموم العرب في كل شيء، بدا هادئاً على شؤم الأخبار التي توالت عليه من جيوشه المنتشرة في الجنوب.

رَحَّبَ بنا «علي» ، وسأل «سليمان» عن الأحوال والمآل. جاوب «سليمان» بكلماتٍ مقتضبة ثم نظر تلقائي يستحثني الإكمال، فأكملت عنه مُسترسلاً وقد شفَّعتْ ما أقول برأيي. بدا «علي» مُستحسناً فعالي وهو يهز رأسه مشجعاً راضياً بين الجملة والأخرى رغم سوء الأخبار بالجملة.

بعد أن انتهيت بدأ هو في إخبارنا برأيه في ما كان ويصدر أوامره فيما هو آت. وجدته فصيحاً عاقلاً حصيفاً، وبينما كنت أستمع له مأخوذاً.. استأذن علينا واحداً من خواصه فأذن له، فدخل الرجل علينا مُنحنياً ليقول:

- رحم الله سيدي ... جند «الموفق» و«العباس» في طريقهم إلى المختارة في جند يُقَدَّرُ عددهم بخمسين ألف مقاتل.

***

أنا الموفق

267 هـ

توالت الانتصارات علينا كأمطار مُباركة تنهمر من فيض كريم. قد بارك الله لي في ولدي «العباس»، فلم نكن لننجز ما أنجزنا لولا انتصاره على «سليمان» يوم «واسط». قد أزال ذلك النصر حجر العثرة من أمام جيوشنا الجرارة لننساب في الجنوب كانسياب الماء في دجلة بيوم مطير.. أخالكم تتفقون معي وأن «العباس» هو من يستحق الخلافة وليس أخي السكير المتربص المتماهي في الاختباء خلف أسوار سامراء المنيعة، ولا يستحقها ابنه الرعديد الذي أبقاه «المعتمد» في كنفه يخاف أن تتغبر قدماه من رمل الطريق، لكن لا بأس... كُلٌ يُشَكِّل نطفته على ما يحب ويرضى.. قد أحببت للـ «عباس» أن تثقله المعارك وأن يبتني من معامعها مجده الأبدي الذي سيدفعه إلى الخلافة دفعاً. فقد عرف الناس من أولي البأس الذين يُعتمَد عليهم في الشدائد... ومن يختبأون إن برزت السيوف وتخطفت القلوب، فالحياة عادلة ولسوف تعطي كلٌ ما يستحق.

نحن الآن على مشارف المختارة آخر معاقل الزنج. فإن دمرتها عليهم فلن تقم لهم قائمة بعدها أبداً. وأنا الآن في أفضل حالاتي فالـ «عباس» عن

يميني و«نصير» عن شمالي وجندي المُخلصين المُلهمين بآمال النصر حولي من كل صوب.

اقتربنا من أسوار المدينة ليتفاجئ الجميع بصخرة ضخمة تخترق الهواء وتصدم فارس من الفرسان ساحقة إياه وفرسه وقد أصابت من هُم بعده بإصابات بالغة حتى توقفت تماماً قبل خطوات من فرسي، زعقت في الرجال:

- توقفوا...

جلت بنظري فوق بناءات المدينة العالية لأجد مجموعة من الجند يلقمون المقلاع مرة أخرى في الوقت نفسه الذي اندفعت فيه صخرة أخرى تكسح ما أمامها من رجال راجلة وراكبة على بُعد مئات الأمتار مني.

- تراجعوا...

رجعت بالرجال قدر فرسخ مُتوقياً مرمى الصخور الساحقة. لن أستطع اليوم أن استخدم المجانيق ضد أسوار تلك المدينة العنيدة، فمجانيقهم عالية وطائلة، ويجب أن أقترب بالمجانيق كثيراً حتى أستطيع النيل منهم وذلك لن يكون إلا وقد نالوا هُم مني أولاً.. قررت أن أعسكر بالجيش حول المدينة مُحاصراً لها حتى يفتح الله عليَّ بسبيلٍ أستطيع منه النفاذ إلى أعماقهم.

لم أشعر بالتبرم، فبعض الأمور تتبدى على مُكث، ثم إن الله تعالى نَصَرَنا في أكثر من موضع وهم الآن محصورون في تلك البقعة المُنعزلة من الأرض، ولا ريب أننا عليهم منتصرون.

استدعيت «نصير» وأصدرت إليه الأوامر أن يقوم بنشر الكمائن حول المدينة لإحكام السيطرة عليها ومنع أي متاع أن يدخلها وأي رجل أن يخرج منها، انصرف «نصير» مُنفذاً وبقى «العباس» يسألني شارداً:

- ما العمل يا أبي؟ فتلك المدينة غاية في الإحكام قد حوطوها بآلات كثيرة من مجانيق وعرادات وقُسي.

لكل معضلة حل... ولكل إحكام ثغرة، وتلك الثغرة موجودة في مكان ما، فقط لا تلقطها أعيننا وقد وصلنا للتو.. نحتاج بعض الوقت حتى تستطيع أعيننا التقاطها بعد اعتياد المكان، وطالما كانت المدينة مُحاصرة وقد مكن الله لنا ما حولها من المدن... فاطمئن يا بني فالنصر مسألة وقت، فقط علينا ألا نتسرع وأن نتدبر أمرنا بالحكمة.

أرسلت إلى «المعتمد» في سامراء أخبره بما آل إليه الأمر حتى الآن وسألته أن يدعمنا بخط موصول من المدد يصل الشمال بالجنوب حتى لا ينقطع عنا الزاد ولا ييأس عنا الرجال. أعرف أن «المعتمد» لن يخلص النية لي ولابني وأنه يتمنى لي السوء، لكني أثق في دعمه الآن لأن شأن الزنج والقضاء عليهم الآن يشغله أكثر من القضاء على أخيه وبن أخيه.

صباح اليوم التالي أرسلت الرجال في كل حدبٍ حول المدينة يستطلعون أخبارها فيحصون آلاتها ويقيسون أسوارها ويعرفون أبوابها ويسبرون غور أسرارها.. فما وقفت على نقطة ضعيفة لتلك المدينة، فقد أحسن «الخبيث» تحصينها، لكن توالى الدعم علينا من سامراء وجاءنا الهدامون وأصحاب الحيل والكثير من الزاد. فعهدت إلى القوافل أن يعودوا إلينا في وقتٍ معتادٍ معلوم حتى تنتظم علينا الأمور، واتفقت مع العباس أن يقسم الجنود إلى أدوار.. فيتدلى بعضهم إلى أسرهم مدة عشرين يوماً ثم يعودون مرة أخرى حتى لا يثقل عليهم الأمر.. فقد أدركت أنه سوف يطول بنا المقام متربصين أمام تلك الأسوار الشواهق والمجانيق السواحق.

***

كان يؤرقني عدم مُكنة الاقتراب من أسوار المدينة، فلن أعرف ثغراتها إلا إن اقترب منها الرجال عن كثب. حسمت أمري وأرسلت إلى «العباس» أجلسته وطلبت منه أن يناوش الزنج عند أسوار المدينة الغربية وذلك حتى ننتقي لأنفسنا موضعاً يمكننا النيل منهم فيه:

- رغم قلقي عليك فما أثق في غيرك لينقل لي الصورة كما يجب. تحركات جيشنا تعتمد على ذاك الاستطلاع الذي سوف تجريه، وما أظنهم تاركينك تقترب من أسوار مدينتهم بغير أن يحاولوا مواجهتك.. فلتتخير مجموعة من أفضل الرجال وأطوعهم ولتتخذوا من المقاليع تقاة فلا شك أنهم سوف يستخدمونها حتى تنطوا تحت أسوار المدينة وتُصبح زاوية النيل منكم مستحيلة.

بدا على ملامحه الرضاء والفهم، فربَّت على كتفه وقبلته بين عينيه ودعوت له. تركته يعد الرجال كما يشتهي، وما هي إلا ساعات آخر حتى كانت سريته تتحرك.. شعرت بالهواجس تلتهمني فخوفي على ولدي غلب شجاعتي ويقيني، لكن للضرورة أحكام، جَهَّزَ جميع المشاركين بالخيل حتى يسهل عليهم مراوغة المقاليع لحين وصولهم إلى أسوار المختارة، كنت أتشاغل عن تجهزهم وأنا اتابعهم على بعد مئات الأمتار.

***

تحرك الركب ورجعت إلى خيمتي لا أجد اطمئناناً إلا في صلوات متواصلة سجدتها حتى اطمأنت نفسي. توالت الاخبار حينها وأن العباس استطاع الوصول إلى أسوار المدينة رغم الصخور المُتساقطة، وبينما يحكي لي الجندي ما حدث... تناهت جلبة في الخارج إلى مسامعي ووجدت العباس يقف سالماً في وسط خيمتي.

قمت احتضنه بغير أن يمنعني وقار. فشممت شعره المُعرَّق حتى خلته

ذاك الصغير الذي طالما كنت ألاعبه، أجلسته جواري ولا زلت مُمسكاً بذراعه وسألته:

- حمداً لله على عودتك يا بني.. احك لي ما حدث، وكيف وجدت المدينة وتحصيناتها.

ربَّتَ على يدي مُطمئناً لأترك ذراعه وقال:

- عندما استفاق الزنج لهجمتنا المباغتة تراصوا فوق الأسوار وبدأت المقاليع في العمل، لكنها لم تستطع النيل منا... فقد كانت حركة المجانيق ثقيلة وقد خفت مناورتنا على صهوة الجياد، دنونا من الأسوار فإذا بعض رجالات الزنج يطلقون علينا السهام، فنالنا منهم بعض ما رموا. لم تمض دقائق حتى سار إلينا جمع كبير من الرجال يبدو أنهم قد خرجوا من أحد الأبواب المُلحقة بالسور التي لم أتبين مكانها، ورغم كثرة أعدادهم فقد تخاذلت هممهم وكأنهم يُساقون إلى مصير محتوم.. فكانت نصالنا تنال منهم بغير عناء، لكن الكثرة تغلب الشجاعة ولو كنا كُثَّر لنلنا منهم نيلاً عظيماً، تراجعنا عنهم تراجعاً محسوباً وارتددنا من حيث أتينا.

- وماذا رأيت من التحصينات حين عاينتها عن قرب؟

- الأبواب غائرة وموافقة للون الحائط، يصعب اكتشافها، والمجانيق نفسها تحيط بالمدينة من جميع الجهات فتنال من أي مُقترب كان.

- وكيف ترانا ننفذ إلى أولئك الملاعين؟

- لا حيلة لنا إلا أن اقتحمنا الأسوار عليهم.. والأسوار عامة هشة واهية فيمكن تخريبها بسهولة، فان استطعنا إيصال الهدَّامين إلى موضعي الذي كنت عليه وحمايتهم فيُمكن هدم الأسوار والنفاذ إليهم منها.

لم استرح كثيراً لما يقول، لكن لم أجد حل أفضل من ذلك، قمت وقد ربَّت على كتفه مجدداً.

- فلتذهب وتسترح في خيمتك فأنت في أمس الحاجة لذلك.

انصرف «العباس» فأرسلت في طلب «نصير» وطلبت منه تأمين معسكرنا على نوبات حتى لا يباغتنا الزنج في هجمة ليلية، فأمر صاحب الزنج سوف يطول فستكون تلك المدينة عائق جبار يمنعنا من الوصول إليه.

***

الأمر الذي يُعَوَّلُ عليه الآن، ضرورة توالي المُدد علينا من سامراء، لإن خذلنا «المعتمد» ستجف فروعنا ويهون أمرنا، لكنه لا بد داعمنا فنحن سيفه ودرعه، فليس له من دوننا من يدفع الزنج عن ملكه، إما إن فرغنا من الزنج فسوف يكون بيننا من بعدها أمر.

بدا ثمر السياسات التي انتهجتها قبل الزنج يينع. فقد توالت علينا منهم أفواجاً قد فروا من صاحبهم لينضموا إلينا، تشجعوا بعد أن قبلنا أصحابهم من قبل بغير انتقام. تفاءلت بهم لأكثر من سبب...

أولاً: أنضمامهم إلينا يعكس روح التخاذل لدى الزنج وعدم ثقتهم في النصر.

ثانياً: كلما توالى علينا أعداد منهم وقبلناهم كان ذاك بشارة أن ينضم إلينا المزيد.

ثالثاً: من أولئك نستطيع معرفة أسرار الزنج منهم وماهية تحصيناتهم وتفاصيل استعداداتهم.

***

طلب أحد الزنج المنضمون حديثاً التقابل معي لأمرٍ هام، قبلت ذلك فانحنى العبد قائلاً:

- استمحيك عذراً سيدي لكنه أمر هام وضرورة ملحة ف«علي» يستعد الآن لمباغتتكم بهجمة غير تقليدية.

اعتدلت في مجلسي مُنتبهاً أنتظر سماع المزيد فقال:

- قد أرسل «علي» إلى «بن أبان» أحد أفضل قواده ليكون على رأس خمسة آلاف من أفضل مقاتلي الزنج فيختفون بين الآجام بالقرب من معسكرك فتكون مناوشة بينكم وبينهم حتى يتم استدراجكم داخل الغابات الكثيفة فتسهل هزيمتكم.

- وأين هم الآن؟

- غلب الظن أنهم محتسبون في مكامنهم خلف الآجام، يمكنك ارسال الرجال للتثبت من صدق ما أقول.

صرفته من أمامي وأرسلت إلى «نصير» و«العباس» فقصصت عليهم الخبر واستشرتهم في الأمر.. بدا «العباس» أكثر تحمساً وقد التزم «نصير» الصمت، لكنهم اتفقوا على ضرورة استطلاع الخبر، فان صدق فلا بد من مفاجأة تلك الجماعات الكامنة في الطرق حتى لا يكونون عائقاً للمؤن الواردة إلينا من العاصمة العباسية.

تأكد الخبر وبدا «العباس» مقدماً «ونصير» محجماً، ورغم اغتياظي من أحجام «نصير» ورغم قدرتي على إرغامه كما أرغمته مرات من قبل فلم أملك غير إرسال «العباس» ليلاقي «بن أبان» فالمواجهة هامة ونتائجها وخيمة.. ولا أريد الاستعانة بمن ملأني الشك منه متأثراً بمشاعر الأبوة وقد قصدت أن أنحيها منذ بداية استعانتي بالـ «عباس» في حملاتي على الزنج. وهو ما كان ...

أمنية كل أب أن يكون ابنه أفضل منه، لكن الحق يقال: فإن العباس أفضل مني بكثير، فقد كان أوسم وأطول وأذكى وأشجع، فقد وصل بي الحال مع العباس إلى الاطمئنان التام إليه، فصرت لا أتحرج من تسليم عصا القيادة إليه ولا أجد في نفسي غضاضة أن أسير وراءه في الكثير من المغازي عندما يعييني الفكر ويستبد بي القلق.

وقد كانت معركة «العباس» مع «بن أبان» واحدة من تلك المعارك التي تثبت ما أشرت إليه...

تحرك العباس على رأس عشرين ألف راكب وراجل، فكلف قرابة ثلاثة عشر ألفاً لإحاطة الغابات من أطرافها الأربعة وارتكز بسبعة آلاف في الضلع الغربي وتحرك بهم في خط واحد جهة الأمام.. فأخذ جند «بن أبان» يتقافزون من خلف الأشجار كتقافز القُمَّل من رأس صبية يُمَسَد شعرها بمشطٍ ضيق الأسنان.. تفاجئ الزنج بهجمة «العباس» فقد بدت قفزاتهم من فوق الأشجار مرتجلة فسهل على جندنا سحقهم قُدُماً، حاول بعضهم التراجع للخلف للانضمام إلى زملائهم حتى يتراكموا في أعداد تساعدهم على المواجهة، لكن دائماً كانت تحركاتهم بطيئة وتجمعهم ضرباً من ضروب المستحيل، فقد اختبئوا خلف أشجار متباعدة عن بعضها البعض، حتى الهروب كان حلماً عزيزاً قد صَعب عليهم تحقيقه بسبب الحصار المضروب عليهم من نواحي الأرض الأربعة.. من يحاول الفرار شمالاً أو جنباً شرقاً أو غرباً كان يستفيق على نصال أسلحتنا لا محالة.

اختلطت مياه المستنقعات الآسنة بالدماء الزنجية القانية لتزداد الزواحف داخلها توحشاً. مَن لم تشقه السيوف ابتلعته المستنقعات حياً فما هي إلا ساعات حتى استفاق الزنج على كارثة من أشد الكوارث الواقعة منذ آمادٍ بعيدة.

- و«بن أبان» يا «عباس»

- لم أقف له على أثر يا أبي، قد يكون غارقاً في أحد المستنقعات أو أنه لم يكن وسط جنوده من البداية، فاحتمال هربه ضئيلاً جداً مع ذاك الحصار المُحكم المضروب على الأرض.

رغم الفخر الذي ملأني من جراء النصر المبين، فقد شاب طيب نفسي

بعـض الكـدر بسـبب عـدم النيـل مـن «بـن أبـان» فقـد كان الأخـير مـن أكـثر قـواد «الخبيـث» ضراوة وعدائيـة، وكان النيـل منـه سـيفت في عضـد الخبيـث للحـد الأقـصى، لكـن لا بـأس، فلنحتفـل الآن بمـا مـنَّ اللـه بـه علينـا وكل في ميعـاد بمشـيئة اللـه.

***

اسمي أدهم

267 هـ

بالتأكيد أريد قتل «نصيراً» وليسمع دبيب أقدامي الفرحة فوق قبره المهجور، فالانتقام شهوة شهية تسري في دماء أصحابها وتخمش في جدران أنفسهم حتى يُلبون النداء، لكن لم يكن الانتقام هو دافعي الوحيد من قتل «نصير»، فخوفي على «بشرى» كان يفوق شهوة الانتقام في نفسي، فإن آب ذاك المأفون إليها فلا أضمن أن يتركها بغير إيذاء. ويبدو أن أمرنا معهم سوف يطول، وأخاف أن يمسها الضر.

كنا في الأيام الأوائل من رمضان، شعرت بالحنين الشديد إليها، فقد ارتبطت ذكرى الشهر بها. مال الذكريات تتداعى في جنبات نفسي كشلالٍ هادر يدفعني إلى الجموح، واه «بشرى» كم أشتاق إليك ... رغم صليل السيوف... وصهيل الخيول... وهزيج السهام... ونذير المجانيق، أنا لكِ وأنتِ لي... ما طال الزمن ومرت الدهور، أنا لكِ وأنتِ لي... في هذه الحياة أو بعد التقام القبور.

للأسف يا «بشرى» الأمور لا تسير في صالحنا، حتى أني أخوَّف على حزنك من نفسي... عندما تجثم على صدرك أنباء الهزائم المتتالية.

فقد أجرى «العباس» بن الموفق فينا مذبحة هائلة عندما هاجم أولئك المُختبئين خلف الآجام، فأخذهم بغتة وأخذ يحصد أرواحهم حصداً وفيراً. تمزقت الأطراف حبيبتي واستحالت مياه الأنهار في لونها للأحمر القاني. كانت تحيط بنا الرائحة المريعة من كل مكان، لكني استطعت أن أحتفظ بحياتي فقط من أجلك، فكل ما حولي يجعلني أرحب بالموت صديقاً ومُخلِّصاً، فليس على الأرض من شيء يستحق الحياة إلاكِ حبيبتي.

كانت هزيمتنا مفجعة حتى أن «علي» أنكرها عندما سأله الناس في المختارة عن مصير الخمسة آلاف جندي، فكان يقول:

- سرية «بن أبان» في أمان.

كان الشك يغمر الجميع، ولما عرف «الموفق» أن «علي» يحاول طمأنة القوم لم يرض إلا أن يريح بالهم بالخبر اليقين، فأمر بالرؤوس المقطوعة والأوصال المفصولة فوضعها على مجانيق ورماها لتسقط داخل المدينة، فلما رآها الناس عرفوها... ولم يستطع أحد الاحتفاظ برباطة جأشه، فأظهروا الجزع والبكاء حتى بلغ صوت النحيب آذان «الموفق» وابنه.

ما أشبه الأمس باليوم حبيبتي، فقد أخبرني «سليمان» أن هذا العويل الذي يتردد صداه في المختارة يذكره بعويل يوم البصرة منذ عشر أعوام، عندما دخلها «علي» عنوة واستطاع إخضاع أهلها بعد أن أضمروا له الشر وخانوه، هي أبدان يسلطها الله على بعضها... فقد قال تعالى «ويذيق بعضكم بأس بعض»، لكن «علي» يومها لم يلقَ الرؤوس على أصحابها... فقد جمعها وسمح للناس أن يأخذوا ما عرفوه منها، فليتغمد الله الكل برحمته ولتغمر حكمته الجميع.

اشتد الحصار علينا يا بشرى، ولم يعد الناس قادرين على الصبر بعدما تلقفوا رؤوس أبنائهم من خلف أسوار المدينة.. بدأت أفواج سرية تخرج

مـن بـين شـقوق المدينـة بـين اليـوم والآخـر لتنضـم إلى «الموفـق» وابنـه، كان الرجـال يتدفقـون خـارج أسـوار المدينـة كنـزف دمٍ مـن جسـدٍ قـد أثخنتـه الجـراح، وإن دام الحـال عـلى ذلـك فلسـوف يفنـى الجسـد وتنتهـي ثورتنـا بعـد سـنوات الكفـاح المريـرة.

أراد «عـلي» أن يوقـف المـدد والغـذاء عـن جنـد «الموفـق» فعـين سريـة للتسـلل خلـف اسـتحكامات العـدو عسـاها أن تمنـع عنهـم المـيرة. حققـت تلـك السريـة نجاحـاً محـدوداً لكـن عندمـا علـم «الموفـق» بأمرهـا جهـز سريـة أخـرى للتصـدي لهـا وإفنائهـا وتحريـر طريـق المـدد مـرة أخـرى.. وهـو مـا كان، فلـم تسـتطع سريتنـا مواجهـة سريتهـم، وفنيـت عـن بكـرة أبيهـا، ليـس عـن ضعـف حبيبتـي لكنهـم كُـثَّر... وكنـا ننتـصر عليهـم بعلمنـا بطبيعـة الأرض ومخارجهـا ومداخلهـا، لكـن أولئـك الثعالـب خـبروا الأرض الآن بعـد جهـلٍ مـن كـثرة مـا لاقيناهـم فوقهـا.

اسـتمر النزيـف وبـات الرجـال يخرجـون مـن بـين الأسـوار سراً وعلانيـة. وبـات الجسـد المنهـك عـلى وشـك المـوت، وفي أحـد الأيـام أرسـل «عـلي» إلى «بن أبـان» بعـد أن تعـافى مـن هزيمتـه الأولى داخـل الآجـام فسـأله إن كان يجتمـع والجنـد ويعظهـم أن يبقـوا معنـا داخـل المختـارة ويمنيهـم بالنـصر. حـاول «بـن أبـان» أن يفعـل... لكـن لم يصدقـه أحـد، واسـتمر النـزوح إلى «الموفـق» وهنـا لم يكـن هنـاك بُـد مـن تكليـف «بـن أبـان» أن يقـوم بعمـل كمائـن في الطريـق للقبـض عـلى أولئـك المُتسـللين. يريـد «عـلي» أن يُطبـب الجـرح ويوقـف النـزف.

كان «بـن أبـان» جنديـاً طائعـاً فتحـرك سريعـاً ليمنـع تلـك الجحافـل الفـارة. لكـن كـما تعلمـين فـإن رجـال الخلافـة تتـسرب إليهـم الأخبـار سريعـاً فقـد كـثر الخونـة مـن بيننـا، وباتـت جميـع أسرارنـا مشـاعاً للجميـع. أرسـل «الموفـق» سريـة أخـرى لتمهيـد الطـرق لأولئـك الذيـن يريـدون الإنضـمام إليـه، وفشـل

«بـن أبـان» مـرة أخـرى رغـم شـجاعته وإخلاصـه وإقدامـه عـلى المـوت.. فـما عسـاه أن يفعـل الطبيـب مـع جسـدٍ قـد نهشـه المـرض منـذ سـنوات طـوال. بات الجميـع عـلى علـمٍ أن «عـلي» قـد فشـل حتـى في منـع رجالـه مـن الانضـمام إلى رجـال «الموفـق» فسـار وضعـه مـن أسـوأ إلى أسـوأ. فقـد النـاس الثقـة في قائدهـم وكـثر الخـروج عليـه وهـان أمـره عـلى النـاس، فلـم يبـق معـه غـير الفئـة المؤمنـة ومـا أقلهـم لـو تعلمـين.

مـرت علينـا الأيـام سـوداء حالكـة رخيمـة، لم أعـد أطيـق رؤيـة «سـليمان» فقـد خـف وزنـه إلى حـدٍ موحـش وبـدا كـرأس ضخمـة فـوق جسـداً هزيـل. نتنـت رائحتـه وأصبـح يتحـدث كالدراويـش بعبـارات مُلغـزة كئيبـة، «بـن أبـان» بـلا شـك كان أكـثر منـه قـوة وبأسـاً، فلـم ينكـسر رغـم تـوالي المحـن والمصائـب.

نمـا داخـلي شـعور قـوي أننـا لـن ننتـصر.. أعلـم أن «عـلي» قـد مـرَّ بمـا هـو أسـوأ لكـن هـذه المـرة بـات الانتصـار ضربـاً مـن ضروب المسـتحيل. فحتـى النـصر المسـتحيل يحتـاج إلى بعـض المنطـق ليتـم، لكـن لم يكـن ثمـة أيـة أمـال في تلـك المـؤشرات الكارثيـة الدائـرة حولنـا، هـل تـراكِ تعتقديـن مـوتي وتظنـين الظنـون؟ أنـا حـي يـا «بـشرى» وقلبـي ينبـض بحبـك، تمنيـت أن يكـون لي مرسـال أرسـله إليـكِ فـلا ينقطـع الأمـل بيننـا، لكـن كل شـأن بميعـاد حبيبتـي... كل شيء بميعـاد.

***

أرسـل «بـن أبـان» في طلبـي، فأجلسـني بجانبـه تشريفـاً وربـت عـلى فخـذي قائـلاً:

- قـد قـرر «عـلي» ضرورة تكويـن جماعـات تعلـم مخـارج الأرض ومداخلهـا فتفاجـئ تجمعـات جيـش الخلافـة فتنـال منهـم في جنـح الليـل. عـسى أن يكـن لذلـك أثـر في تخفيـف قبضـة أولئـك الملاعـين مـن فـوق رقبـة المدينـة.

راق لي ما يقوله «بن أبان» وشعرت أنه سوف يؤمرني على واحدة من تلك السرايا، وهو ما كان، فأرسل معي رجل اسمه «صندل الساجي» يقال أنه شديد المراس وأنه لازم «علي» لفترة طويلة من الزمان. فاطمأن قلبي أننا معاً وتمنيت في نفسي أن ألقى «نصير» فأقتص منه وأؤمن حبيبتي من شره. كنا يومياً نخرج معاً مُتلحفين بالظلام فننال من بعض جماعات جيش الخلافة، كانت أكثر السرايا تهوراً سرية «أوس بن البحراني» فكثيراً ما كان يوغل في أرض العدو ويسرف في القتل وكأنه يتمنى الموت، لكن تلك شيمة الحياة من رغب عنها رغبت فيه ومن عشقها لفظته. فقد كان يرجع في كل مرة سالماً رغم كثرة الهالكين من حوله. أما أنا فقد كنت أتحايل على لأحصل على رجل من جيش «الموفق» وحيداً حتى أستطيع استجوابه قبل القتل... علني أعرف مكان «نصير» فأنال منه غرضي. لكن للأسف لم يستطع أحد الرجلين اللذين استجوبتهما في أيام مختلفة أن يدلني على مكان «نصير» إلا على سبيل الظن.. اليوم سوف أوغل في الأرض مثلما أوغل «أوس» فأتحصل على أحد المقربين من القادة فأعرف عنه مكان «نصير».

تسللت إلى أعماق جيشهم مُتجاوزاً الكثير من الجماعات الحارسة التي كانت قريبة منا.. كان «صندل» وآخرون جواري فتبادلنا الإشارات لبدء الإغارة على تلك الجماعة وبالفعل استطعنا إنهائهم في دقائق معدودة وقد أخذتهم المفاجأة. رفع «صندل» سيفه ليهوى به على رأس الجندي الأخير فأمسكت بساعده وطلبت منه التوقف بنظرة مني، فاستجاب صندل على كراهة وقال هامساً:

- نحن هنا في خطر يا «أدهم».. لا أعلم كيف طاوعتك أن نصل بأنفسنا إلى هذا الحد!

ترجيته قائلاً:

- دقائق معدوداتٍ ونرجع من حيث أتينا.

أدار وجهه على كراهة ونظر للرجال من حوله فكل أخذ يترقب من جهة خشية أن يأتي العدو منها، أما أنا فانكببت على صيدي الثمين ووضعت كفي على وجهه واقتربت بفمي من أذنه هامساً:

- «نصير» أريد «نصير» أين مكانه الآن وكيف أصل إليه؟

نظر لي الرجل نظرة رجاء وكأنه قد وجد القشة التي سوف يتعلق بها فخففت قبضتي من حوله قليلاً ليتحدث فاستفاق الخبيث من تحتي في لحظة وابتعد عن حد السيف وولى هارباً وهو يصرخ:

- فلتسأل عنه فرج أمك الأسود.. عله يجيبك بشفاهه القبيحة...

واستكمل الصراخ وهو يعدو قائلاً:

- النجـــــــــدة... الغوث.

أسقط في يدي ولم أدر ما العمل فقد شعرت بتحركات المجموعات من حولنا تتأهب لمحاصرتنا والقضاء علينا.. تبادلت أنا و«صندل» النظرات وآثرنا الهرب، أخذنا نعدو حول الآجام، لكن يبدو أن أحد الجند قد فاجأ «صندل» من خلف شجرة ضخمة وأستطاع إسقاطه والإمساك به، نظرت خلفي فوجدته وقد أحاطوا به تماماً فاستمررت في العدو حتى هدأت الأمور من خلفي. انتظمت الأنفاس واستكانت الحواس وقررت العودة مُتلصصاً مع ما كان يحمله ذاك من خطر وشيك، لكن الندم كان ينهشني فأنا السبب أن أمسكوا بالرجل ولسوف يهلكونه لا محالة.

كنت أرقب الحدث الجلل من بعيد، وقد اطمأن القوم أننا لن نعود، فإذا بـ «صندل» يُعرض على «الموفق» فيعرفه الأخير ويعرف فعاله.. كنت أتمنى على الله أن يتركوه أسيراً في خيمة ما عساني أن اقترب منه عندما

تهدأ الحركة فأحرره.. لكن يبدو أن الأمر غير ذلك فما هي إلا ساعة ونصف الساعة حتى أوقفوا «صندل» مُكبلاً وقد كان وجهه ينزف من شدة الضرب وقد اختفت ملامحه تحت قناع الدم. نادى المنادي في الناس فأيقنت أن «صندل» هالك لا محالة فإذا بالناس مجتمعين في دقائق قليلة ولما أشرف «الموفق» على الساحة أخذ أحدهم يعدد الجرائم التي كان يرتكبها فيقول:

- قد كان الأسود يكشف رؤوس المسلمات.. ويقلبهن تقليب الإماء فيُنصبهن عرايا في الأسواق ويعبث بعوراتهن وقد كن سيداته قبل حين، لذا قد حكم عليه مولانا «الموفق» بالقتل رمياً بالسهام.

عجباً... ألم يعروا نساءنا في الأسواق قهراً؟ فعبثوا بعوارتهن كيفما شاءوا بحجة معاينة البضاعة، كيف يعاقبون غيرهم على فعال يأتونها!

قال الرجل ما قال وتراجع ليسمح للرماة أن يصوبوا سهماهم إلى صندل، كانت المسافة التي تفصل الرماة عنه بعيدة لتزيد التسلية ويطول أمد المتعة.. فمرقت الأسهم الثلاث الأوائل بغير أن تصيبه ثم أصابه سهمٌ في كتفه تبعه آخر في فخذه وتوالت الأسهم تعقر من لحمه بغير رحمه وهو يتأوه ويتمنى على الله الموت حتى انطوت رأسه على صدره وانقطع عنه النفس[44].

أفقت إلى نفسي لأجد وجنتي وقد تبللا من مدامعي حزناً وألماً وندماً على رفيق قد ولى. لم أجد بداً غير الرجوع إلى المختارة من مسالك وعرة لا يعرفها إلانا معشر الزنج، لم تذق عيني النوم ليلتها وحتى عندما كنت أغفو كان يظهر «صندل» أمامي وقد رشق سهم في وجنته اليسرى وبرز من الناحية الأخرى وهو يلومني على فعلتي بصوت فيه خوار مُنفر ... عندها كنت أنتبه مفزوعاً.

44) حقيقة تاريخية: فقد تم إعدام صندل الساجي على هذه الشاكلة.

لم تمر ساعات قليلة حتى جاءني الخبر أن أسهم تتساقط علينا من خلف الأسوار وقد علقت فيها رقاع خُضر.. جعل فيها «الموفق» الأمان مبسوط للناس أسودهم وأحمرهم إلا «الخبيث» يقصد بذلك «علي» لم تكد تلك الرسائل تنتشر بين الناس حتى بدأت جماعات أخرى تفارقنا وتنصرف إلى «الموفق» وقد طابت أنفسهم بما وعد.

كلما وطنت نفسي على الصبر وأن الفرج قريب زادت الشدة من حولنا استحكاماً... فهل يا سيدي من فرج قريب؟.

***

أنا بن طولون

267 هـ

الصيام من أشد العبادات قسوة على نفسي، ففي الامتناع عن الطعام بؤس شديد وكرب غير محتمل، فلذة تناول الطعام لا يضاهيها لذة، حتى لذة الجماع... تتضائل متعتها بجانب لذة الطعام. لذا مزاجي اليوم ليس على ما يرام فغداً وقفة عرفات وعليَّ أن أصوم في الغد.

وصلني أمس خطاب تهنئة بعيد الأضحى من الخليفة «المعتمد». رغم أن «المعتمد» هو خليفة المسلمين الحالي فهو لا يملك من أمره شيء بعد أن سيطر أخوه «الموفق» على مقاليد الأمور، لذا كان ظاهر خطاب «الموفق» تهنئة وباطنه تأكيد على أواصر الصلة بيننا ليجدني جواره وقت الحاجة. هو كما يقول في الخطاب يشعر أنه مهدد... خاصة وأن الموفق بدأ يحرز تقدماً ملموساً على الزنج في جنوب العراق، وقد شعرت من الخطاب أن «المعتمد» في وضع لا يُحسد عليه، وهو حتى لا يعلم ما يتمناه على الله، فهل يتمنى أن ينكسر أخاه أمام الزنج فيتخلص منه، أم أن ذاك سوف يَجرُ عليه الويلات عندما يقع حائط الصد الذي بينه وبين صاحب الزنج؟

فيقول «المعتمد» في خطابه بعد المقدمات المعتادة:

وقد حاول «الموفق» وابنه «العباس» اقتحام المختارة على الزنج منذ أيام لكنه فشل. فقد عمد «الخبيث» إلى ركن من أركان المدينة وأحصن فيه وأنزل ابنه «أنكلاي» و«بن أبان» وقادة آخرون مواقع حيوية في المدينة واستطاع صد هجمة قوية للـ «موفق».

ولما رأى الموفق ذلك عرف أن أمر اقتحام المدينة سيطول لسنوات قادمة... لذا قرر بناء مدينة مقابلة لمدينة الخبيث وأسماها الموفقية وأمر بحمل الأمتعة والتجارات إليها فاجتمع بها من أنواع الأشياء وصنوفها ما لم يجتمع في بلد قبلها. الأمر الذي كلفني الكثير من الأموال وأرهق خزانة المسلمين فلم يتبق فيها إلا النذر اليسير. ولئن هلك جيش «الموفق» صرنا لقمة سائغة في يد «الخبيث».. أما الموفق فبعد أن بنى المدينة فقد زرع جيشه في منطقة واسعة حول المختارة وذلك للسيطرة على أكبر قدر من الأرض ومنع تحركات الزنج فيها ليمنع المؤن عنهم.

وأعلم أيها الأمير الكريم أن الموفقية قد عظم أمرها الآن... وصارت ملء السمع والبصر. وامتلأت بالمعايش والأرزاق وصنوف التجارات وعمَّرها السكان والدواب. ذاك قد شجع أعداد غفيرة من أتباع «الخبيث» أن ينضموا للـ «موفق» فبلغ مجموع من انضموا إليه في الوقت الذي أرسل لك فيه هذا الخطاب قرابة الخمسين ألف من الأمراء والخواص والأجناد. والآن هو يطلب مني أن أرسل إليه الخراف والدواب كي يذبح في العيد ويُطعم جيشه! أنا بين شقي الرحى أيها الأخ الكريم وقد عز الآن من أستطيع الارتكان عليه والأوضاع قد التبست كما ترى. فهل أستطيع الاعتماد عليك؟

لففت الرقعة وتأملت ما كتب فيها شارداً، ثم أمرت بابني «خمارويه».

قد عوضني الله به عن بن «خاتون». أظهر «خمارويه» نبوغاً

شـديداً خـلال الأشـهر القليلـة الماضيـة التـي أمَّرتـه فيهـا عـلى الجيـش، فقـد أحبـه الجميـع ودانـوا لـه بالطاعـة. قـد أنشـأ فرقـة خاصـة في الجيـش أسـماها «المختـارة».. قـد جـاء اسـمها متوافقـاً مـع اسـم مدينـة صاحـب الزنـج مصادفـة، وأوكل إلى رجالهـا مهمـة حراسـة القـصر السـلطاني.

- لبيك يا أبي.

- أهلاً خماروية، فلتقرأ هذا ...

مكث «خماروية» دقائق يقرأ من الرقعة، ثم نظر إليّ قائلاً:

- نحـن إلى جانـب «المعتمـد» بـكل تأكيـد، فـإن فـرغ «الموفـق» مـن الزنـج لسـوف يبتلـع أخـاه ثـم يسـتدير ليبتلعنـا نحـن الآخـرون..

- ذاك هو الرأي بني، أردت استشارتك لتكون على دراية بمجريات الأمور.

- وأريـد أن أستشـيرك في أمـر آخـر ... أشـعر بجفـوة في مراسـلات «لؤلـؤ» عاملنـا بحمـص وحلـب. أريـدك أن تسـتطلع الأمـر.

- سمعاً وطاعة يا مولاي.

كان خماويـة يهتـم صغـيراً بالـزروع والنباتـات وقـد أبهـره كيـف تنمـو الحبـوب مـن الأرض لتكـون زرعـاً مختلـف ألوانـه. ظننـت أن للفتـى ميـول وديعـة. لكنـه أحسـن ظنـي فيـه فـكان ذو شـخصية مزدوجـة شـديدة وحانيـة في آن واحـد الأمـر الـذي حقـق لـه مكانـة عاليـة في وقـتٍ قليـل.

خرجـت أتفقـد القطائـع مـن حـولي... أطمـئن عـلى أحـوال قاطنيهـا، فقـد اقتسـمت الأراضي مـن حـولي إلى أجـزاء واقتطعـت لـكل قـومٍ قطيعـة يقيمـون عليهـا، فهنـاك قطيعـة السـودان، وقطيعـة الـروم وأخـرى للغلـمان والمـوالي. اتخـذ كل أصحـاب قطيعـة حرفـة مـن الحـرف برعـوا فيهـا وكانـت الأسـواق والبضائـع تختلـف باختـلاف الأقـوام وعوائدهـم. ففـي سـوق السـودان يمكنـك أن تشـتري الجـراد لـلأكل، فهـم لا يجـدون في أكلهـا غضاضـة ويعاملونهـا معاملـة القريـدس

البحـري.. وقـد تجـد عنـد غيرهـم مـن الأقـوام العجيـب مـن المـآكل والمشـارب والبضائـع، قـد اخـترت أن تقـوم تلـك المدينـة عـلى مرتفـع مـن الأرض لتـبرز عـلى سـائر العمـران المحيـط، بنيتهـا مقلـداً سـامراء عاصمـة الخلافـة العباسـية، وقـد كانـت الأحـوال داخـل القطائـع مُنضبطـة وهادئـة وقـد حسـنت أحـوال الرعيـة.

خرجـت مـن المدينـة مُنتشـياً فلـم ألبـث غـير بعيـد حتـى غـرزت القوائـم الأماميـة لفـرسي في حفـرة عميقـة ليسـقط نصـف الفـرس داخلهـا وأنـا فوقـه. مـددت يـدي فامتـدت الأيـادي تتلقفهـا وتنتشـلني مـن الحفـرة التـي سـقطت فيهـا، أخـذت أنفـض الغبـار عـن ملابـسي ونفـسي وأمـرت الرجـال أن يعرفـوا كنـه هـذه الحفـرة، فوسـع الرجـال حولهـا وأخـذوا ينظـرون فـإذا هـو سرداب عميـق يـؤدي إلى صنـدوق عتيـق مُحكـم القفـل. أمـرت الرجـال أن يفتحـوا الصنـدوق فـإذا بـه أمـوال عظيمـة وجواهـر متنوعـة الألـوان وحـلي عجيـب الصنعـة.. كانـت تلـك الأراضي التـي بُنيـت عليهـا القطائـع مقابـر لليهـود والنصـارى فأمـرت بتسـويتها منـذ عـشر سـنوات وبنيـت القطائـع عليهـا، يبـدو أن ذلـك الكنـز يخـص أحـد قدمـاء المـوتى، بقيـت أقلـب في الصنـدوق لفـترة ثـم أمـرت باصطحابـه معـي إلى القـصر.

كنـت أشـعر بسـعادة بالغـة أثنـاء رجوعـي إلى القصر، وليس سـبب السـعادة ذاك الكنـز الـذي عـثرت عليـه، ولكننـي اعتـبرت الأمـر كلـه رسـالة إلهيـة قـد وجههـا اللـه تعـالى لي أنـه راضٍ عنـي وعـن حـال رعيتـي وأنـه يكافئنـي بذلـك الكنـز. كنـت أشـعر بالامتنـان يغمـرني فلـما عـدَّ الصرافـون قيمـة الكنـز وجدوها ألـف ألـف دينـار.. وفي ذروة الانتشـاء قـررت التـبرع بهـا كلهـا في أوجـه الخـير والـبر والصدقـات. فقـد رزقنـي اللـه المـال الوفـير والحمـد للـه، فعسـاه أن يغفـر لي وينـصرني عـلى «الموفـق» وابنـه «العبـاس» فانـه لا بـد غالـب الزنـج ولسـوف يكـون لنـا لقـاء عـمّا قريـب.

***

أنا علي

محرم 268 هـ

قد أنضم «السجان إلى «الموفق» كان «السجان» أحد قوادي الكبار... وانسحابه يعني قسمة عظمى في ظهري. ولسوف يؤدي انسحابه إلى انسحاب الكثيرون من خلفه، ولئن لم ينسحب معه رجاله، لسوف ينسحب ورائه الكثير من القواد ممن هم في قامته وينضموا إلى «الموفق» فيفرغ جانبي.

كانت تتوالى عليَّ الكوارث تترى، والهواء يضيق بصدري. لم أجد عزاء عند جميع من حولي إلا عند «سعدية» زوجتي الأولى، كانت تحبني حقيقة، ولا تتمن من الدنيا شيء إلا راحتي وأمني وسلامتي وسعادتي.. تباً للاعتياد... فما أن تعتاد على وجود أحدهم في حياتك حتى تمله وتزهده. ندمت ندماً شديداً أن اتخذت غيرها من الزوجات والحلائل، ندمت أني قد شغلت بهن عنها، فهي من كانت تستحق الوقت والاهتمام. لو كان في العمر بقية سألازمها كل لحظة باقية ولصاحبتها ما بقى من العمر... أحاول أن أعوضها عن الجفاء السابق.

فقدت شغفي بالحياة ونعيمها، واتخذت الموت صديقاً وواعظاً، فصرت

أكثر ثباتاً رغم تتابع المصائب. لم يكتف «السجان» بالانشقاق عنا ولكنه طعن فينا وفي مذهبنا وهاجم سياستنا وتبرأ من جهاده معنا على الملأ بعد أن جمع له «الموفق» الناس ليسبني على الملأ. هل أنا من قلت لكم أن المصائب لا تأتي فرادى!

في الثامن من ربيع أول حدث زلزال شديد في بغداد فاهتزت الأرض من تحت أقدام أعداء الله وانهمرت عليهم الأمطار لأيامٍ ثلاث متواصلة بغير أن تتوقف ولو للحظة. نمت تلك الليلة ورأيت حلماً مُبشراً... فرأيتني فوق فرساً عظيماً وفي يدي صارم ضخم أحصد به هامات رجال قد تقزمت قاماتهم وبينما أنا كذلك إذا بأعداد كبيرة منهم تهم الخطى نحوي وهم يجأرون. لم يكن أحد بجواري... فقط أنا وفرسي العابس... يجندل الأعداد بحوافره يحارب معي كشخص واعٍ.

وفجأة انشقت الأرض على الجمع القادم، فبدأت الأرض تبتلعهم وهم يصرخون مفزوعون.. بعد أن انتهت الأرض من ابتلاع صرخات الهالكين بقى بعضهم في الناحية الأخرى. وبينما هم يتحسرون على زملائهم مستعجبين فاذا السماء تبرق وترعد والأمطار تنهمر والسيول تجرفهم من أماكنهم لتبتلعهم الشقوق الأرضية البادية أمامهم.

أفقت من نومي متفائلاً بالنصر. وأن الشدة لا بد أن يتبعها لين وفرج، تشجعت وشددت من أزر نفسي وقمت أحصر ما في يدي من عدة وعتاد حتى أواجه «الموفق» وانتصر عليه في تلك الجولات الفاصلة.

في الثامن من ربيع الأول أخبرني الرجال الرابضين على الثغور أن «الموفق» بدأ في تحريك جحافله نحونا. شعرت أن رؤياي تتحقق، جمعت الرجال واستحكمت من الدفاعات وتحركنا للدفاع عن آخر مدننا الباقية. لم أرد أن أترك رجال «الموفق» في محاولاتهم لاقتحام الأسوار، خاصة وأنهم

قـد خربـوا فيهـا أجـزاء كثـيرة وسـار مـن الممكـن اختراقـه. دفعـت برجـالي مـن أبـواب المدينـة المختلفـة لمواجهتهـم قبـل الأسـوار بمسـافة كافيـة. ورغـم الشـجاعة التـي أبداهـا الجمـع مـن جهتـي فلـم نسـتطع زحزحـة جحافـل «الموفـق» التـي بقيـت تجثـم فـوق صدورنـا الدقيقـة تلـو الأخـرى حتـى وصلـوا إلى حـدود أسـوار المدينـة. عندهـا أمـرت الرجـال بالانسـحاب خلـف الأسـوار وغلقنـا الأبـواب دونهـم وقـد آثـرت الدفـاع عـن المدينـة مـن خلـف الأسـوار. هـدأت الأمـور وصرت ألملـم الجـرح وأحـصر القتـلى حتـى فوجئـت بعد سـاعات بمحاولـة «العبـاس» أن يخـترق أسـوار المدينـة... اسـتدعيت الرجـال بسرعـة:

- أدهـم... سـليمان.... أوس... جميعكـم، فليقـم كل واحـد فيكـم عـلى رأس جماعـة لمواجهـة أولئـك الملاعيـين عندمـا يخوضـوا داخـل المدينـة ولتنصبـوا لهـم كمائـن تلقونهـم منهـا فـإن سـقطت المدينـة فلـن نجـد لنـا مـن دونهـا موئـلا.

تحـرك الرجـال تحـت قيـادة مـن عينتهـم واختفـوا بـين أروقـة المدينـة.. تركناهـم يتسـللون مـن بـين الأسـوار قصـداً، وعندمـا اطمئنـوا ووصلـوا إلى منتصـف المدينـة قبـال المسـجد... بـرز لهـم الرجـال مـن كل حـدبٍ وصـوبٍ فلـم يسـتطع جنـد الخلافـة الثبـات لهـم وأخـذوا يفـرون منهـم إلى أعـماق المدينـة لتنغـرز أقدامهـم فيهـا أكـثر فأكـثر.

قضينـا عليهـم جميعـاً ولم يسـتطع الهـرب منـا إلا النـذر اليسـير فاقمنـا فيهـم مذبحـة عظيمـة ولقناهـم درسـاً قاسـياً لـن ينسـوه مـا عاشـوا. تجولـت بـين الشـوارع أرقـب آثـار الصرعـى والـدم.. كانـت رائحـة الدمـاء الطازجـة تمـلأ الطرقـات وتجثـم عـلى الأنفـاس، أمـرت مـن حـولي بتنظيـف المدينـة وشـحذ السـيوف وتوحيـد الصفـوف ترقبـاً لأي طـارئ. ربمـا نسـتطيع الانتصـار عليهـم مـرة أخـرى ورد الكـرة عليهـم، فـلا شيء مسـتحيل... فقـد بـدأت وأنـا أضعـف مـن ذلـك، ومـا النـصر إلا مـن عنـد اللـه.

عندما عدت إلى قصري قابلني أولادي فرحين بسلامتي، قد تحسنت علاقتي بهم في الآونة الأخيرة وتوحدت معهم عندما حسنت علاقتي بـ «سعدية». اغتسلت من آثار الدم المتجلط ولبست ثيابا نظيفة وبينما أتناول طعامي قالت زوجتي:

- هناك شيء قد رأيت أن أؤجل علمك به لحين أن تستريح.

توقفت عن المضغ، وسألتها بفم امتلأ بالطعام:

- ما الأمر يا «سعدية»؟

قالت بشماتة فشلت أن تخفي آثارها:

- قد فرت «هند» و«فائزة» أثناء المعركة فخرجوا من المدينة، وقد وردت إليَّ الأخبار أنهما قد وصلا إلى الموفقية واستقرا بها.

صراحة ... قد فجعني الخبر.. توقفت عن الطعام فلم أتخيل أن تكون الخيانة من أهل بيتي رغم كل شيء. حزنت «سعدية» عندما لاحظت ما اعتراني، أما أنا فلم أكلف نفسي مداراة ضيقي.. قمت عن مائدة الطعام مغموماً وتوجهت مباشرة تلقاء مجلسي فاستئذن «أوس» بالدخول عليَّ فأذنت له:

- مرحى يا «أوس» قد أبليت بلاءاً رائعاً في الساعات الماضية كما هي عادتك.

ظل «أوس» صامتاً واكتفى بهز رأسه.. لم آبه لصمته وقد اعتدت منه ردود الأفعال الشاذة:

- أي رياح طيبة أتت بك أيها بطل؟ انفلتت ضحكة ساخرة من فمه سرعان ما اختفت وقال:

- الأعراب الذين يُهَربون لنا الطعام والمؤن، قد عرف بهم «الموفق» وقد أفرد لهم فرق قتالية لتتعقبهم وتقضي عليهم.. ولئن نجح في ذلك فلسوف نهلك في غضون شهر على أفضل حال.

***

أنا بن طولون

269 هـ

لم آمن يوماً لـ «لؤلؤ» فلم تمض أيام قليلة على خيانة ابني «العباس» حتى عرفت أنه كان من دعائمها. لم أشك فيه حينها لأنه كان من أبلغني بخيانة الولد. لكن لم تمض أيامٍ آخر حتى تبدى الأمر واضحاً. فإن لم يكن لـ «لؤلؤ» دور فعال في ذاك الانقلاب المشؤوم... فمما لا شك فيه أنه لزم الحياد وأمسك العصا من منتصفها. فمن الجائز أنه أبلغني على نحو خفي حتى يضمن لنفسه مكان معي إن كانت الغلبة لي. ورغم ذلك وليته الضياع وأغدقت عليه ووأدت في نفسي الشك المتقد. ورغم ذلك خذلني «لؤلؤ»... هذا القصير المكير، البدين، الذميم... خانني «لؤلؤ».

قد أبلغني الرجال بحمص وحلب أنه قد جمع الثروات والأموال، وأرسل إلى الموفق يعلمه أنه يريد الانضمام إليه. تأخرت رسالة ولاة الأمصار إليّ لأيامٍ ثلاث، قد يكون «لؤلؤ» الآن في منتصف الطريق. يقولون أن سرية كاملة وافقت على التحرك معه للـ «موفق» خصصها لحمايته لأنه يتوقع مني محاولات الإمساك به، وأنا عند ظنه بي. فقد هيجت آلاف الجند من خلفه وفرقتهم في جميع الأنحاء عساني أستطيع قطع الطريق

عليه والإمساك به. لن يزد «لؤلؤ» الموفق في شيء، ولن ينقصني هربه شيئاً لكن كذا أنا غير تاركه... فلا أحد يسرق من طبقي الطعام ويظن في نفسه مكنة الهرب.

كاد صدري ينفجر من الغيظ وبقيت باقي المساء أتصور وأن «لؤلؤ» قد سقط بين يدي وأنا أفعل به الأفاعيل. تمنيت على الله أن أستطيع الامساك به حتى أقتص من خيانته، لأحرقن وجهه الملتحي حياً ولسوف آبقر بطنه المتدلية واستل أمعاءه المتفحشة أمامه وهو ينظر.

دخلت عليَّ «خاتون» وأنا أذرع بلاط القصر ذهاباً وإياباً وقد عقدت يديَّ وراء ظهري تنظر إليَّ وقالت:

- إلى متى سيظل ابني «العباس» في الحبس؟!

لم أمهلها لتقول المزيد فانطلقت نحوها ورفعتها عن الأرض ورميتها، أمسكتها مُستلقية من كتفيها بقوة وقد دنوت بوجهي من وجهها قائلاً:

- «العباس»... «العباس»... «العباس» ... لعن الله «العباس» ذلك الكلب الخائن لتحمدي خالقك أني لم أقطع عنقه جزاء خيانته وتالله لأقتلنه أن تشفعتي فيه ثانية، هل فهمت؟؟

كنت أصرخ في وجهها والزبد يتطاير من فمي ويلتصق بوجهها فهزت رأسها خائفة أنها تفهم، فلم أكتف وصرخت ثانية بصوت هادر:

- هل فهمـــــــــــــــت؟

قالت: نعم بصوت خفيض ولوت رقبتها لتلصق وجنتها بالأرض، لم اكتف بما فعلت فبصقت على وجهها وركلتها تاركاً لها البلاط بأكمله...

ما تظن هذه المأفونة، أن أخرج لها ابنها عساه هذه المرة أن ينجح في خلعي وقتلي أو في قتل أخيه، أهذا ما تريده لي لمصلحة ابنها؟! إذاً فليذهبا هي وهو إلى أعمق أعماق الجحيم، فأنا أدري بشأني.

نزلت إلى تلك الحديقة الغناء التي زرعها «خماروية» عساني أهدئ من ثورة نفسي المشتعلة. بقيت أتأمل في الأشجار الغريبة من حولي وأشكالها العجائبية الساحرة، قد قال لي «خماروية» أن هذه الحديقة تشتمل على جميع أنواع الزروع على وجه البسيطة فقد أتى ببذورها من أنحاء العالم، هدأت نفسي وطابت... ففي التوحد مع الطبيعة مُتعة روحية يغفل عنها الكثيرون.

كنا في جمادي الأول عام 269 من الهجرة، فإذا بحاجبي الخاص يستأذن لعرض أمر عليَّ فقبلت وأشرت له أن يدنو. فإذا هو خطاب من «المعتمد» خليفة المسلمين يخبرني فيه بأن النصر كان حليفاً للـ «موفق» خلال الأشهر الأخيرة المنصرمة. وأن انتصاره على صاحب الزنج بات أمراً محسوماً والمسألة تتعلق بالوقت فقط. وأنه يريد أن يوافيني إلى القاهرة لتنتقل السلطة السياسية للخلافة معه إلينا لنستطيع التحرك منها للنيل من «الموفق» وابنه عندما نكون مستعدين لذلك.

طويت الخطاب وقد طابت نفسي به. فقد رد الله على «الموفق» صفعته بأشد منها، فقد أغوى شخص حقير كـ «لؤلؤ» أما أنا فقد استطعت الفوز بخليفة المسلمين ليسكن الديار المصرية فتكون الشرعية معي عندما أقاتل جنباً إلى جنب مع خليفة المسلمين ضد أخيه الطامع المُهدر لحدود الله. أرسلت في طلب قائد الجيوش وأمرته بإعداد جيش صغير يتلقف الخليفة الهارب ويأتيني به آمناً إلى مصر. وأمرته أن يرتكز في الرقة وينتظر مَقْدَم خليفة المسلمين.

طالما آمنت أن السعادة تأتي بالسعادة فما أن تجولت في حديقة «خماروية» العجائبية واستنشقت من هوائها النقي حتى تحسنت حالتي ومن ثمَّ توالت الأخبار الطيبة، وبما أن «المعتمد» سوف ينضم إلينا

ويطلب الشرعية وإعلان الحرب على أخيه فلتبدأ حربنا عليهم من حيث لا يشعرون.

أرسلت إلى «خمارويه» وأمرته بتجهيز جيش صغير إلى مكة للسيطرة عليها وليعلم الناس أن ذاك بموافقة ومباركة خليفة المسلمين الذي طلب تدخلنا لدعمه ضد أخيه الذي تغولت سلطاته واستبد في حكمه.

انطلق خمارويه ينفذ ما أمرته. فجمع الرجال وحث الخطى جهة أم القرى يحاول السيطرة عليها، فمن يملك مكة من الحكام تكون له مكانة خاصة بين السلاطين لأمور لا تخفى على أحد. أرسلت خطاباً آخر إلى الخليفة «المعتمد» من خلال مبعوث سري أخطره فيه أني أقبل وأرحب بانتقاله إلى القاهرة وأن ذاك تشريف عظيم.

كنت أترقب الأنباء من مكة قلقاً على «خمارويه» وطمعاً في نصر قريب. ورغم حماسنا الشديد وصلابة وضعنا الحالي وشجاعة «خمارويه» التي لا يجادل فيها أحد.. جاءت الأنباء من مكة غير مُبشرة، فقد انهزم جندنا وصار بيننا مائتين من القتلى واستطاع جند «الموفق» المحافظة على مكة والزود عنها. حزنت للأخبار المُفجعة وكان عزائي أن ابني بخير والخليفة نفسه في طريقه إليَّ ومن خسر جولة لا يمكن اعتباره قد خسر المعركة. الوقت مُمتد والميدان متسع ولا زال الأمر سجال.

لم أكد أفرغ من التخفف من أعباء الهزيمة حتى واتتني الأخبار المُحزنة ثانية. فقد استطاع «الموفق» القبض على أخيه وهو في طريقه إليَّ واحتجزه أحد عماله.

أنا الموفق

269 هـ

أرشدني رجال من المستأمنين[45] أن «الخبيث» يأتي بطعامه إلى مختارته عن طريق جماعة من الأعراب، يغدق عليهم من الأموال التي انتهبها ليهربوا له الطعام والمؤن إلى داخل المدينة، ودلني المُستأمنة كذا على الطرق التي يسلكها أولئك الأعراب حتى يصلوا إليه، لذا وكلت إلى «نصير» التحرك إليهم وقطع الطرق عليهم وتشريدهم، وقد نفذ الأخير الأمر... فأسقط بين يدي الأعراب وهربوا إلى كل حدبٍ وصوبٍ واستطعنا الاستيلاء على الكثير من المؤن التي كانت معهم. ومن أعظم ما كان في هذه الحملة الخاطفة أن «نصير» استطاع خلالها القضاء على «بهبوذ بن عبد الوهاب» أحد قادة الزنج الأشاوس والمُقربين للخبيث، فكان ذلك فتحاً عظيماً لنا ورزية عظيمة للزنج، أرسلت إلى «نصير» استوثق منه تفاصيل ما دار بينه وبين الأعراب وعندما وقف في حضرتي وصف لي ما كان وعدَّدَ الغنائم، فقلت:

- مرحى «نصير».. عليك الآن أن ترسل جماعات من الرجال لتأمين تلك الطرق التي كان يتسلل أولئك الأعراب منها لنمنعهم من إيصال المؤن إلى المختارة.

45) لزنج الذين استأمنوا أنفسهم لدى «الموفق» وانضموا ثانية إلى صفوف العباسيين.

- سمعاً وطاعة يا مولاي.

هم بالانصراف فاستوقفته:

- «نصير»... لماذا كان يريد «الساجي» قتلك أنت تحديداً؟

احمر وجهه وارتبك ثم رد:

- لا أدري يا مولاي.. ربما قتلت له أحد الزنج من أقاربه فأثار ذاك حمية نفسه فعزم على الانتقام.

كان يتحاشى النظر إلى عيني مباشرة فعرفت أنه يكذب. ومع ذلك سمحت له بالانصراف، فلدي من الأمور ما هو أهم من ذلك، ولكني سوف أتفرغ لمعرفة ما وراءه عمّا قريب.

فإن كان لي شاغل الآن، فهو أخي الذي لا يرضيه إلا أن يغرز السيف في ظهري أبداً ما وليته إياه، فها أنا أجاهد وأفكر وأدبر لأتخلص من أعداء الخلافة... وخليفة المسلمين نفسه يتعاون مع أعدائي في هذا الوقت الحرج من المعركة.

خرج الخليفة المبجل يقصد عدونا الذي رفض التعاون معنا «أحمد بن طولون» ليقيم معه حلفاً ضدي أنا وابني الذين نقاتل في سبيله في مقامنا هذا. لكن يمكرون ويمكر الله... فقد قبض عليه نائب الموصل «اسحاق بن كنداج» عندما كان يحاول العبور إلى مصر. وقد أرسل إلينا «اسحاق» أن الخليفة «المعتمد» محتجز لديه وأنه يحاول الفرار إلى مصر للانضمام إلى «أحمد بن طولون» وأنه قد وجد صحبته عدد من الأمراء والأعيان، قبض عليهم «إسحاق» وأرسل لي قائمة بأسمائهم، وأخبرني كذا أنه كان من المزمع أن يصل الخليفة إلى الرقة ليجد جيش «بن طولون» ليتلقفه من هناك ويوصله إلى مصر سالماً.

ولما سألني «إسحاق» فيما يعمل في شأن الخليفة والأعيان الذين قُبِضَ عليهم، أمرته أن يُلزِم الخليفة أن يرجع إلى سامراء هو والأعيان الذين معه وأن يُقَرعه ويلومه على فعلته أشد اللوم، وأن يمرر له أمري أن يقوم بلعن «بن طولون» على منابر المساجد في الصلوات من هذا اليوم فصاعداً.

نفذ «إسحاق» ما أمرته به ورجع «المعتمد» ومن معه من الأمراء إلى سامراء أذلة صاغرين.. وقد عرف الجميع سبب خروجهم وعودتهم على تلك الشاكلة فصغر خليفة المسلمين في عين رعيته وهان أمره على الناس، فاقتص لي الله تعالى من حيث لا أحتسب وطابت نفسي بالتصاريف الإلهية، أما «اسحاق» فقد كافأته على جميل صنيعه بأن وليته جميع أعمال أحمد بن طولون إلى أقصى بلاد أفريقيا.

***

وصلتني الأخبار أن «بهبوذ» لما قُتل... أراد أصحابه أن يرثوا عنه ثروته وماله. أبى الخبيث عليهم ذلك، فهو في حاجة شديدة إلى المال في الوقت الحالي لكي يستطيع كسر الحصار الذي فرضناه عليه.. لكن أتباع «بهبوذ» لم يرضوا بالحجج التي ساقها لهم الخبيث طمعاً في الأموال... فآثروا الخروج عليه والانضمام إلينا، فأرسلوا لي مرسالاً منهم يسألني إن كنت أقبلهم؟ بالطبع قبلتهم، فما منَّ الله عليَّ من نصر سببه في الأساس حالة القبول العامة التي استقبلت بها الذين فاءوا من الزنج، فقد قويت شوكتي بهم وأتتني من ناحيتهم معلومات لم أكن لأحصل عليها إلا من مثلهم، وإن كان للنصر الذي أحققه الآن سبب رئيسي فهو انضمام المُستأمنة من الزنج إلى جيش العباسيين.

لكن الانتصار على الخبيث أمر وعر ويحتاج إلى صبر ومراس. والاندفاع في مغامرة أمر قد يكون له عواقب غير مأمونة، فالعقل أن نتأنى حتى

نصل إلى ما نريد، فالخبيث يحاول أن يجرنا إلى حرب شاملة في القطاع الغربي على جهلنا بدروبه ومداخله ومخارجه، ولئن لقيناه هناك فأغلب الظن أن الغلبة ستكون له.. فالمعرفة بطبيعة الأرض مفردة أساسية من مفردات النصر. لذا اكتفيت بصد الهجمات المتفرقة التي يحاول أن يشنها الخبيث علينا من تلك الجهة، على أن نستمر في هدم أسوار المدينة كما بدأنا.

كان الأقدمون يحفرون تحت الأرض أنفاق يتسللون منها إلى المدن المراد دخولها. لن تفلح هذه الطريقة الآن فهي مُكلفة... والأعداد المتسللة يجب أن تكون صغيرة فمهمتها التوغل في المدينة والوصول إلى أبوابها وفتحها للجحافل المنتظرة. وللأسف فإن ذاك كله لا يناسب حالنا، فعلينا فقط أن نستمر في هدم أسوار المدينة بلا هوادة.

ولكي أسيطر على الجانب الغربي أمرت الجند أن يوسعوا لنا موضعاً في الجانب الغربي فأمرتهم بقطع النخيل وإصلاح المكان وأن يتم حفر الخنادق وبناء الأسوار فيه وذلك لتأمين مبيت الجند ضد هجمات الزنج الليلية وجعلت حماية الهدامين والمقيمين بذاك الجانب نوبات على قادة الجيوش.

كان هناك قنطرتين للزنج يعبرون عليها وقت القتال ليفاجئوا رجالنا من الخلف. لذا أرسلت فرقة يرأسها «العباس» للانتصار في هذه الموقعة الدقيقة والهامة فيقطعوا القنطرتين.. ولله الحمد فقد نجح «العباس» بعد عناء شديد، فقد كان الزنج يزودون عن القنطرتين بكل قوتهم، لكن «العباس» في النهاية استطاع الانتصار عليهم واخضاع القنطرتين لنفسه وقطعهم فخفت هجمات الزنج من ذلك الجانب إلى حين.

بدأت التدبيرات تؤتي ثمرها، وشعرت أن الخبيث في موقف ضعيف، فاستدعيت قادة الجيش آخذ رأيهم في محاولة الدخول إلى المختارة، فأيدوني

بالإجماع. فأنا من كان يقف حجر عثرة في طريق اقتحامهم للمدينة حرصاً مني على سلامة الجنود واستجلاباً لأسباب النصر. أخذت أصلي في الفجر متضرعاً لله تعالى أن ينعم علينا بالنصر المبين، ونبهت على القادة في الجيش ألا يوغلوا في الدخول إلى المختارة كي لا يكون ذاك شرك قد نصبه الزنج لنا، وأن التقدم يكون على تؤدة وبمنتهى الحرص.

***

بدأنا التحرك بمعظم قوتنا إلى المختارة وذاك من الجانب المُهدم من السور، استطعنا دخول المدينة ولله الحمد وكانت الغلبة لنا. قررت أن أتوجه بقلب الجيش إلى الجامع الكبير الذي بناه الخبيث لأتباعه أُهَدِمهُ، وقفنا أمام الجامع فظهر لنا الزنج من كل حدبٍ وصوب... واشتدت مُحاماتهم عنه، فلم نستطع الوصول إليه رغم كثرة أعدادنا وقلة عددهم وعتادهم، فقد بدا أولئك أنهم قد أصيبوا ببوري الزنج[46] فكان أحدهم يُقتل أو يُجرَح فيجذبه الذي يليه ويبقى مكانه يزود عن المسجد، فلما رأيت ذلك قررت أن أرسل ابني «العباس» إلى الجهة الأخرى من المختارة فأشاغل الزنج عن استحكاماتهم عن المسجد. ولله الحمد والمن، فقد نجحت الخُطة... ولاحت إمارات الفتح وسار الزنج يُجَندَلون من أمامنا ولا يملكون لأنفسهم مصد ولا مرد.

فجأة، شعرت بعمودٍ من النار يخترق صدري في نوبة ألم صارخ. وقعت من فوق صهوة الجواد فإذا بسهمٍ طويل قد انغرز في صدري وقد اجتمع حولي الرجال يزودون عني وينسحبون مرة أخرى من المدينة.

***

46) غضبة شديدة تصل بصاحبها إلى حد الجنون اشتهر بها الزنج.

اسمي أدهم

269 هـ

كُنا نُنتَهك بمعنى الكلمة، ونال منا جند الخلافة منالة عظيمة، وكدنا نفنى لولا السهم الذي رماه «قرطاس»... فقد استطاع ذاك البطل أن يصيبَ الموفق في صدره إصابة قد تُرديه في غضون أيامٍ قليلة، تخلخلت صفوف جند الخلافة تخلخلاً عظيماً واختلت ترتيباتهم عندما أصيب «الموفق»، الأمر الذي اضطر جنده إلى التراجع به إلى «الموفقيه» حتى يتلقى العلاج اللازم، تعجبت للأمر... فموت أو إصابة أمراء الجيش عندنا معشر الزنج إن كان له تأثير فهو تأثير هامشي نسبة للزلزلة العظيمة التي أصابت جيش الخلافة بإصابة موفقهم.

توالت الأخبار علينا أن أصابة «الموفق» خطيرة وأنها تستلزم نقله وعلاجه في سامراء نفسها، لكنه رفض ذلك لئلا يخسر التقدم الذي أحرزه علينا خلال الأشهر الفائتة وآثر أن يتم علاجه بالموفقية رغم ضعف الإماكانيات العلاجية فيها حتى لا يفت ذلك في نفوس جنده، لكن في النهاية توقف جيش الظلم عن الزحف علينا وأعطانا برهة نلتقط فيها أنفاسنا.

أمرنا «علي» أن نقوم ببناء الحوائط التي نقبها جند الخلافة.

ورغم أن ظاهر هجمة «الموفق» الفشل فباطنها النجاح، فقد استطاع النفاذ إلى قلب المدينة وهدم أجزاء ضخمة من المسجد الكبير، وقد نجح كذا في القبض على قادة كبار منا، فقبض على «شبل بن سالم» و«الشعراني» وغيرهما فلا شك أنه سوف يقتل جميع أولئك خلال أيام.

سمعت في المساء خبر هالني... فقد انشق علينا «أوس» وانضم إلى جُند الخلافة، لم أفهم منه ذلك... كيف يعيش في كنف من قطعوا أبيه وحرَّقوه، قد خذلني «أوس» خُذلاناً مُبيناً، عامة قد كان «أوس» دوماً غريب الأطوار لم أفهم دوافعه في كثير من الأمور.

يكاد الشوق إلى «بشرى» يقتلني، أحلم بها في كل ليلة... أحلم بها مُتيقظاً وغافياً ونائماً، تجري مني مجرى الدم، إن سلخَ «الموفق» جلدي ليجدنها بين جلدي ولحمي، ليتني أعلم أخبارها وأحوالها واشتم من عبير أنفاسها، عجيب أن قرب «نصير» مني على أرض المعارك يطمئني رغم أنه أبغض الناس إليَّ، فقُربه مني يعني بُعده عن «بشرى» وكفه عن إيذائها، وهو الآن تاركها بغير أن يطأها، هل تراها تستمتع بفعاله معها؟... نفضت تلك الأفكار السوداوية عن نفسي شفقة بنفسي، ووطنتها وطمأنتها أن «بشرى» ذكرت في خطابها أنه ما يأتيها إلا غافلة... وأنا أصدقها فقد بحثت هي عني رغم الخطر وأرسلت لي من يطمأنني على استدامة العشق والوجد، فما كان أحد ليجبرها على ذلك إن كانت لعيشتها مع «نصير» راضية.

***

برأ «الموفق» من إصابته بالسهم في شعبان ولم يمهلنا كثير من الوقت، فأرسل النقَّابين ليُنقبوا في أسوار المدينة مرة أخرى، وبينما يلهونا الأمل

أن أمـر تحـرك جيـش الخلافـة سـوف يطـول فـإذا بهـم يزحفـون علينـا زحفـة سـاحقة يـوم 18 شـعبان فاسـتعد الموفـق لذلـك بـأن أعـد عـروق ضخمـة مـن الخشـب وقـد كسـاها بجلـد الجواميـس والخيـش المُعالـج للعبـور مـن فـوق الخنـادق، ولازم الحصـار علينـا حتـى فتـح المدينـة مـن حدودهـا الغربيـة، ودخـل إلى وسـط المدينـة وخـرب مـا بقـى مـن المسـجد الكبـير، ثـم انتقـل إلى قـصر «عـلي» يريـد اقتحامـه عليـه وهدمـه، لكنـه لم يسـتطع لشـدة اسـتحكماتنا عليـه، فلجـأ إلى تحريـق قـصر «بـن أبـان» وكبـار القـواد، فانصرفـوا عـن قـصر «عـلي» ليحمـوا قصورهـم وتمكـن «الموفـق» أخـيراً مـن قصـور الجميـع بعـد عنـاء شـديد.

في غضـون ذلـك أسـتطاع «العبـاس» أن يقطـع سلسـلة ضخمـة أقامهـا «علي» عـلى النهـر ليمنـع مـرور السـفن منـه، فأصبـح المجـرى المـائي الآن متسـعاً أمـام سـفن العباسـيين، عندهـا أعطـى «الموفـق» أوامـره للسـفن أن تتحـرك عـبر النهـر حتـى تتعـدد جهـات الهجـوم علينـا، بـدأت السـفن في التحـرك وبلغنـا أمرهـا فطلـب منـي «عـلي» أن أذهـب عـلى رأس جماعة فنركب السـميريات والشـذوات نحـاول إيقـاف تقـدم البـوارج العباسـية، اسـتقبلت الأمـر ولم ألـوي... وجمعـت الرجـال وتحركنـا إلى النهـر ولاحـت لنـا بـوارج العباسـيين الجبـارة تشـق المـاء مـن تحتهـا شـقاً، وعندمـا اقتربـت أولاهـا لمحـت عـلى رأسـها «نصـير»... ذات المنظـر الـذي يهيـج قلبـي ويبـث القـوة في أنحـائي، أشـعر وكأن قلبـي يريـد أن يثـب مـن بـين أضلعـي ويصـل إليـه.

تعلمـت مـن الـدرس السـابق وأن شـذواتنا الصغـيرة لـن تسـتطيع مواجهـة تلـك البـوارج العظيمـة، فلاحـت في ذهنـي فكـرة ...

يظـن الخليفـة أنـه قطـع السلسـلة الحديديـة فخـلا لـه وجـه النهـر، لا يعلـم أن هنـاك قنطـرة أماميـة سـوف تعيـق تقـدم بوارجـه الضخمـة، قصـدت

أن يـراني «نصـير»... فاعترتـه النـار التـي اعترتنـي وتحـرك بعصبيـة فـوق ظهـر بارجتـه التـي بـدأت في زيـادة سرعتهـا، فزدنـا نحـن الآخريـن مـن سرعتنـا وشـددت مـن همـة جميـع الشـذوات مـن حـولي، كانـت سرعـة البارجـة عـلى ضخامتهـا... كبـيرة، فصـارت تصطـدم بشـذواتنا الصغـيرة وتكسرهـا لتغـرق بمـن فيهـا، فجـأة وجـد «نصـير» نفسـه أمـام القنطـرة وقـد عـبرت شـذواتنا مـن تحتهـا بأمـان كفـئران متسـللة في ثقـب حائـط.

عـرف حينهـا «نصـير» أنـه ان تقـدم لسـوف تتكـسر سـفينته حتـماً، فأخـذ يـصرخ في الرجـال أن يتوقفـوا، أخـذت سـفينته تتقـدم رغـم تجديـف الجنـود في الاتجـاه المعاكـس حتـى لامسـت القنطـرة لمسـاً خفيفـاً، وتكـسر جـزء مـن مقدمتهـا... تنفـس «نصـير» الصعـداء أنـه نجـا مـن تلـك الحيلـة، لكنـه لم يلبـث أن تفاجـئ بصـوت قرقعـة الأخشـاب المُتكـسرة والسـفن الخلفيـة تصطـدم بسـفينته فتفتتهـا أشـلاءاً، أسـقط في يـده وعـرف السـوء، وكان يـراني وأنـا أرقبـه يغـرق شـامتاً، كانـا الغيـظ يمـلأ قلبـه فطغـى غيظـه عـلى خوفـه مـن المـوت، قرقعـة السـفن تتصاعـد وتتـوالى ويغـرق بعضهـا بعضـاً مـن أثـر الاندفـاع، وهنـا تحـرك رجالنـا بالشـذوات تحـركات خفيفـة رشـيقة يصعـدون إلى مـا بقـى مـن السـفن يذبحـون مـن بداخلهـا ، وبالطبـع كنـت أنـا أول المُتحركـين...

صعـدت إلى سـفينة «نصـير» فـكان الجميـع عنـه لاهـون، رآني فـصرخ صرخـة عظيمـة واسـتل خنجـر قـد تمنطـق بـه واندفـع نحـوي، فاديتـه بانحرافـة مـن جسـدي ثـم انطلقـت وراءه والقمتـه نصـل خنجـري في كتفـه، أنهـارت بنـا السـفينة اثـار التحـام جسـدينا فانقلبنـا أنـا وهـو في المـاء، فتحـت عينـي تحـت طبقـات المـاء البـاردة لأحسـن توجيـه نصـلي نحـوه فـإذا بـه يـراني هـو الآخـر ويصـد يـدي بكلتـا يديـه بقـوة ووتركيـز شـديدين ليحـول النصـل إليَّ يقتلنـي بـه.

تذكـرت كل الظلـم الـذي طالنـي مـن جـراءه، زوجتـي التـي اغتصبهـا وابنـي الـذي شرده وكل تلـك الويـلات والحـروب والـدم، صرخـت صرخـة واحـدة اسـتجمعت بهـا مـا بقـى لي مـن قـوة فاندفعـت فقاقيـع الهـواء مـن فمـي في سرعـة جهـة السـطح. فتحـت عينـي عـلى أشُـدهما وراوغـت يـدي كي اتخلـص مـن قبضتـه عليهـا ثـم التففـت مـن وراءه وأرحـت نصـلي عـلى رقبتـه ثـم سـحبته بهـدوء جامـح لتنسـاب خيـوط غـير منتظمـة مـن الدمـاء مـن رقبتـه أخـذت في التطـاول خـلال رحلتـه الأبديـة إلى قـاع النهـر.

أنا بشرى

269 هـ

وصلتنا الأنباء من الجنوب بارقة، يؤكد الجميع موت «نصير» غرقاً أثر اصطكاك السفن بعضها البعض.. كلما ذكر أحدهم ذاك أمامي كنت أستوثق منه غير مُصَدقة وقد غمرتني حالة من الفرح، أخذت أهرول ما بين الحجرات أتأكد من الجميع أنه مات...

يبدو أن الخبر مؤكد...

تفاوتت ردود الأفعال على موته ما بين من يُبدي الحزن نفاقاً... ومن هم محزونون حقيقة بسبب ارتباط أوضاعهم الرفيعة ببقاء «نصير» في قصره. لم يحزن عليه فعلاً إلا «شمس» تلك الجارية التي عشقته فلم يُبادلها حباً بحب. فقط كان يعاشرها من حين لآخر أرضاء لها وتنفيساً لشهوته، والحق أني كنت شامتة في موته وشامتة في «شمس»... فهي من كانت تدس لي الشراب المنوم في الطعام كي يجدني سيدها لقمة سائغة عندما يعود من الحرب. عندما مررت أمامها في ذلك اليوم وجدتها تبكي بعينٍ مُحمرة من كثرة الدمع، شعرت بي فرفعت أعينها إليَّ تتأملني. استشعرت هي السعادة المُرفرفة في نفسي فزعقت صارخة «انصرفيييييييي»، أرجفتني صرختها من الداخل فانطلقت هاربة من أمامها لأناجي نفسي داخل جناحي.

واه يـا «أدهـم» كـم أشـتاق إليـك حبيبـي، كـم أشـتاق إليـك ويحـدوني الأمـل العظيـم أن ألقـاك يومـاً ويلتئـم شـملنا ثانيـة.. مـرت بي لحظـة خـوف مشـؤمة تذكـرت فيهـا الهزائـم المتتاليـة التـي كابدهـا الزنـج خـلال السـنوات الخمـس المنصرمـة. فلـم ينتـصر الزنـج عـلى العباسـيين إلا في القليـل النـادر مـن المعـارك... وقـد ضاقـت الأرض عليهـم، لكـن لم تكـن نفـسي تتصـور بـأي حـال أن يمـس الأذى «أدهـم» فبغـيره لـن أسـتطع الاسـتمرار عـلى قيـد الحيـاة ولـو يومـاً.. حتـى «عمـر» لم يكـن وحـده كافيـاً لأتشـبث بمقاليـد حيـاتي البائسـة. «أدهـم» بخـير... هـو بخـير... ثـم أن قلبـي يحدثنـي أن أنفاسـه مـا زالـت تعطـر هـواء الدنيـا... حتـى أخالنـي أعـب منهـا في كل وقـتٍ وحـين.

نمـت هـذه الليلـة راضيـة النفـس مُطمئنـة البـال هانئـة. فقـط كان يأتينـي خاطـر بعيـد أن خـبر مقتـل «نصـير» هـو محـض أكذوبـة يتداولهـا الجميـع وأنـه سـيظهر مـن جديـد ليواصـل انتهـاك جسـدي المُسـتباح، لكـن أعـود وأتذكـر بـكاء «شـمس» وانقـلاب حـال كل مـن هـم في القـصر فتطمـئن نفـسي وتنفـرج أسـاريري ويفـتر فمـي عـن ابتسـامة خفيفـة وأضـم وسـادتي راضيـة... يحـدوني الأمـل في غـدٍ جديـد.

أفقـت في اليـوم التـالي عـلى صـوت فتـح بـاب جناحي. فتحـت عينـي مُتمهلة وقـد اسـتمتعت بليلـة هانئـة مـن النـوم العميـق... فـإذا الأمـيرة «رقيـة» تقـف متحفـزة عـلى البـاب وخلفهـا «شـمس»، تنظـر إليَّ مـن وراء كتفهـا شـامتة. شـعرت بنذيـر سـوءٍ، فانتفضـت مـن نومـي وقـد سـحبت غطـائي أدثـر بـه جسـدي، قالـت «رقيـة» بكلـماتٍ مقتضبـة: أحضروهـا... ثـم أولتنـي ظهرهـا وخرجـت مـن البـاب.

***

ارتجف قلبي خوفاً وشعرت أن الأسوأ قادم فـ «رقية» كانت من زوجات «نصير» ذوي السطوة فآفل نجمها عندما استجلبني «نصير» إلى القصر. لم ألتق بها يوماً ولكني كنت أراها مصادفة على بُعدٍ فأشعر بالحقد داخلها تكاد حراراته تلفح وجهي وتحرقه.. لكنها لم تكن لتجرؤ على إيذائي قط... لعلمها بشدة تعلق زوجها بي.

كانت «شمس» تجرجرني ومن ورائها جاريتان يدفعاني للأمام دفعاً حتى كدت أنكب على وجهي، همست «شمس» في أذني بصوتٍ أشبه بالفحيح:

- فرحة أنت بمقتل «نصير» لسوف أجعلك تحزنين عليه كما لم تحزني على شيء من قبل.. لسوف تعرفين أن يوما من أيام «نصير»، يُشترى بالذهب والياقوت.

دخلا بي إلى غرفة مظلمة وثبتا يديَّ في أطواق حديدية ثم نزعت عني ملابسي فأصبحت عارية الجزع تماماً وقد كُبِلت يداي فلم أستطع مداراة عورتي عنهن. التفت ورائي أريد أن أرى ماذا يعدون؟ فإذا «شمس» تغمس طرف سوطٍ أسود بشع المنظر في الزيت، كاد يغمى عليَّ من شدة الخوف. وصرت استرحمهم واستجديهم أن يتركوني وأني سأختفي من هذا القصر ولن يسمعوا عني ثانية ... ولن يرني من بعدها أحداً.

لم يردَّ عليَّ فيهن أحداً. كانت «رقية» واقفة وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة تشفي. لم تجدي توسلاتي نفعاً... فقط زادتهم شماتة واستمتاعاً واستغراقاً فتوقفت عن الصراخ وقبلت بمصيري المحتوم.

نزل السوط ينهل من ظهري فكان لحمي يتشقق من وطأ ضرباته. لم أستطع أن أمنع نفسي من البكاء من فرط الإهانة والألم. فكرت في «أدهم» وتمنيت لو يأتي فينتشلني من بين تلك الأيادي الشريرة.. تتابعت الضربات ووصل الألم إلى حدود جنونية في عقلي ولم يأتِ «أدهم».

توالت عليّ أيام لم أعرف عدتها في ظلامٍ دامسٍ محيط... يتخلله فصول من الجلد والضرب والتحريق والتعذيب، لا أعلم إن كنت في النهار أم في الليل... لا فرق عندي بين غفوة ويقظة، فقدت إيماني بكل شيء.. كان ظهري ينزف بشدة. فقد كانت خيوط الدم تزحف على رقبتي وصدري وفخذي... ألمحها في قبسٍ من النور الذي يشعه المصباح في يد زبانية الجحيم «شمس» و«رقية» كنت أتمنى الموت في كل لحظة... علها ضربة سوطٍ جامحة تخلصني من ذاك الألم المجنون. فُتح الباب فاقشعر جسدي استعداداً لشوطٍ جديدٍ من العذاب. لكني فوجئت بـ «عاهد» يدخل عليَّ القبو.

كان في يده مصباح فتكشف جسدي العاري أمامه فخجلت من حالي وفاضت الدموع من عيني وأنا أراوغ عيني عن عينيه، تحاشى النظر إلى جسدي... وقد هالته الجروح المتبدية في أنحائه.. يبدو أن «شمس» و«رقية» قد فعلا الكثير... فلم أعاين جسدي بعد.

شعر «عاهد» بخجلي من جسدي العاري وهيئتي المشوهة فخفف من ضوء المصباح ووضعه بعيداً وبدأ التحدث معي:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، لكل ظلم نهاية سيدتي.. وبعد عسر يسر.

لم أرد فقط أجهشت بالدمع أكثر فأكثر. احترم «عاهد» ثورة نفسي فبقى صامتاً حتى هدأت بعض الشيء فقال:

- «أدهم» على قيد الحياة، هو الآن قائد كبير من قواد صاحب الزنج، يحارب بشجاعة منقطعة النظير يزود عن المختارة أخر معاقل الزنج في الجنوب.

انتبهت فجأة وأحببت لو أنار المكان مرة أخرى فأتطلع إلى وجهه لأعرف صدق ما يقول:

- أحقاً «أدهم» لازال على قيد الحياة؟

شعر «عاهد» باستفاقة نفسي عندما بث الأخبار السعيدة عن «أدهم» فانفلتت ابتسامة عذبة من فمه وأكد عليَّ أن نعم وأكمل:

- لكن الوضع في الجنوب بات صعباً وبقيتهم الآن قد فروا إلى الغابات والمستنقعات بعد أن استطاع الموفق دخولها بشق الأنفس.

عاد قلبي يخفق بقوة مجدداً وقد ظننته قد مات من كثرة ما اعتاد الألم.

- وهل هناك أمل أن ينجو؟

- بالطبع سيدتي دائماً ما هناك أمل.

- وكيف استطعت الدخول عليَّ هنا رغم إحكام الحراسة؟ وكيف تعرف كل تلك الأنباء عن أدهم وأنت عن موضعه بعيد؟

- هو خيرك يا سيدتي وخير أموالك، فللذهب بريق يفتح الأبواب المُغلقة.

هززت رأسي موافقة وسرت أردد وأنا أنتحب:

- رحماك يا الله... رحماك يا الله.

رق «عاهد» لحالي مرة أخرى وشعرته يضمني بعينيه ويلقي عليَّ كلماتٍ من شأنها غرز الصبر والأمل في نفسي. هززت رأسي أوافقه على كلماته واعتذر هو عني أنه لن يستطع أن يستمر في القبو لأكثر من ذلك. تمنيت له السلامة واختفت انعكاسات المصباح على جنبات الحائط ليعود ثانية الظلام الدامس والهواء المكتوم ورائحة الدم المتجلط على أنحائي.

بعد انصراف «عاهد» وجدتني أفكر في «أدهم» ثانية. وتجدد لدي الأمل بعد يأس، فقد وعد «عاهد» أنه سيحاول أن يخرجني من هنا ويجيرني من العذاب الدائم. اطمأنت نفسي بعض الشيء وتركت جسدي

يرتخي على قيوده. لعلي أحصل على قسطٍ من النوم آملة أن تهدأ نفسي بعض الشيء.

انفتح باب القبو مرة أخرى فاستفقت من غفوتي، تفاءلت أن يكون القادم هو «عاهد» وقد وجد سبيلاً يُهربني منه من ذلك الجحيم، لكن خاب ظني فهما «شمس» و«رقية» وقد بدت على وجهيهما إمارات السوء. كان في صحبتهما عبداً زنجياً أراه لأول مرة، قالت شمس:

- أنت جميلة يا «بشرى»... وبعد أن فكرت الأميرة «رقية» فيما يصلح ليُطفئ جمالك ما وجدت إلا أن تحرق وجهك لتعيشي بائسة مشوهة ما بقي لك من عمر.. ولا تدري لعلنا نمل من اللعبة برمتها فنقتلك وتتخلصي حينها من حياتك المزرية.

نظرت إلى الزنجي وقالت:

- ثبت وجهها...

تقدم الزنجي لينفذ الأمر في الحين الذي رجعت فيه «شمس» لتحضر جذوة من اللهب مُقربة إياه من وجهي وعيني.

***

أنا لؤلؤ

270 هـ

قد ضقت ذرعاً بـ «بن طولون» وشكه المستمر فيَّ. أتوجس منه كل لحظة أن يفتك بي إن اطمأن إن وجد لنفسه بديلاً عني. فـ «بن طولون» غير مُستقر ذهنياً... في بعض الأوقات يكون وديعاً هادئاً مؤمناً... وأوقات أخرى يكون مندفعاً مجنوناً عاتياً.. هو غير مأمون الجانب في أي وقت من الأوقات.

المشكلة أن «بن طولون» مُقتنع أني شاركت في الانقلاب عليه مع ابنه «العباس»... أصارحكم الرأي قد حاولت أن أبقى على الحياد لأضمن لنفسي مكان مع السطان الجديد إن كتب لمحاولته النجاح. عندما شعرت أن الأمور لن تسير على ما يرام وأن «العباس» يُقرب إليه السفهاء... قررت حينها أن أبلغ «بن طولون» عن جميع ما يدور... أليس ذلك كافياً حتى يَعُدُني «بن طولون» من أهل الثقة؟ قد فعل العكس فبات أمره مني على حرفٍ. يشك في نواياي ويضعني تحت الرقابة العتيدة، ويغلظ عليَّ في القول حتى كرهته.

وللعلم لم يكن «بن طولون» يستطيع أن يحقق نصف ما حققه لولا تواجدي إلى جواره ومساندتي إياه، ولئن لم يعلم ذلك لأجعلنه يعرفه

ويتندم عليه، لذلك أخذت قراري بالانشقاق عليه والانضمام إلى عدوه اللدود «الموفق» فراسلت «الموفق» سراً ووافق على انضمامي إليه فتحركت نحوه عازماً أن أثبت له قدراتي الفائقة في إدارة الأمور... ومعي له سلاح سري يتمثل في معرفتي بأدق أسرار وخبايا «بن طولون».. فيمكنه الارتكان إلى تلك المعرفة في القضاء عليه حالما ينتهي من أمر صاحب الزنج.

والحق أن «الموفق» يكاد أن يكون قد انتهى من أمر الزنج ولم يتبق له غير ضربته الأخيرة التي يوجهها إليهم لتنتهي سيرتهم التي أرقته لسنوات. من بعدها يمكننا أن نتفرغ لأمر «بن طولون» فأنا أعرف أنه لم ينس ثأره منه... وأنه لا بد معاودة عندما ينتهي من أمر صاحب الزنج.

وصلت إلى «الموفق» في الثالث من محرم عام 670هـ واستقبلني استقبالاً حسناً. وأنزلني منزلاً أرضاه، وتفاءلت به وتفاءل هو بي:

- أمامك خمسة عشر يوماً لتتعرف على طبيعة الأرض وإمكانيات الجند... فالأرض هنا مختلفة مليئة بالآجام والمستنقعات ويُحسن الزنج استخدامها، ونجاحنا مرهون بفهم الأرض من حولنا.

وافقته وبدأت التحرك في حملات مُصغرة استطلع الأرض وقمت بهجمات صغيرة في أماكن مُتفرقة حتى دعاني «الموفق» يوماً وطلب مني البدء في حملة قوية على المختارة وما ورائها حتى لا يفلت منا «علي» أو أحد قواده فيتجمع الناس حولهم مرة أخرى:

- أخاف أن يمل الجند من طول مقامنا في الجنوب فيغلبهم شوقهم إلى عوائلهم على عزمهم للنصر.

وافقته ثانية وبدأنا حملتنا ضد الزنج في المختارة.. كان «الموفق» قد دخلها من قبل غير ذات مرة، ونال منها ما نال... لكنه يحتاج في هذه المرة أن يخليها تماماً من الزنج ويسيطر عليها بشكلٍ كامل.

***

في صفر بدأنا التحرك إلى المدينة من بعض الثغرات التي نقبها الموفق في الأسوار خلال الأشهر الفائتة، كانت المدينة منهكة متهتكة قد هُدمَّ أكثر بنائها.. لم نلق مقاومة تذكر.. فقط بعض بسطاء الناس الذين ينظرون إلينا في الطرقات بفضول وترقب.

سيطرنا على مداخل المدينة ومخارجها وعينا الجند لضبط الحركة في الطرقات والأسواق، وجرى تفتيش المنازل والقبض على جميع من كان يُشك في أمره.

لم نلبث غير ساعات حتى ابتلعنا المدينة وباتت لنا اليد العليا فيها. هنالك استدعاني «الموفق» وعينني على رأس فرقة كبيرة، وطلب مني تطهير الأدغال من حول المختارة والفتك بكل من يتبدى من الزنج بغير هوادة.. وبالطبع فإن الهدف الأساسي كان رأس «علي بن محمد».

خرجت في سرعة عسى ألا تتباعد المسافة التي تفصلني عنهم. ووزعت الجنود على نطاق واسع للسيطرة على أكبر مساحة مُمكنة من الأرض، قضينا نصف النهار في تقدم حذر حتى جن علينا المساء.

خيمنا في مكان آمن وأخرجنا بعض الطعام مما كان معنا. فما هي إلا دقائق حتى سمعت صوت جلبة آتية من الشرق، نبذت الطعام من أمامي وتحركت ورجالي إلى مصدر الصوت، يبدو أن معركة صغيرة دائرة الآن بين رجالنا وبعض الزنج المُختبئين، كان الأمر أكبر مما تصورت... أعداد كبيرة من الزنج يقاتلون رجالنا في استماتة قصوى. استللت سيفي واشتبكت مع المشتبكين. تباً لأولئك الزنج.. تلك هي المرة الأولى التي أقاتلهم فيها وللحق فهم جند صناديد استسلامهم بعيد وسيفهم شديد، لكن استطعنا التغلب عليهم بتوالي رجالنا إلينا من كل حدبٍ وصوب عندما تناهت إلى مسامعهم أصوات القتال.

تساقط الزنج وتبدى الأمر... فقد كانوا يزودون عن شخصٍ في المنتصف. هو لا بد قائد هام بينهم، وعندما انحصر الرجال من حوله استل هو الآخر سيفه واشتبك في القتال. عرفت الكثير من أسماء قوادهم، «سليمان بن جامع»، «بن أبان» ... وغيرهما لكني تمنيت أن يكون ذلك القائد الذي يُقاتل في المنتصف هو «علي بن محمد». لم أكن أعرف وجهه فاستمررت في القتال حتى وصلت إليه فتبادلنا مع بعضنا البعض ضربة تلو الأخرى... فظهر منه الجلد، لكن شاغله أحد الجند من خلفه فالتفت إليه فعاجلته بضربة باترة سقطت على أثرها يده الممسكة بالسيف. هوت أرضاً اليد المتصلبة على المقبض والتوى الرجل على نفسه ألماً وهو ينظر إليَّ مُترقباً... لم أمهله... فضربته ضربة أخرى على كتفه نفذت حتى صدره فوقع على الأرض.

في ذاك الوقت جرى أحد الجند فالتقط اليد المبتورة من فوق الأرض وجرى بها صوب جواده وفر هارباً. اقتربت من الرجل المُسجى أمامي... أمعنت النظر في ملامحه فاذا به رجل عربي غير تام السواد أصلع الرأس، وكان الناس يتصايحون من حولي:

- أنه «علي»... هو «علي».

فاعتليته واجتززت رقبته بسرعة خاطفة وقبضت عليها من ذقنها.

***

أنا بشرى

270 هـ

أخذت أصرخ صرخات عالية متناوبة وأنا أتلوى في أغلالي كحية حبيسة. توقعت أن تُكَبِل يد الزنجي الحديدية حركاتي المحمومة... وتصعد النار آكلة وجهي... مُحجرة لعيني... لكن ما حدث كان عجيباً...

فقد أفقت تغالب صرخاتي شدة ورعباً. فتحت عيني مدهوشة لأجد «شمس» مذبوحة تغرغر على الأرض مستلقية على ظهرها مُدبدبة بقدميها مُمسكة بجرحها تلف حول نفسها بجنون. انحبست الأميرة «رقية» في ركن من القبو وهي تصرخ صرخات عاتية لكن يد الزنجي طالتها ... فنزغها في جانبها بخنجره ثم استدار من خلفها وفعل بها فعلته مع «شمس» فسقطت صريعة بجانب صاحبتها. نظرت إليه مُرتعبة وهو يتقدم نحوي بخنجره الذي يُقطرُ دماً، فَعَلَت صرخاتي وتشنج جسدي، لكنه ألقى الخنجر وأخذ يتعامل مع القيود يفكها عن جسدي.

وبينما الزنجي منغمساً في حل الأغلال ظهر «عاهد» على باب القبو مُتدثراً ببردة طويلة وقد وضع قلنسوة عل رأسه يخفي بها ملامحه. اطمأننت لما أظهر نفسه لي وهدأت نفسي. خلع «عاهد» عن نفسه البُردة وغطاني بها مُربتاً علي:

- تجلدي يا «بشرى» فقد أعددت العدة اليوم للهرب.

كان احتكاك البردة بجسدي يُشعرني بآلام عاتية. وعندما حاولت أن أمشي شعرت وأن قدمي تتخاذل عن المشي وهممت بالسقوط فسندني عاهد والزنجي معه كل من ناحية. مشينا إلى خارج القبو من مسار مخصوص يبدو أن «عاهد» قد خطط له من قبل. بعد دقائق معدودات خرجنا إلى ضوء النهار، لم تحتمل مُقلتي الضوء الكثيف، بدا الأمر كآلاف الأبر الصغيرة تنغرز في عيني. أغلقت عيني بقوة وسار الإثنان يجراننى تماماً... كحثالة عمياء شلاء، يبدو أني مكثت في القبو أكثر مما تصورت.

***

كان النهار في ساعته الأولى فلم أجد الكثير من المارة في الطرقات. ساعدنا ذلك أن نصل إلى وجهتنا بغير أن يفطن إلينا أحد. دخلنا إلى منزل ضيق بسيط أساسه زهيد، فحملني عاهد داخل بردته وأودعني في فراش نظيف وأوكل للزنجي خدمتي:

- فلتطمأني له... فهو من رجالي المُخلصين، ولسوف يداوم على مداواة جرحك إلى حين تبرأين، فلترتاحي الآن ولسوف أمر عليك في المساء أطمئن على حالك.

لم أستطع الرد عليه ولو بكلمة.. لكن كل ما بداخلي كان يلهج بالعرفان لذاك الرجل الكريم.

ولى عني، فوليت رأسي جهة الحائط وتركت العنان لنفسي في البكاء. توالت عليَّ الأيام وكنت أسأل «عاهد» دائماً عن «أدهم» فكان يجيب... كل شيء في حينه سيدتي... كل شيء في حينه، فاضطر إلى السكوت.

كنت أخاف من الرجل الذي أوكله «عاهد» لخدمتي. كلما رأيت وجهه تذكرت «شمس» تدور في الأرض ممسكة بجرح رقبتها الممتد. كان

يعد لي الطعام ويضعه بجانبي وينصرف بمنتهى الانضباط... في بداية الأيام كنت أتناول قدرا قليلا من الطعام وتدريجياً بدأت صحتي في التحسن حتى لانت مفاصلي وبرأت أغلب جراحي. وفي أحد الأمسيات وفي الميعاد المعتاد لزيارة «عاهد» رأيته يدخل عليَّ وهيئته غير الهيئة، شعرت أنه يخفي شيئاً...

كان مبتسماً فقال:

- هل أنتِ مستعدة لسماع خبر جيد؟

اعتدلت في فراشي جزلة. فأخيراً سوف أستمع لخبر جيد، لم تمر ثانيتان على عبارته حتى سمعت دبيب أحدهم يدلف إلى الداخل...

أنه «أدهم»....

لم تُبدل السنوات المُنصَرِمة من هيأته شيئاً...

عدت أنثى في ثانية واحدة فصرت أعدل من هيأتي على نحو تلقائي... أوزع من خصلات شعري الذهبي الطويل حول جنبات وجهي. أمسح وجنتي لعل الاحمرار يتبدى فيهما، أتحسس الندوب البادية في رقبتي أحاول أن أداريها... في الحين الذي وقف فيه هو صامتاً يتأملني وقد علت على عينيه طبقة ثقيلة من الدمع المتجمد. لبثنا على حالنا لوهلة حتى دنا مني وجلس على فراشي فقبَّل يدي وهو ينظر إلى عيني... كنت أبكي وانحدرت الدموع من عينيه، أخذ يقبل يدي وجبهتي ووجنتاي ويحتضني بقوة وهو ينظر إليَّ غير مصدق.

شعرت أني في مرتبة أخرى، كأنني في الأفق الأعلى... في الفردوس الأعلى، كانت روحي ترفرف فرحة مُنتشية كأنها قد تحررت من قيدها الجسدي، هي السعادة المطلقة، والمبتغى والمنتهى.

وقف «عاهد» يرقب الموقف بتأثر شديد... ثم انصرف عنا ليعطينا بعض الخصوصية. لم تهدأ حمية اللقاء وإنما شرعنا في تبادل الأخبار.. فسار يسألني عن حالي وما مر بي حتى لقيته، كان يستمع إليَّ ويقبل يدي وقدمي، هالته أثار التعذيب في جسدي. فسار يسألني عنها فأوضحت له باقتضاب وعدت أحكي له ثانية كل ما مر بي في السنوات المنصرمة العجاف. وحكى لي هو الآخر. كيف حاول «نصير» اغتياله بعد أن اختطفني من بين أحضانه وكيف أنه أستطاع أن يقتله على حدود المختارة.. وكيف كان «الموفق» يوالي الهجمات على أخر مدن الزنج حتى سقطت أخيراً تحت وطأة الضربات الغاشمة الموجعة، سألته:

- وكيف استطاع «الموفق» أن يتقدم عبر القنطرة التي اصطفت بها سفن نصير؟

- أرسل سفينة كبيرة مليئة بالقش والزيت وقربها جهة القنطرة ثم رماها بسهمٍ مشتعل فاشتعلت وأشعلت الجسر معها رغم محاولاتنا المستميتة في إخماد النار. وبذلك أصبحت المدينة مُستباحة من كل جانب.

حكى لي عن صاحب الزنج «علي بن محمد» وأنه قد قتل منذ أيامٍ قلائل في بعض الدغل المحيط بالمختارة:

- قد ضاق الأمر عليه وهُدمَّ قصره. ثم هرب وحده إلى دار «المهلبي» ولم يجد الوقت الكافي ليأخذ معه حلائله وأولاده وحواصله. فاستطاع الموفق أن يغنم جميع ذلك. حتى أن «أنكلاي» ابنه حاول أن يستأمن «الموفق» على نفسه وقبله الموفق.. لكن «علي» عندما عرف بذلك أرسل إليه واستتابه وضمه ثانية إلى صفوف الزنج، لم يتوقف «الموفق» قط بل أخذ يوالي الضربات حتى سقطت المدينة.

أخبرني «أدهم» أن كثيراً من الزنج قد انضموا إلى «الموفق» عندما ضاق

عليهم الأمر. وكان الأخير يقبلهم بمنتهى الخبث، حتى يحد من ثورتنا ويسرع في سيطرته على الزنج:

- يقال أن «الموفق» قبل حملته الأخيرة علينا قد جلس مجلساً عاماً وأحضر قواد الزنج المُنشقين وقد أسماهم «المُستأمنين» فخطب فيهم وأخذ يعرِّفهم ما كانوا عليه من الضلالة والجهل وأن ذلك قد أحل له دماءهم ... وأنه غفر لهم زلتهم. وأن ذلك يوجب عليهم طاعته، وأنهم لن يرضوا ربهم وسلطانهم بأكثر من الجد في مُجاهدة الخبيث، فارتفعت أصواتهم بالدعاء له والاعتراف بإحسانه وسألوه أن يُفردهم بناحية ليظهر من نكايتهم في العدو ما يعرف به إخلاصهم وطاعتهم، فوافقهم الموفق وأوكلهم إلى رجل اسمه «شبل».

حكى لي عن «سليمان بن جامع» و «بن أبان».. ذكر لي مأسوفاً كيف مات الأخير ميتة الأبطال وهو يدافع عن «علي» كليث ثائر حتى سقط الجميع... واستطاع رجال الخليفة النيل من «علي» فوق جثته، طالما تمنى الشهادة وأخيراً قد نالها. سألته عن «سليمان»، فقال أنه مات من قبلها عندما استطاع العباسيين أسر زوجته وأبنائه وبقى مصيرهم مجهولاً بالنسبة له. فعزف عن القتال وبقى في داره، وهو في الغالب في أحد بيوت المختارة يعيش حياة المُشَرَدين. ولو عرفه أحد الزنج المُستأمنة وأبلغ عنه طمعاً في العطية فسيكون مصيره القتل لا محالة.

حزنت لحال «سليمان» وأسفت لمصير «بن أبان» و«علي» لكني لم أملك لهم غير الدعوة المخلصة.

- كان علي رجل عظيماً يا «بشرى» لم يكن شيء يدفعه إلى ثورته تلك غير غيرته على إنسانيتنا المهدرة وكرامتنا الممتهنة. وعد الرجال بعدم الانقلاب عليهم وصدق وعده فكانوا هم من انقلبوا عليه في النهاية، فكانت رأسه ثمناً باهظاً لثقته في أولئك، فما صَدَقَه العهد إلا قليل.

رددت عليه:

- من يسمع الحكاية من بدايتها، يظن أنه من سيخلوا بهم طمعاً في السلطة والجاه، لكنه صدق عهده معهم وهم من خانوه.

تشنجت قسمات وجهه وقال:

- قد رأيت هذا الرجل تُجَزُ رقبته جزاً ويحملها أحدهم معه قرباناً لأسياده العباسيين.. كانت هذه الثورة لتنجح لو أن مبادئها تعمقت في نفوس أصحابها أكثر، أو أن «علي» قبل بعض التحالفات عندما عُرضت عليه.. فقد كانت له فرصة ذهبية أن يكون جبهة واحدة مع «يعقوب الصفار» فتتوحد ثورة الزنج مع الثورة الصفارية... لكنه أبى، للأسف قد تم إخماد النيران المقدسة لثورة نقية قامت لتلبية حاجات ملحة لكثير من المقهورين. لم يترك لنا «الموفق» و«ابنه» شرراً يمكن منه إشعال الثورة مرة أخرى، فقد استأمنوا الزنج ودعوهم للعودة إلى الأراضي وكسح السباخ... فعادوا، عاد العبيد عبيداً... وعاد الأسياد أجلاف غلاظ.

استغرقني ما يقول لوهلة، لكني استفقت وعاجلته سائلة:

- وكيف استطعت الفرار بعد كل ما كان وقد أحاطوا بكم إحاطة تامة؟

- عندما أيقنت الهزيمة انسحبت للخلف وغطست في أحد المستنقعات.. حاول بضع رجال مطاردتي لكنهم انشغلوا عني عندما عرفوا أن من تم جز رقبته هو «علي بن محمد»، فقد كان ذاك هو الحدث الذي سيطر على الجميع.

***

في المساء دخل علينا «عاهد»، جلسنا معاً وأخذ يحكي لنا الأخبار:

- كنت أتشمم الأخبار في المدينة فعرفت أن «علي» قد قُتل. قتله رجل

اسمه «لؤلؤ» من المنشقين على «بن طولون»، يقال أن كف «علي» قد وصل بادئاً إلى «الموفق» فلم يصدق أنه كف «صاحب» الزنج. لبث قليلاً حتى جاءته رأس «علي» صحبة «لؤلؤ»، فسأل المستأمنة من الزنج عن حقيقة صاحبها فنظروا إلى الرأس فعرفوا صاحبهم فكبر «الموفق» وسجد... وسجد معه أتباعه العباسيين.

ثم أكمل:

- قد وصل «الموفق» وابنه «العباس» اليوم إلى سامراء وقد نصبوا رأس صاحب الزنج على رأس قناة المدينة فعرفه الناس فشمت الشامتون وحزن المُخلصون.

سمعت بمحاولة فاشلة لقتل «الموفق» قام بها أحد المُستأمنة الزنج اسمه «أوس» لكن الرجال المحيطون به استطاعوا إحباط المحاولة والقبض على ذاك الرجل ففُصلت رأسه في نفس يوم المحاولة وبعدها بساعات.

عرف «أدهم» «أوس» وذكر لي قصته... وكيف تم قتل أبيه وتعذيبه قبل موته.. أحزنت الأخبار المؤسفة «أدهم» فبدا السوء على وجهه من بعد الفرحة التي رأيتها في عينيه عند لقائنا فقد كان للسيف والرمح عنده رَحِماً، قال عاهد:

- المهم الآن أني أريد أن أخرجكم من تلك الأرض الظالم أهلها وأذهبوا إلى مصر فادخلوها آمنين مطمئنين، فهي الآن في يد «بن طولون» وهو متخارج عن الخلافة العباسية يحكم مصر حكماً مستقلاً وعلاقته الآن في غاية السوء مع الموفق، فلن يسأل عنكما أحد هناك ولئن عرفكما البعض فلن يُقدِم «بن طولون» على تسليمكما.

عندما انتصف الليل تدثر «أدهم» مُتخفياً وذهب إلى دار الشيخ «عمر» ليشكره على كل ما كان، ويسترد منه وديعتنا ابننا «عمر».. حذره

«عاهـد» أن خروجـه إلى المدينـة وتجولـه في شـوارعها أمـر غـير مأمـون لكنـه أصر، فدخـل عـلى الشـيخ عمـر وقبـل يـده واعـترف لـه بفضلـه واسـتلم الولـد وقـد صـار الآن فتـى يافعـاً عـلى أعتـاب الرجولـة. فـرح برؤيـاي وفرحـت برؤيتـه وشـعرت بـه عـلى وفـاق مـع أبيـه رغـم أنـه لم يعـاشره واعيـاً مـن قبـل... لكنـه حنـين الـدم للـدم.

في صبـاح اليـوم التـالي شرعنـا في التحـرك إلى مـصر بأجسـادٍ مسـتريحة طازجة آملـين في غـدٍ جديـد. ودعنـا «عاهـد» عـلى قارعـة الطريـق وأوكل إلينـا مـن يصاحبنـا حتـى نصـل إلى وجهتنـا، دومـاً مـا كان «عاهـد» غامضـاً، سـوف أمـوت وفي نفـسي شيء مـن هـذا الرجـل وأسراره المخبـوءة.

سألت أدهم:

- وكيف وجدت حال الشيخة «مؤنسة»؟

نظر إليَّ مبتسماً ثم قال:

- هـي عـلى خـير حـال، وقـد أحسـنت اسـتقبالي هـذه المـرة وهـي تقرئـك السـلام... أعلـم كـم تحبينهـا.

ابتسمت أنا الأخرى، ثم سألته بغتة:

- وكيف استطاع «عاهد» أن يجدك بعد أن دحر العباسيين جيش الزنج؟

ابتسم لي ابتسامة حانية غمرتني وقال:

- أنـا مـن أتيـت إلى سـامراء وسـألت عنـك وخططـت مـع «عاهـد» كيـف سـتهربين مـن بطـش «رقيـة»، لكنـي لم أسـتطع الظهـور عليـك لتزاحـم الجنـد في المدينـة بعـد مقتـل «عـلي» والاسـتعداد لمقـدم «الموفـق» وابنـه.

- وكيـف هنـت عليـك أن تتركنـي كل تلـك الأيـام بغـير أن أراك أو حتـى تخـبرني أنـك بجانبـي؟

ابتسم مرة أخرى ابتسامة فاقت في سحرها سابقتها وقال:

- تركت ذلك لقلبك يستشعره من أشواقي المنسابة من حولك أينما كنتِ.. ثم أني كنت أتكتم خبر نفسي حتى أحسن تنفيذ ما تم التخطيط له.

كان «عمر» ينظر إلينا يحاول أن يدرك واقعه الجديد. لكنه بلا شك كان سعيداً.. وصلنا إلى مصر بعد أيامٍ من السفر لم نشعر بمشقتها لأننا معاً، وعندما دخلنا إلى مصر عرفنا أن سلطانها «بن طولون» قد توفاه الله. قال العامة أن سبب وفاته أنه قد أكل من لبن الجاموس وأكثَر منه، وكان له طبيب نصراني نصحه ألا يقرب الغذاء يوم وبعض يوم. فجاع «بن طولون» فاستدعى خروفاً وفراريج فأكل منها، فعاوده الإسهال ومرض مرضاً شديداً ودعا الناس له. مات رحمه الله في أوائل ذي القعدة.

تولى الأمر من بعده ابنه «خمارويه» وأحسن إدارة البلاد والجيش، وحلت لنا المعيشة في مصر، وقَدَّم «أدهم» نفسه أنه تاجر من بغداد وكان معه أموال كافية لبدء تجارة جديدة في مصر كان أدخرها في أيامه الأخيرة مع صاحب الزنج. اشترينا بيتٍ جديد جميل وتقربنا من «عمر» وتقرب هو منا فشعرت وكأن يد السماء تربت على رؤوس ثلاثتنا من بعد الشتات والبعد.

تمت بحمد الله....

عمرو العروسي

أفريقيا الوسطى

أغسطس 2018

المراجع المستخدمة

1- شمس الدين الذهبي- سير أعلام النبلاء- مؤسسة الرسالة- الطبعة الأولى- 1983م.

2- أبو جعفر بن جرير الطبري - تاريخ الطبري -دار المعارف- الطبعة الثانية - بدون تاريخ نشر.

3-ابن الأثير-الكامل في التاريخ- دار الكتاب العربي- بدون رقم طبعة- 2012.

4- ابن كثير- البداية والنهاية - مكتبة المعارف - بدون رقم طبعة - 1991.

5- ابن تغري بردي- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة- بدون رقم طبعة- بدون تاريخ نشر.

6-فيصل السامر - ثورة الزنج - دار المدى- الطبعة الثانية - 2000.

7-د. نبيلة حسن -تاريخ الدولة العباسية-دار المعرفة الجامعية- بدون رقم طبعة - 1993.

للنشر
والتوزيع

info@noonpublishing.net

02-338560372- 01127772007